

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01816 2648

المعارف المصرية
في القرن الرابع
هـ

11
33
F
18
C







الحضارة المصرية
في
فجد التاريخ

تأليف

الدكتور إبراهيم أحمد زقاني
مدرس الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجواميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النورانية
٦ بيكة الشانوي بالاسمعية الجديدة





DT

83

R 597

1948

C-2

الحضارات المصرية في فجر التاريخ

تأليف

الدكتور إبراهيم أحمد زقاني
مدرس الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجواميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة (المنفردة)
٦ بكة الشاوي بالحياتية الجديرة

تتبعها في الفهم

في التلخيص

مفاتيح

منها في الفهم

في الفهم في الفهم

في الفهم

في الفهم في الفهم

في الفهم في الفهم

في الفهم في الفهم

فهرس الموضوعات

الصحيفة

الموضوع

٧ - ٣

المقدمة

الفصل الأول

(الأحوال المناخية في فترة ظهور الانسان) ٢٦ - ٨

٨	الأدلة على التغيرات المناخية
١١	العصور الجليدية
١٥	مراحل تراجع الجليد
١٨	التغيرات في خط الساحل
٢١	علاقة الأدوار الجليدية بمدرجات النيل
٢٢	بالشطوط البحرية
٢٢	الأحوال المناخية في أوروبا في الفترات الجليدية
٢٣	في شمال افريقية في الفترات الجليدية
٢٣	ميلاد نهر النيل
٢٤	الأحوال المناخية في السودان في الفترات الجليدية
٢٤	في الأقاليم الاستوائية في الفترات الجليدية
٢٥	العصر الجليدي في آسيا

الفصل الثاني

(حضارات العصر الحجري القديم في أوروبا) ٥٤ - ٢٧

٢٧	أقسام العصر الحجري
٢٨	ربط حضارات العصر الحجري بالفترات الجليدية والفترات الدفينة

(ب)

٣٢	الحضارة الشيلية
٣٦	الحضارة الأشولية
٤٠	الحضارة الموستيرية
٤٣	الحضارة الأوريفيائية
٤٨	الحضارة السولترية
٤٩	الحضارة المجدلينية

الفصل الثالث

(حضارات العصر الحجري المتوسط والحديث في أوروبا) ٥٥-٧٤

٥٥	الحضارة الأزيلية
٥٧	الحضارة التردنوازية
٥٨	الحضارة الكمبينية
٥٩	المرتبة الحضارية الخاصة بوسط أوروبا
٦٠	المرتبة الحضارية الخاصة بشمال أوروبا
٦٠	حضارة كوندرا
٦١	حضارة ما جلموز
٦١	العصر الحجري الحديث
٦٥	مصدر حضارة أوروبا في العصر الحجري الحديث
٦٧	أنواع المساكن في العصر الحجري الحديث
٦٨	مناطق حضارة العصر الحجري الحديث في أوروبا
٦٩	أجناس العصر الحجري الحديث في أوروبا
٧٠	الصناعة في العصر الحجري الحديث في أوروبا
٧١	الحضارة الأنوليثة
٧٢	بداية استعمال المعادن

(ج)

الفصل الرابع

سطح مصر من العصور الجيولوجية إلى العصور البشرية ٧٥-١٠٠

٧٧	العصر الكربوني
٧٧	العصران البرمي والترياسي
٧٨	العصر الجوراسي
٧٨	العصر الكريتاسي
٧٩	عصر الأيوسين
٧٩	عصر الأوليجوسين
٨١	عصر الميوسين
٨٢	عصر البليوسين
٨٤	عصر البليستوسين والعصر الحديث
٩٣	ارتباط المدرجات النهرية بالتغيرات المناخية ومستوى البحر

الفصل الخامس

(حضارات العصر الحجري القديم في مصر) ١٠١-١٢٥

١٠١	الحضارتان الشيلية والأشولية
١١٢	الحضارة الموستيرية
١١٥	حضارات العصر الحجري القديم الأعلى في مصر
١١٨	الحضارة القفصية
١٢٣	الحضارة السيلية

الفصل السادس

(حضارات العصر الحجري الحديث في مصر) ١٢٦-١٥٩

١٢٦	قصة الكشف عن حضارات هذا العصر في مصر
-----	--

(د)

١٢٤	حضارة تاسا
١٣٩	حضارة البدارى
١٤٧	حضارة الفيوم
١٥١	حضارة العمرى (أو حضارة حلوان الأولى)

الفصل السابع

(حضارات الوجه القبلى فى عصر ما قبل الأسرات) ١٦٠ - ٢١٤

١٦٢	حضارة العمرة
١٨٢	» جرزة
١٩٨	» سماينة

الفصل الثامن

(حضارات الوجه البحرى فى عصر ما قبل الأسرات) ٢١٥ - ٢٤٠

٢١٨	حضارة حلوان الثانية
٢٢٢	حضارة المعادى

الفصل التاسع

(اتحاد شطرى البلاد وقيام الحكم الملكى) ٢٤١ - ٢٦٢

٢٤٢	أثر الناحية الطبيعية فى توحيد البلاد
٢٤٧	أثر الناحية الجنسية فى توحيد البلاد
٢٤٨	أثر الناحية الدينية » » »
٢٥١	خطوات توحيد البلاد

٢٦٧ - ٢٦٢	المصادر
-----------	---------

فهرس الاستطال

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
١	اليابس والماء خلال عصر الأيوسيين	١٢
٢	اليابس والماء خلال النهاية العظمى للجليد	١٣
٣	الظروف المناخية في قارة أوروبا في فترة باردة	١٤
٤	» » » » » دفيئة	١٥
٥	امتداد جليد قزم في القارة الأوروبية	١٦
٦	ترتيب الطبقات في وادى السوم بشمال فرنسا	٢٩
٧	» » » » الأين بشرق فرنسا	٢٩
٨	» » » » توباخ بألمانيا	٣٠
٩	» » » » وادى السوم بشمال فرنسا	٣١
١٠	فاس شيلية	٣٣
١١	توزيع الحضارة الشيلية	٣٥
١٢	مثال من الآلات الأشولية	٣٧
١٣	» » » » الموسيرية	٤٠
١٤	توزيع الحضارتين الموسيرية والعاطرية	٤٢
١٥	» » » » القفصية والأورينياسية	٤٤
١٦	أسلحة من فترة أودى	٤٤
١٧	أسلحة أورينياسية	٤٥
١٨	أسلحة من أواخر الحضارة الأورينياسية	٤٦
١٩	أسلحة ذاب كعوب من أواخر الحضارة الأورينياسية	٤٧

(و)

الصحيفة	موضوع الشكل	رقم الشكل
٤٧	أسلحة سولتيرية	٢٠
٤٩	توزيع الحضارتين السولتيرية والمجدلينية	٢١
٥٠	أسلحة مجدلينية	٢٢
٥١	مثال لحربة مجدلينية ذات صف واحد والأخرى ذات صفين	٢٣
٥٢	عصا الرياسة	٣٤
٥٦	الحراب الأزيلية والحص المنقوش	٢٥
٥٧	الآلات القزمية التردنوازية	٢٦
٦٠	الآلات العظمية بحضارة ماجلهوز	٢٧
٧٦	خريطة تبين تكوينات سطح مصر في أهم الأزمنة والعصور الجيولوجية	٢٨
٨٣	خط بياني يوضح مستوى البحر القديم بالنسبة لمستواه الحال	٢٩
٨٨	مراحل نمو الدلتا وتراجع الساحل	٣٠
٩٥	قطاع في وادي النيل يوضح تعاقب المدرجات	٣١
٩٩	حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في فترة قزم الجلبدية	٣٢
١٠٣	فأس شيلية من مصر العليا	٣٣
١٠٤	فأسان مصريان من العصر الحجري القديم الأسفل	٣٤
١٠٥	تتابع الطبقات والحضارات في رواسب سهل العباسية	٣٥
١٠٦	فأس شالوسية من العباسية	٣٦
١٠٧	فأس شيلية	٣٧
١٠٨	فأس اشواية	٣٨
١٠٩	رأس حربة موستيرية	٣٩
١١٤	أمثلة من الأسلحة الموستيرية	٤٠

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٤١	أسلحة صوانية من الحضارة القفصية	١١٩
٤٢	أمثلة من الأسلحة السبيلية	١٢٥
٤٣	خريطة تبين أهم المواقع الأثرية	١٣٣
٤٣	آنية من دير تاسا	١٣٥
٤٤	سنارة لصيد السمك من دير تاسا	١٣٦
٤٥	آلة صوانية على شكل ورق الصفصاف من البدارى	١٤٠
٤٦	أواني سوداء القمة من البدارى	١٤١
٤٧	مزينة برسوم بيضاء من حضارة البدارى	١٤٢
٤٨	آنية غير جيدة الاحتراق من البدارى	١٤٢
٤٩	» » » » » »	١٤٣
٥٠	تمثال من البدارى	١٤٤
٥١	سبت من الفيوم	١٤٧
٥٢	سهم قلنسوى الشكل ومنشار من الفيوم	١٤٨
٥٣	» » » من مرمد	١٥٧
٥٤	آلة عظمية وفأس حجرية من مرمد	١٥٧
٥٥	أواني حجرية من مرمد	١٥٨
٥٦	فأس من الصوان من حضارة العمرة	١٦٥
٥٧	أسلحة صوانية مختلفة من حضارة العمرة	١٦٦
٥٨	أواني ذات قمة سوداء » » »	١٦٧
٥٩	أواني سوداء ذات نقوش بيضاء	١٦٨
٦٠	أواني من البازلت والمرمر من العمرة	١٧١
٦١	اناء اسطوانى من المرمر المصرى من حضارة العمرة	١٧١
٦٢	دبوس من النحاس من حضارة العمرة	١٧٣

(7)

الصحيفة

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٨٣	بعض الأواني الفخارية من حضارة حلوان الثانية	٢١٨
٨٤	صناعة السلال بحضارة	٢١٩
٨٥	هيكل أمير أو رئيس قبيلة ويبدء الصولجان من حضارة حلوان الثانية	٢٢١
٨٦	الأواني الفخارية السائدة في حضارة المعادى	٢٢٣
٨٧	بعض الأواني الغريبة بحضارة المعادى	٢٢٤
٨٨	آنيتان من أواني الخزن بحضارة المعادى	٢٢٥
٨٩	أواني من البازلت والمرمر من حضارة المعادى	٢٢٧
٩٠	سكاكين من الصوان	٢٢٨
٩١	مكشطان من حضارة المعادى	٢٢٩
٩٢	منشاران من المعادى	٢٢٩
٩٣	مشقاب من العظم من حضارة المعادى	٢٣٠
٩٤	مشط مصنوع من قرن حيوان بحضارة المعادى	٢٣١
٩٥	رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى	٢٣١
٩٦	كلمة بيت في اللغة المصرية (پر)	٢٣٣
٩٧	أحد المواقف بالمعادى	٢٣٤
٩٨	شارة القسم الخامس العشر فوق علامة القسم الإدارى	٢٤٦
٩٩	كلمة مدينة في اللغة المصرية	٢٤٦
١٠٠	الغزال معبود القسم السادس عشر	٢٤٩
١٠١	الثور الأسود معبود القسم العاشر	٢٤٩
١٠٢	الطائر أبيس معبود القسم الخامس عشر	٢٤٩
١٠٣	كلمة أله في اللغة المصرية	٢٥٠
١٠٤	الآله ست	٢٥٠

(ى)

الصحيفة

موضوع الشكل

رقم الشكل

- ٢٥٢ ١٠٥ علامة أمّنت (الغرب)
٢٥٣ ١٠٦ علامة يابت (الشرق)
٢٥٣ ١٠٧ الآله أوزيريس إله الزراعة
٢٥٤ ١٠٨ مقبرة الآله أوزيريس
٢٥٥ ١٠٩ الآله أنزقى متربعا فوق مديريته
٢٥٦ ١١٠ الصقر المنتصر على ست

استدراك : ١ - يوضع شكلا ١ و ٢ كل منهما محل الآخر .
٢ - يعدل وضع شكل ٥٧ بحيث تصبح قاعدته في أسفل .

مقدمة

درج الباحثون فترة من الوقت على تسمية الفترة السابقة للأسرات الفرعونية بعصر « ما قبل التاريخ » إذ أن معلوماتهم عن هذا العصر مستمدة من استقراء آثار الإنسان وحدها بينما معلوماتهم عن العصر التاريخي مستمدة من استقراء آثار الإنسان بالإضافة إلى قراءة وثائقه المدونة في أوراق البردى وعلى جدران المعابد والمقابر . ثم تبين للباحثين أن تاريخ الإنسان وحدة لا تتجزأ وأن الكتابة لا تعدو كونها مظهر آجد على تاريخه وأن الأقرب للصواب تسمية الفترة السابقة للأسرات الفرعونية بفجر التاريخ فأن الآلات والأواني الحجرية كثيراً ما تكون أصدق حديثاً عن تاريخ الإنسان من الوثائق المدونة التي قد تكون مغرضة ومضللة في كثير من الأحيان . وقد عزز هذا الرأي كثرة الحفائر التي أجريت وكثرة آثار فجر التاريخ التي كشفت مما سد الكثير من الثغرات في معلوماتنا عن إنسان هذا العصر . فعرفنا الكثير عن مميزاته الجنسية والثقافية وعلاقاته بمواطنيه من ناحية وبجيرانه من ناحية أخرى مما لم يتركنا في حاجة إلى أية وثائق مكتوبة عن هذه النواحي كلها . كما عرفنا شكل مساكنه ومقابره وأساليب حياته ونوع غذائه ولحمة عن معتقداته الدينية مما جعل تعبير « ما قبل التاريخ » أقل انطباقاً على الواقع وأصبح تعبير « فجر التاريخ » أصدق تعبير عن هذا العصر .

وأقدم آثار الإنسان في مصر عبارة عن آلات من حجر الصوان غليظة الشكل وجدت على السطح في الصحارى المصرية بين رواسب الزمن الرابع (عصر البليستوسين) ولم يدرس العصر الحجري القديم في مصر بنفس العناية التي درس بها في أوروبا ، إذ اقتصر البحث على الجهات المطلة على وادي النيل ، فأما الصحارى الشاسعة المترامية الأطراف على جانبي هذا الوادي حيث توجد آثار هذا الإنسان القديم فلم يرتدها الباحثون بسبب وعورة الطريق وقلة موارد المياه . أضف إلى هذا أن حافة

السهل الفيضى غنية بالآثار التاريخية كالمعابد والمقابر والنقوش التى بهرت أبصار الأثريين وشغلتهم عن آثار العصر الحجري التى تقل جمالا ورونقا عن آثار العصر التاريخي وإن كانت تفوقها فى قيمتها العلمية .

ويمكن اعتبار الجبال المصرية سجلا نقرأ فيه الحوادث الجيولوجية التى تعاقبت على هذه البلاد ؛ إذ تدل طبقاتها على أنها ظلت تحت الماء حتى عصر الايوسين تتلقى الكثير من الرواسب البحرية ، ثم ما كادت هذه الطبقات تظهر فوق صفحة الماء حتى غطتها الغابات والبحيرات والنهيرات مثلها فى ذلك مثل الطبقات المعاصرة فى فلسطين وسوريا وجزء كبير من أفريقيا الوسطى .

ثم تعرض اليابس فى عصر الميوسين للاضطرابات الأرضية وما صحبها من هبوط أجزاء وارتفاع أخرى مما غير من معالم السطح ، وتوغل البحر الشمالى حتى أسوان وتكون منخفض البحر الأحمر .

وقد نشأ منذ هذا الوقت نظام مائى جديد ، فاختلفت الشلاجات من وسط أفريقيا وانصرفت مياه البحيرات نحو الشمال وبذلك تكون نهر النيل ، وأصبح يجرى فى الصحراء الغربية فى المجرى المسمى بحر بلا ماء الواقع إلى الغرب من مجراه الحالى . ثم تغير مجرى النهر وأصبح نهر مصر المقدس يسير فى مجراه الحالى .

وفى الوقت الذى كان نهر النيل ينحت فيه مجراه أو بعده بقليل وجد الإنسان لأول مرة ، وهو إنسان العصر الحجري القديم الذى لا نعرفه إلا من آلات الصوان الغليظة التى خلفها .

وبعد فترة حفر النهر لواديه جاءت فترة ملء هذا الوادى بالطمي وهى عملية بطيئة ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا . وقد ظهر لنا الإنسان فى هذه الفترة من جديد ، وعرف فى هذه المرة بمقابره وانقراض قراه ومخلفات غذائه التى دلت على أنه أرق حضارة فكان يصنع الآلات الصوانية بمهارة لا يفوقه فيها أى إنسان فى أوربا فى العصر الحجري الحديث ، وكان يصنع الأنية الحجرية والفخارية ويزينها

برسوم ونقوش وكان يشكل على هيئة الحيوانات لوحات من الشست والاردواز ،
ويصنع عقوداً من الأصداق وحببات الأحجار المختلفة .

ثم يظهر إنسان يعرف صناعة المعادن ويعرف الكتابة ويجيد الرسم والنقش
والنحت وغير ذلك من الفنون كما يتقن البناء . وبظهور هذه الحضارة ينتهى فجر
التاريخ وينبثق صبحه بتأسيس الحكم المملوكى الفرعونى .

وهنا تتضارب الآراء فى أصل هذه الحضارة الجديدة فمن قائل أنها وفدت إلى
مصر من الخارج مع غزاة قدموا من الشرق فقهروا الشعب المصرى وأقاموا هذه
الحضارة الجديدة بأهراماتها الضخمة التى تناطح السحاب بقممها العالية ومجدها
الهائلة التى تفنى العصر وهى على الدهر باقية ، ونقوشها الجميلة التى تبهر الأبصار ،
وأدبها الرفيع الذى يأخذ بالآلباب . ومن قائل أن هذه الحضارة فى مصر نبئت
بدورها فى هذه البلاد ، وتأصلت جذورها فى تربتها منذ القدم ، وإنه من الجائز أن
يكون قد وفد إلى البلاد بعد بدء تاريخها المدون حفنة من الغزاة استطاعت أن تصل
إلى عرش البلاد فى الأسرة الرابعة ، وأن تحمل إليها ألوانا جديدة من الحضارة
لم تبدل من الحضارة القديمة وإنما طعمتها وصبغت بصبغة جديدة .

ويستند أصحاب الرأى الأول إلى أمرين ، الأمر الأول ظهور حضارة عظيمة
الرقى بشكل فجائى فى وادى النيل الأدنى ، والأمر الثانى ظهور أصحاب الرؤوس
العريضة فى مقابر الأسرة الرابعة .

غير أن هذا الرأى أصبح لا يستند إلى أساس ، فقد دلت الحفائر الحديثة فى
الدلتا والصعيد على أن الحضارة الفرعونية لم تنشأ فجأة فى مصر بل سبقتها أدوار من
الحضارة عديدة متدرجة بدأت بالعصر الحجري القديم ثم تطورت إلى العصر الحجري
الحديث ، ثم إلى عصر ما قبل الأسرات ثم إلى عصر الأسرات . وليس هناك أى مظهر من
مظاهر الحضارة الفرعونية — سواء أكان بناء أو نقشاً أو نحتاً — لا نستطيع أن نرجع
جذوره إلى عصر ما قبل الأسرات ، ثم نتبع سيقانه وفروعه فى العصر الفرعونى

مما لا يدع مجالاً للشك في أن شجرة الحضارة أصيلة في هذه البلاد . وهذا لا يمنع من أن تكون بعض مظاهر الحضارة نقلت إلى مصر من الجهات المجاورة ولا سيما غرب آسيا ، كما أن بعض مظاهر الحضارة المصرية الصميمة نقلت إلى هذه الجهات ، أى أن مصر أعطت كما أخذت ، بل لعلها أعطت أكثر مما أخذت . وأما القول بوجود هياكل بشرية في مقابر الأسرة الرابعة تختلف في مميزات الجنسية — ولا سيما في شكل الجمجم — عن الشعب المصرى فليس دليلاً على أن جنساً جديداً هاجر إلى مصر في الدوالة القديمة — كما يريد بعض الباحثين أن يقول — وأوجد الحضارة المزدهرة التى تتمثل فى أهرامات الجيزة بشكلها الضخم . وإنما كل ما يمكن القول به أن عنصراً عريض الرأس استطاع أن يصل إلى حكم البلاد فى هذه الأسرة ، وربما كان هذا العنصر قديماً فى البلاد وربما وفد إليها قبيل قيام هذه الأسرة من جهة مجاورة فى غرب آسيا . وليس من الضرورى أن نربط بين بناء الأهرامات وبين هذا العنصر العريض الرأس ؛ فإن البناء بالحجر مر فى عدة أدوار قبل قيام الأسرة الرابعة وبدأ بسيطا فى الأسرة الأولى ، ثم ازداد ضخامة فى الأسرة الثانية ، ثم ظهر بمظهر رائع فى هرم زوسر المدرج بسقارة فى الأسرة الثالثة ثم ظهر بمظهر أروع فى أهرامات الأسرة الرابعة . ومثل هذا يمكن أن يقال عن كل مظهر من مظاهر الحضارة التى تنسب لأصحاب الرموس العريضة . ويمكن أن يضاف إلى هذا أيضاً أنه لا يشترط لا انتقال الحضارة والثقافة انتقال الأجناس ، بل إن العلاقات التجارية وعلاقات الجوار كافيتان لا انتقال الحضارة من مكان لآخر دون أن ينتقل معها الإنسان ، ولا شك أن ظهور الحضارة فى مصر — فى ذلك الوقت المبكر — بمظهر رائع لم يوجد مثله فى الأقطار المجاورة يرجح القول بأن الحضارة المصرية أصيلة ، وأن المظاهر المماثلة فى الأقطار الأخرى منقولة عنها ، وستثبت فصول هذا الكتاب صحة هذا رأى .

ولقد كان العالم فى فجر التاريخ وحدة حضارية متماسكة إلى حد كبير ، وكانت حضارته متشابهة لا فرق فى ذلك بين القارات المختلفة ، فالحضارة الشيلية مثلاً

المتشابهة في خصائصها في غرب آسيا وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا. ثم كلما ارتقى الإنسان في مدارج الحضارة كلما ظهر التخصص والتنوع بحسب الاختلاف في التوزيع الجغرافي، فبينما ظلت أوروبا في العصور الحجرية زمنا طويلا نجد شعوب غرب آسيا وشمال أفريقيا تتخلص من هذه العصور في فترة مبكرة، وتنتقل إلى عصر المعادن والعصر التاريخي، فتعرف صناعة المعادن والكتابة وإنشاء المدن، ويقوم بها النظام الملكي.

ولقد درس العصر الحجري في أوروبا بعناية شديدة، واطلقت على مراحل حضاراته أسماء خاصة نسبة للأماكن التي كشفت بها أهم نماذج هذه الحضارات أو أقدمها. وقد أصبحت هذه الأسماء عالمية بمعنى أنها تطلق على الحضارات المتشابهة في أجزاء العالم المختلفة، ولهذا كان لابد لنا من أن نتعرض باختصار للحضارات الأوروبية لكي نستطيع دراسة الحضارات المصرية المتشابهة، وسنفرد فصلين لدراسة الحضارات الأوروبية في العصور الحجرية.

ولما كانت حضارات العصر الحجري وثيقة الصلة بالظروف المناخية المعاصرة لها وعلى الأخص العصور الجليدية التي سادت في عصر البليستوسين فكان لابد أيضا من أن نفرّد فصلا لوصف المناخ خلال هذه العصور الجليدية في أوروبا وشمال أفريقيا، وكان لابد لهذا الفصل من أن يسبق الفصول الخاصة بالحضارات. ثم ننتقل بعد ذلك لدراسة مصر نفسها، فنكتب فصلا عن سطح مصر ومناخها في العصور المختلفة، وبذلك نعد المسرح الذي تتتابع عليه الحضارات، ثم تتبع هذا الفصل بعدة فصول تتناول الحضارات المصرية منذ فجر التاريخ حتى انبثاق صبحه.

الإسكندرية في أغسطس سنة ١٩٤٨ إبراهيم أحمد رزقانه

الفصل الأول

الأحوال المناخية في فترة ظهور الإنسان

عندما سادت النظرية السديمية واعترف بها كمصدر لنشأة المجموعة الشمسية كان طبيعياً أن يعتقد العلماء أن المناخ أخذ في البرودة التدريجية. وحقائق توجب أدلة كثيرة على أن الأحوال المناخية في الماضي كانت أكثر دفئاً وعلى أنها سائرة على العموم نحو البرودة التدريجية. ولكن توجد في نفس الوقت بعض الصخور النديمة في العروض المعتدلة الحالية تحتوي على بقايا آثار جليدية، مما جعل العلماء يفكرون في أن عصوراً باردة مرت على الكرة الأرضية منذ القدم وتخللت عصورها الدفئة.

وانتدلت الحفريات على وجود كائنات حية على وجه الأرض منذ العصر الكمبري وما قبله، غير أن طبيعة هذه الحفريات لا تساعد على التمييز بين الأنواع المناخية المختلفة في هذه الأزمنة الجيولوجية السحيقة لأن أكثرها من نوع مائي لا يظهر فيه التغير والتشكل تبعاً لتغير الأحوال المناخية. ولكن عندما تخصصت الأنواع في الزمن الأوسط أمكن التمييز بين الأنواع القطبية والأنواع المدارية من هذه الحفريات. ثم لما ازداد تطور الكائنات الحية في الأزمنة التالية وتنوعت النباتات والحيوانات البرية أمكن الاعتماد على الحفريات في استنباط المعلومات عن الظروف المناخية التي عاشت فيها تلك الكائنات، مثال ذلك الماموث Mammoth والنمر ذو الأسنان الحادة Sabre-toothed tiger والصفصاف القطبي Arctic willow وغير ذلك من الحيوانات والنباتات العديدة.

وكذلك أمكن الاستدلال على حدوث التغيرات المناخية من طبيعة التكوينات الصخرية فيكتل الصخور الطفلية تدل على المناخ الجليدي، كما أن رواسب الملح

والجس تدل على الأحوال المناخية الجافة ، وتتخذ الصخور المرجانية دليلا على البحار الدفيئة ، كما تدل التكوينات الفحمية المتخلفة عن الأشجار الخالية من حلقات النمو السنوية على المناخ الدائم الحرارة والمطر طول العام وما نسمة الآن إقليم الغابات المدارية . وفي نفس الوقت استدل من وجود حلقات في نباتات معاصرة لهذه التكوينات الفحمية في جهات أخرى من العالم على حدوث تغيرات فصلية في المناخ وكذلك توجد أدلة على حدوث تغيرات مناخية في العصور التاريخية نفسها ، ونقصد بالعصور التاريخية الفترة الزمنية التي بدأت بظهور الوثائق المكتوبة وطول هذه الفترة حوالى سبعة آلاف سنة حتى الوقت الحاضر .

والنظرية السائدة في الوقت الحاضر أن المناخ يتذبذب منذ القدم بحيث يعلو أو يهبط بالنسبة لمستوى معين ، فنتج عن ذلك حدوث موجات متناوبة من الحر أو البرد ومن المطر أو الجفاف .

وقد لخص الأستاذ أوستن ميلر الأدلة التي يستند إليها العلماء في القول بوجود الذبذبات المناخية فيما يلي :

١ - المعلومات الخاصة بالأمطار وغيرها من الظواهر المناخية الأخرى التي سجلها الكتاب القدماء مثل سجل الظواهر الجوية الذي دونه بالاسكندرية بطليموس الجغرافي في القرن الثاني الميلادي .

٢ - المعلومات الخاصة بالفيضانات وفترات الجفاف .

٣ - المعلومات الخاصة بمواعيد بذر الحبوب وضمها ومثال ذلك أنه توجد في بعض جهات أوروبا سجلات مدون فيها مواعيد جنى الكروم منذ سنة ١٤٠٠ .

٤ - البيانات الخاصة بمواعيد تجمد الموانى والأنهار ، ومثال ذلك أنه توجد بالدانمرك سجلات مدون فيها مواعيد تجمد المياه عند سواحلها في فصل الشتاء منذ سنة ١٣٥٠ .

٥ - القصص الدينية مثل قصة الفيضان .

- ٦ — اختلاف المسافات بين الحلقات السنوية لنمو الأشجار المعمرة ، وقد عمر بعض هذه الأشجار أكثر من ٣٠٠٠ سنة .
- ٧ — التوزيع القديم للنباتات الحساسة أى التى تتأثر بسرعة بالأحوال المناخية مثل النخيل والكروم .
- ٨ — وجود الغابات الميتة — المتحجرة وغير المتحجرة — فى جهات لا تسكنى أمطارها فى الوقت الحالى لنمو الغابات وكذلك وجود كتل الأخشاب المتفحمة فى جهات شديدة الجفاف فى الوقت الحاضر .
- ٩ — وجود آثار مراكز عمران قديمة فى جهات لا تساعد ظروفها المناخية الحالية على العمران ومثال ذلك انقراض مدينة تدمر فى الصحراء السورية فإنه بناء على هذه الانقراض يقدر عدد سكانها قديماً بأكثر من مائة ألف نسمة . فى حين أن أمطارها الحالية لا تسمح إلا بسكنى ألف نسمة فقط .
- ١٠ — وجود آثار تدل على قيام الزراعة فى مناطق لا يسمح المناخ الحالى بزراعتها ، ومن هذه الآثار معاصر الخمر واجران درس الغلال
- ١١ — امتداد بعض الطرق حول بحيرات جافة حالية وكذلك قيام كبارى على مجارى مائية ليس بهاماء فى الوقت الحاضر
- ١٢ — وجود أدلة على اختلاف مستوى بعض البحيرات والبحار المقفلة مثل بحيرة فكتوريا وبحر قزوين .
- ١٣ — وجود الشواطىء البحرية والبحيرات الجافة .
- ١٤ — تقدم الانهار الجليدية وتقهقرها .
- ١٥ — وجود مقابر فى جزيرة جرينلند وقد استخرجت التوابيت من الأرض الدائمة التجمد فى الوقت الحالى ، وقد لوحظ أن الجذور النباتية تخرق هذه التوابيت

بما يدل على أن صيف هذه الجزيرة عند دفن هؤلاء الموتى كان ادفاً منه في الوقت الحال ، وكان يسمح بقيام حالة نباتية .

١٦ - الهجرات الكبيرة المشهورة في التاريخ ، وقد أمكن الربط بين تلك الهجرات وبين الفترات التي ساد فيها الجفاف في المواطن الأصلية للشعوب المهاجرة

وليس من غرضنا في هذا المقام أن ندرس أسباب التغيرات المناخية ، وإنما يهمنا القول أن ظهور الإنسان الأول كان معاصراً لتغيرات هامة في المناخ نتج عنها ظهور الفترات الجليدية في عصر البليستوسين الجيولوجي ، وقد مرت الكرة الأرضية في عدة فترات جليدية قبل الجليد البليستوسيني ، وقد جاءت هذه الفترات الجليدية عقب الحركات الكبيرة التي كونت السلاسل الجبلية على النحو الآتي :

١ - فترة جليدية في العصر الجيولوجي البروتروزوي الأسفل منذ ٧٥٠ مليون سنة ، تلت الحركة الالتوائية البروتروزوية القديمة .

٢ - فترة جليدية في العصر الكمبري الأسفل منذ ٥٠٠ مليون سنة تلت الحركة الالتوائية البروتروزوية الحديثة .

٣ - فترة جليدية في العصرين الجيولوجيين الفحمي والبرمي منذ ٢٦٠ مليون سنة تلت الحركة الالتوائية الهرسينية .

٤ - فترة جليدية في عصر البليستوسين منذ فترة تتراوح بين ٧٠٠ ألف و ٢٠ ألف سنة . تبعت الحركة الالتوائية الألبية .

وقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تتأخر الفترة الجليدية مدة طويلة بعد أن تنتهي الحركة الالتوائية ويتم تكوين الجبال ؛ فمثلاً قد تمت الحركة الألبية في الميوسين ومع ذلك ظل المناخ الدفئ سائداً في البليوسين ولم تظهر الفترة الجليدية إلا في البليوستوسين وتفسير ذلك أن النهاية العظمى للتضاريس لا تتفق مع النهاية العظمى للحركة الالتوائية ، وذلك لأن حركة التوازن تستمر فترة طويلة بعد انتهاء الحركة الالتوائية وينتج عنها استمرار حركة الارتفاع في اجزاء

القشرة الأرضية وقد ثبت أن القشرة الأرضية في كثير من اجزاء العالم - إن لم يكن كلها - في حالة توازن isostatic equilibrium بمعنى أن سطحها يقع على ارتفاع يتناسب مع ثقل الحمل الذي تحمله على هيئة جبال وهضاب وسهول . ومن الجلى أن تراكم الغطاء الجليدى يفسد هذا التوازن لأنه يضيف حملا الى بعض اجزاء العالم ، وهذا يتطلب هبوط الأجزاء المغطاة بهذا الحمل الجليدى بدرجة تتناسب مع ثقله . ومن جهة أخرى نجد أن زوال الغطاء الجليدى بالذوبان في الفترة الدفينة يفسد التوازن ، وهذا يتطلب ارتفاع الأرض من جديد الى مستواها الأصلي . وهذه التغيرات في مستوى الأرض في الحالين تتناسب مع ثقل الجليد المتراكم أو المذاب . وقد ثبت حدوث هذا التوازن في جهات كثيرة من العالم من وجود الشطوط المرتفعة في الجهات التي غطاها الجليد



شكل ١ - اليابس والماء خلال عصر الأيوسين

ومعنى هذا أنه في أوائل الزمن الجيولوجي الثالث كانت تسود ظروف مناخية معتدلة ، ويوضح شكل (١) توزيع اليابس والماء على سطح الأرض في عصر الأيوسين أول عصور هذا الزمن ، وفيه نرى أربعة مسالك بحرية تصل مياه الجهات الباردة بمياه الجهات الحارة ، ثم تحدث بعد ذلك حركة الالتواءات الألبية التي تبلغ ذروتها في عصر الميوسين ثالث عصور هذا الزمن ، ثم بعد ذلك تقضى القشرة الأرضية فترة طويلة تتوازن فيها نتيجة للاضطراب في توزيع المرتفعات والمنخفضات الناجم عن الحركة الألبية ، ويتضمن هذا التوازن حدوث حركات رأسية ، وبذلك لم تصل التضاريس أقصى ارتفاعها إلا في أوائل

البليستوسين ، وبعد ذلك أخذت الفترة الجليدية في الظهور (أنظر شكل ٢) .
ولم تكن فترة الجليد البليستوسين في الحقيقة فترة واحدة بل كانت عبارة عن
أربع فترات جليدية تفصل بين كل منها فترة دفيئة تتحسن الأحوال المناخية فيها
تحسناً كبيراً بحيث تفوق في اعتدالها مناخنا الحالي .



شكل ٢ — اليابس والماء خلال النهاية العظمى للجليد
(أهم الغطاءات الجليدية مظلة)

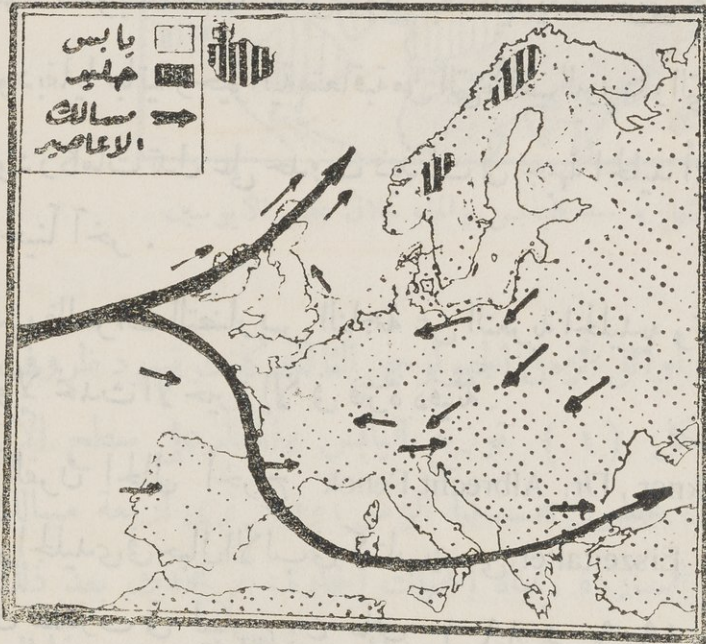
- وقه استدل على تعاقب فترات الجليد والدفء في البليستوسين بما يأتي :
- ١ — وجود تكوّنات متعاقبة من رواسب جليدية وأخرى غير جليدية .
 - ٢ — وجود نباتات نباتية وحيوانية متعاقبة من التي تألف البرودة والتي تألف الدفء .
 - ٣ — وجود ركامات تدل على حدوث ذبذبات في جبهة الجليد أى أنه كان يتقدم حيناً ويتقهقر حيناً آخر .
 - ٤ — تعاقب ظاهرات التضاريس الناجمة عن التعرية الجليدية وتلك الناجمة عن التعرية النهرية ولا تحدث الأخيرة إلا في فترة دفيئة .

وفي أوائل القرن الحالي أخرج E. Buckner , Dr. Albrecht Penck نتائج
دراستهما للعصر الجليدي في جبال الألب في كتاب يسمى Die Alpen im Eiszeitalter
في ثلاث مجلدات صدرت في ليننجر بين عامي ١٩٠١ و ١٩٠٩ . فمن فحص
الركامات الشلجية القديمة وعلى الأخص الركامات النهائية اقتنع هذان الباحثان بأن
إقليم الألب مر في أربعة أدوار جليدية متفاوتة السمك والامتداد ، كما تمسكنا من
إثبات وجود فترات دفيئة تفصل بين الأدوار الجليدية بل ، إنهما تمسكنا من إثبات
العلاقة بين هذه الأدوار الجليدية الأربعة وبين مدرجات الحصباء المتعاقبة في نهر الرين

وغيره من الأنهار . أما الأدوار الجليدية فهي كما يأتي مسماة نسبة إلى أسماء بعض وديان جبال الألب التي وجدت فيها ركاماتها :

سنة ؟	ق م	Gunz	جنز
٤٣٠.٠٠٠ — ٢٧٠.٠٠٠	ق م	Mindel	مندل
١٣٠.٠٠٠ — ١٠٠.٠٠٠	ق م	Riss	رس
٤٠.٠٠٠ — ١٨.٠٠٠	ق م	wurm	قورم

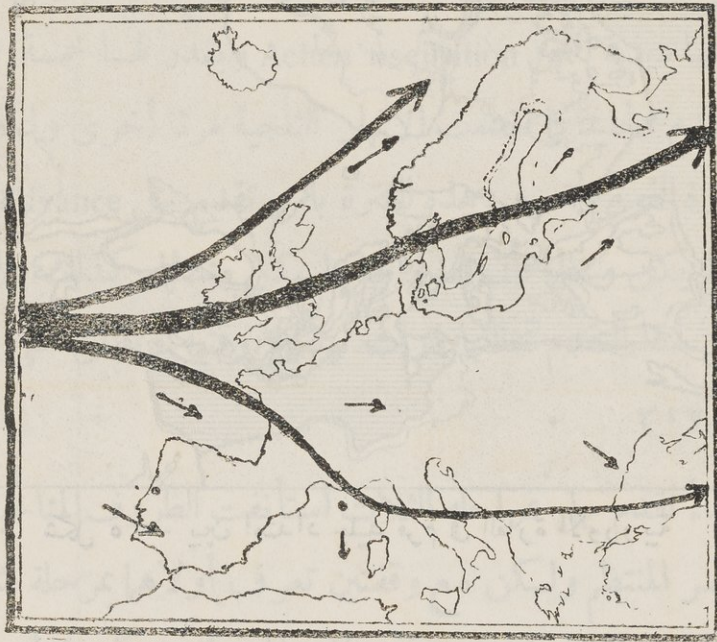
ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الفترات الدفيئة ينبغي أن ندرك تعاقب الحوادث التي ينتظر حدوثها في مساحة من الأرض غمرها غطاء جليدي ، ثم تبعا لذلك التغيرات التي ينتظر حدوثها في الجهات المحيطة بالأرض المغطاة بالجليد .



شكل ٣ بين الظروف المناخية في قارة أوروبا في فترة باردة

فالغطاء الجليدي إذا نما وكبر نتيجة لتراكم التساقط الثلجي هبط تبعاً لذلك مستوى البحر بالنسبة لمستوى الأرض ، ويقدر هذا الهبوط بمقدار ٤٠٠ قدم في الفترة الجليدية . ثم يأخذ مستوى الأرض في الهبوط بالنسبة للبحر تحت ثقل هذا

الغطاء الثلجي ، ويقدر هذا الهبوط بمقدار ثلث سمك الغطاء الجليدي . ونتيجة لهذا الهبوط يأخذ الجليد في الذوبان وتتمكن التيارات الهوائية من التوغل داخل اليابس حاملة معها تأثيرات دفيئة من البحار المجاورة ، وبذلك تحدث فترة دفيئة ، (شكلا ٣ ، ٤) ثم نتيجة لذوبان الجليد تأخذ الأرض في الارتفاع مرة أخرى حتى تعلو فوق خط الثلج فيتراكم الجليد مرة أخرى وتحدث فترة جليدية ثانية وهكذا .



شكل ٤ : انظروا المناخية في قارة أوروبا في فترة دفيئة

مراحل تراجع الجليد :

عرفنا أن العصر الثلجي العظيم ساد أوروبا في عصر البليستوسين الجيولوجي وقد اقترن به ظهور أولى الأدلة المؤكدة على وجود الحياة البشرية . ورغم أن المساحات التي غطاها جليد قزم لم تكن أكبر من المساحات التي غطيت في بعض العصور الجليدية السابقة له إلا أن جليد قزم كان من القسوة بحيث استحال معه الاستيطان البشري في معظم أوروبا فقد كانت الشقة الضيقة المحصورة بين جليد العروض الشمالية وبين جليد جبال الألب قاسية البرودة كقسوتها في أبرد جهات

سبيريا في الوقت الحاضر . (أنظر شكل ٥) وحتى هذا الوقت لم توجد أجناس بشرية شبيهة بالأجناس الحالية كما دل على ذلك مخلفات هياكل إنسان هذا العصر .



شكل ٥ — بين امتداد جليد قرم في القارة الأوروبية

وبعد تراجع جليد قرم أو بالأحرى وقت تراجع ظهور الإنسان الحديث Homo Sapiens لأول مرة في أوروبا .

وحينما كان جليد قرم في ذروته وصلت الحقول الثلجية في وسط أوروبا إلى ألفي قدم تقريبا تحت مستواها الحالي بينما امتدت الأنهار الثلجية إلى ما دون ذلك . وكان يمتد غطاء ثلجي عظيم من اسكندناوة فيغطي كل إقليم البلطيق وفنلندة وجزءاً من شمال ألمانيا .

وبعد أن وصل جليد قرم ذروته تراجع فترة من الوقت وتسمى هذه الفترة تراجع لوفن Laufen retreat ولكنها كانت فترة قصيرة أعقبها تقدم الجليد مرة أخرى بحيث وصل إلى مستواه السابق تقريبا ويسمى هذا التقدم الذروة الثانية لجليد

قمر . وأخيرا أخذ الجليد في التراجع نهائيا وكان ذلك في فترة تتراوح بين سنة ١٧٠٠٠ ، سنة ١٣٠٠٠ ق . م حسب التقديرات المختلفة .

وكانت فترة التراجع الأولى شديدة البطء كما أنها لم تسكن منتظمة بمعنى أن الجليد كان يتراجع مسافة كبيرة ويعقب ذلك تحسن في المناخ ثم لا يلبث أن يتقدم مرة أخرى لمسافة صغيرة ثم يعود فيستأنف حركة التراجع وهكذا . على أن حركة التراجع كانت الحركة العامة أو الرئيسية ولكن تخللتها حركات تقدم وقتية وتسمى هذه الفترة في مجموعها ذبذبة آخن Achen oscillation ويقدر لها خمسة آلاف سنة . ثم بعد ذلك تقدم الجليد كما تقدمت الأنهار الثلجية مرة أخرى ولكن لم تصل إلى مستواها في فترة القرم وتعرف هذه الفترة باسم تقدم بهل Bihl advance وكما أن تراجع آخن لم يكن منتظما فأن تقدم بهل لم يكن منتظما كذلك ، بل أمكن تمييز ثلاث مراحل لهذا التقدم تخللتها فترات تراجع وقتية ويطلق على هذه المراحل أسماء بهل ١ ، ٢ ، ٣

وبعد انتهاء تقدم بهل بمراحله الثلاث استأنفت الظروف المناخية خطواتها نحو التحسن المستمر المنتظم ولكن مع وقفين تعرف أولاهما بمرحلة شنتز Yschnitz وتعرف الثانية بمرحلة داون Daun ففي هاتين المرحلتين وقف تراجع الجليد بعض الوقت ثم استأنف تراجعهم . وهذه الأسماء الأربعة آخن وبهل وشنتز وداون عبارة عن أسماء وديان في جبال الألب جمعت منها الأدلة على هذه المراحل ويسهل تذكرها لأنها تبدأ بالحروف الأربعة الأولى من الأبجدية اليونانية

وكذلك درست مراحل تراجع الجليد في شبه جزيرة اسكندنافيا ووجد أنها تتفق مع مراحل تراجعهم في جبال الألب على النحو المبين في الجدول .

التاريخ	جبال الألب	اسكندناوة
٢٠٠٠ م		العصر التاريخي
٢٠٠٠ ق. م	داون	ما بعد الجليد
٤٠٠٠ «	شنتز	«
٦٠٠٠ «		
٨٠٠٠ «	بيل ٣	وقفة راجندا
١٠٠٠٠ «	بيل ٢	جليد فندلندة وسكندناوة
١٢٠٠٠ «	بيل ١	فترة تقهقر جليد السويد
١٤٠٠٠ «	ذنبه آخن	فترة جليد السويد
١٦٠٠٠ «	قزم ٢	
١٨٠٠٠ «	تراجع لاوفن	التراجع الدنمركي
٢٠٠٠٠ «		
٢٢٠٠٠ «		
٢٤٠٠٠ «	قزم ١	الجليد الدنمركي

جدول يبين مراحل تراجع الجليد في جبال الألب وشبه جزيرة اسكندناوة^(١)
الترتيب التاريخي من أسفل إلى أعلا.

التغيرات في خط الساحل :

توجد شطوط بحرية مرتفعة في جهات كثيرة على الساحل الأوروبي من اسكتلندا

شمالاً حتى ساحل شمال أفريقية جنوباً، وتدل هذه الشطوط على أن البحر كان يوماً ما أكثر ارتفاعاً منه في الوقت الحاضر. وقد تبين من الأدلة المختلفة أن هذه الشطوط ترجع لعصر الپليستوسين. وقد وجد في العراق مدرجات نهريّة وخطوط مختلفة للساحل يمكن ربطها بالشطوط المرتفعة الأوروبيّة.

وقد قال الجيولوجيان الفرنسيان ديبريه ولاموث Depêret & Lamothe أن هذه الشطوط المرتفعة - التي أمكن تتبعها من البحر الأبيض المتوسط حتى اسكتلندا - عددها أربعة وأنها ترتبط بأربعة مدرجات نهريّة موجودة في أنهار كثيرة. ومعنى هذا أن البحر ارتفع فوق مستواه الحالي أربع مرات خلال عصر الپليستوسين. وكذلك تبين من البحث أنه توجد شطوط غاطسة إلى عمق مائة قامة (٦٠٠ قدم) تحت مستوى البحر الحالي وقد كانت هذه الشطوط الغاطسة عبارة عن خط الساحل القديم، ومعنى هذا أن مستوى البحر تذبذب بين ارتفاع وانخفاض. ويرى Osborn أن الأرض كانت تنخفض في الفترة الجليديّة وترتفع في الفترة الدفيئة ولكن الرأي المفضل عند كثير من العلماء هو عكس ذلك أي أن الأرض كانت مرتفعة خلال الفترة الجليديّة ومنخفضة خلال الفترة الدفيئة.

وبناء على الأبحاث الجيولوجية وعلى دراسة المخلفات البشريّة في كل من شمال أفريقية وجنوب أوروبا لا بد من أن نفرض أنه كان هناك معبر برى يصل تونس بمالطة وصقلية من ناحية ثم بجنوب شبه جزيرة إيطاليا من ناحية أخرى إذ وجدت أسنان بشريّة في جزيرة مالطة يرجح أنها من نوع انسان نياندرتال. وبالطبع لا نستطيع أن نعترض أن هذا الإنسان البدائي عرف ركوب البحر بأي شكل من أشكاله، ولا بد من التسليم بوجود معبر برى يصل أوروبا بأفريقيا من هذه الناحية. ومثل هذا يقال على مضيق جبل طارق - رغم أنه أكثر عمقاً - فإن الأدلة البشريّة تدل على انتقال الإنسان وحضاراته عبر هذا المضيق في وقت مبكر لم يكن الإنسان قد عرف فيه ركوب البحر فلا بد من التسليم أنه كان هو الآخر معبراً برياً يصل بين شمال أفريقيا وبين شبه جزيرة أيبيريا.

ومثل هذا يقال عن الصلة بين شمال فرنسا والجزر البريطانية فقد كان الاتصال بينهما برياً في فترة ظهور الإنسان البدائي بدليل أنه كان ينتقل بحرية حاملاً معه حضارته بين هذين الجزئين في الوقت الذي لا يعقل أنه كان يعرف فيه أى نوع من أنواع القوارب .

ولا بد أن البحر الأبيض المتوسط كان في فترة جليد القرم عبارة عن بحرين مقفلين لهما سواحل على مستوى ٦٠٠ قدم تحت مستوى البحر الحالى . وكان يوجد في البحر الغربى منهما بروز كبير يمتد من إيطاليا بالقرب من ليجهورن ويشمل قورسيقا وسردينيا ، وكانت هناك عدة جزر كبيرة تشمل ما جورقا ومينورقا ، وأما البحر الشرقى فكانت حدوده تختلف كثيراً عن حدود الحوض الشرقى من البحر الأبيض الحالى ، فكان معظم الأدرياتيک يابساً كما كان ايجة أصغر وكانت معظم جزره متصلة بالشاطئ . من كلا جانبيها أى كانت عبارة عن بروز طويل من الشاطئ . ومن الجائز أنه حدثت حركات محلية خاصة في هذا الجزء ومن الجائز أيضاً أنه كانت هناك بحار صغرى أو بحيرات متفرعة من هذا البحر الشرقى وكان النيل ينحدر بعنف شديد ويصب في أحد خلجان هذا البحر .

ويمكن أن نفترض أنه في أثناء ذبذبة آخن ارتفع مستوى البحر بعض الشيء فطغى على اليابس وربما غطى برزخ جبل طارق فحوله إلى مضيق ولكن لم يلبث اليابس أن ارتفع من جديد في فترة تقدم بهل ورغم أن هذا الارتفاع لم يصل إلى مستواه القديم إلا أنه كان كافياً ليتمكن الإنسان من العبور من أفريقيا إلى أسبانيا ولو خوفاً ، ثم غطس اليابس بعد ذلك فترة من الوقت تحت مستوى خط الساحل الحالى .

وأما في إقليم البلطيق فلا نستطيع أن نعرف حالته في فترة قرم لأنه كان مغطى بالجليد في هذه الفترة ولكن المعتقد أن المحيط المتجمد الشمالى لم يكن يمتد - كما هو الآن - حتى البحر الأبيض الروسى فحسب بل كان يستمر في امتداده نحو الجنوب الغربى فيشمل جزءاً من روسيا ثم جزءاً من بروسيا الشرقية حتى مدينة كونيغزبرج

ولما تقهقرت حافة الغطاء الجليدى نحو الشمال خلال البلطيق في فترة التراجع المعروفة باسم Gothiglacial - المعاصرة لذبذبة آخن - هبطت الأرض في شرق اسكندناوة وبقيت الدنمرك والنرويج في وضعهما الحالى تقريبا . ولقد أدى هذا الهبوط إلى امتداد المحيط المنجمد الشمالى من البحر الأبيض الروسى حتى الكاتجات وبذلك كان يغطى جنوب فنلندة وولايات البلطيق وجزءاً كبيراً من جنوب السويد . وكلما استمر الجليد في تراجعه كلما زاد إغراق المحيط للأجزاء الشمالية ويسمى هذا الامتداد البحرى بحر يولديا Yoldia Sea ويظهر أن هذا البحر وصل أقصى مساحته في أواخر فترة ال Gothiglacial retreat ثم تضائل خلال الفترة الجليدية الفندلندية الاسكندناوية Fennoscandian المعاصرة لتقدم بهل فار تفع قاع بحر البلطيق وبذلك تكون حاجز من اليباس يفصل بين المحيط المتجمد الشمالى الاصلى وبين امتداده في شمال أوروبا ، فأصبح الجزء الأكبر من بحر يولديا عبارة عن بحيرة داخلية راجوندا تسمى بحيرة انكيلوس Ancylos Lake واستمر الأمر كذلك حتى وقفة المعاصرة لبهل ٣

وبعد ذلك هبط جنوب اسكندناوة فاتصلت بحيرة انكيلوس بالمحيط الشمالى من جديد وكانت المياه دافئة لأن الفترة التى تلت مرحلة شتت كانت دفيئة فازدهرت فيها الليتوريا أو الليتوريا ولذلك سمى بحر البلطيق باسمها ويطلق على هذه الفترة اسم بحر ليتورينا Littorina Sea . والمعتقد أن هذا الامتداد الضئيل لبحر البلطيق استمر عدة آلاف من السنين ثم اخذت الأرض حوله في الارتفاع حتى أصبحت في مستواها الحالى حوالى سنة ٢٠٠ ق . م

علاقة الأدوار الجليدية بمدرجات نهر النيل

بينما كان پنك وبروكنر منغمسين في بحثهما عن الأدوار الجليدية بجبال الألب نشر بلانكنهورن بحثاً حاول فيه أن يثبت وجود أربعة أدوار مطيرة في وادى النيل ترتبط بالأدوار الجليدية الأربعة في جبال الألب التى قال بها پنك وبروكنر وسنعرف تفصيلها عند الكلام على سطح مصر ومناخها .

علاقة الأدوار الجليدية بالشطوط البحرية :

لاحظ الجنرال Lamothe أربعة مدرجات أو شطوط مرتفعة على ساحل الجزائر على ارتفاع ١٥ و ٣٠ و ٥٥ و ٩٣ متراً فوق المستوى الحالى للبحر، وقد ربط بين هذه الشطوط وبين المدرجات النهرية التى لا حظها Common في وادى السوم بفرنسا . وفى نفس الوقت لاحظ Depéret وجود شطوط مرتفعة فى صقلية وتونس وفى جهات أخرى من البحر الأبيض المتوسط . وبناء على هذا رأى أنه ينبغى تقسيم عصر البليستوسين إلى أربع مراحل هى ما يأتى مسماة نسبة إلى أهم الشطوط البحرية :

١ - المرحلة الصقلية Sicilian

٢ - المرحلة الميلازية Millazian

٣ - المرحلة التيرانية Tyrrhenian

٤ - المرحلة الموناستيرية Monasterian

وقد ربط أيضاً بين هذه المراحل وبين الأدوار الجليدية الأربعة التى قال بها ينك وبروكنز .

الاحوال المناخية فى الفترات الجليدية :

وبالطبع كان توزيع المناطق المناخية اثناء الفترة الجليدية يختلف عنه اثناء الفترة الغير جليدية . ولما لم تكن النهايات العظمى للجليد على درجة واحدة فى فتراته المختلفة أو فى الجهات المختلفة التى وقعت تحت وطأته ، فهذا اختلفت الظروف المناخية فى الجهات التى تأثرت بالجليد وفى الجهات الواقعة خارج تلك الجهات . وكانت المناطق المناخية تتزحزح نحو الجنوب فى الفترات الجليدية وتعود نحو الشمال فى الفترات الدفئة . وفيما يلى بيان مختصر عن تلك المناطق :

أوروبا : كان المناخ فى أوروبا عند الحافات الجنوبية للغطاء الجليدى من نوع التندرا أى ذو شتاء طويل قارس البرد متجمد المياه ، ثم صيف قصير يدفأ فيه الجو قليلا

وتذوب فيه المياه . ولا تزال بعض النباتات التي كانت تنمو في ذلك النوع المناخي موجودة حتى الآن في الجهات المرتفعة في إسكتلندا واسكتلندا ووجبال الألب . ولم تكن منطقة التندرا تمتد بحيث تشغل السهل الأوروبي كله بل كان هناك نوع من مناخ الاستبس يسود الجهات الشرقية من تلك السهول ويكون منطقة قارية شديدة التطرف تسود فيها الرياح الشرقية التي كانت تهب عند الحافة الجنوبية لضد الأعصار . وقد وجد أن حفريات الحيوانات والنباتات التي كانت تعيش في إقليم الاستبس هذا تمتد غرباً حتى فرنسا مما يدل على أن التأثير البحري لم يكن يمتد كثيراً نحو داخل القارة الأوروبية .

شمال إفريقيا : في الوقت الذي كان يغطي فيه الجليد العروض العليا الأوروبية كانت تسود في شمال إفريقيا فترات مطيرة وذلك أن البحر الأبيض كان ينحول في الفترات الجليدية إلى منطقة تجتاحها الأعاصير بكثرة فتسقط أمطارها الغزيرة على شواطئه صيفاً وشتاء . وكانت هذه الأمطار الوفيرة تمتد جنوباً حتى تشمل الصحراء الكبرى أيضاً فتسيل أوديتها بالمياه . وأما في الوقت الذي تسود فيه الفترة الدفئة العروض العليا الأوروبية كانت المناطق المناخية تتزحزح نحو الشمال ويصبح شمال إفريقيا شبيهاً بحالته الحالية فإذا ربطنا بين أوروبا وشمال إفريقيا يمكن القول أنه في الدور الجليدي تتزحزح المناطق المناخية نحو الجنوب فيصبح إقليم التندرا في وسط أوروبا ، ويصبح إقليم غرب أوروبا المناخي فوق حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويصبح إقليم البحر الأبيض المناخي فوق الصحراء الكبرى وأما في أثناء الدور الدفي فتعود الأقاليم إلى مواضعها الأصلية فيصبح إقليم التندرا في شمال أوروبا وأقاليم غرب أوروبا في غرب أوروبا وإقليم البحر الأبيض في حوض البحر الأبيض . وأما إقليم الصحراء فيكون صحراء حقيقية .

ميلاد نهر النيل :

في الوقت الحالي نجد الرياح السطحية السائدة في مصر معظم أيام السنة هي

الرياح الشمالية ، وفي نفس الوقت توجد الرياح الغربية في الطبقات العليا من الجو وأما في الأدوار المطيرة فقد كانت هذه الرياح الغربية هي السطحية معظم أيام السنة ولذلك كانت تجلب أمطاراً غزيرة يسقط معظمها في المناطق الجبلية الممتدة بحذاء البحر الأحمر شرق نهر النيل ، فكانت تسيل بذلك أودية عديدة تجري نحو نهر النيل حاملة معها كميات كبيرة من الرمال والحصى . ولقد كان تكون الأخدود الأفريقي سبباً في حصر مياه الأمطار الإستوائية وعدم إنسيابها شرقاً نحو المحيط الهندي في الشرق ، فانصرف جزء منها نحو المحيط الأطلسي في الغرب وانصرف الجزء الباقي نحو البحر الأبيض في الشمال تبعاً للانحدار العام للهضبة الأفريقية . ولكن لم يكن في استطاعة النيل الأبيض أن يصل إلى البحر الأبيض بل كان يتلاشى في الصحراء ومن المحتمل أن مياهه لم تستطع اجتياز الصحراء والوصول إلى البحر الأبيض المتوسط إلا في الفترة التالية للعصور الجليدية (أى منذ ١٤ ألف سنة تقريباً) حينما بدأت الرياح الموسمية تهب على الحبشة والجهات المجاورة لها . ومعنى هذا أن نهر النيل لم يتمكن من اجتياز المنطقة الصحراوية إلا بفضل مياه الفيضان التي يمددها النيل الأزرق من الأمطار الموسمية التي تسقط على الحبشة . والمعروف أن هبوب الرياح الموسمية يتوقف على دفء القارة الآسيوية واشتداد الحرارة في قلبها وهذه ظاهرة لم يكن لها وجود أثناء العصور الجليدية . وتبعاً لذلك كانت الحبشة جافة وكانت تهب عليها الرياح التجارية الجافة .

السودان : استمرت زحزحة المناطق المناخية نحو الجنوب فحلت الصحراء محل إقليم السقانا الحالى أى أن السودان كان أقليماً صحراوياً في الأدوار الجليدية وأقليم سقانا في الفترات الدفيئة ، وكانت بحيرة شاد تتذبذب تبعاً لهذه الحالة فتتكشف في الأدوار الجليدية وتتسع في الفترات الدفيئة . ولما كانت هذه البحيرة تزداد اتساعاً في الوقت الحالى وتزداد عدوبتها فمعنى هذا أنها تسير نحو فترة أكثر مطراً .

الأقاليم الاستوائية : لقد كان تركيز نطاقات الضغط سبباً في ازدياد قوة الدورة الهوائية واشتداد هبوب الرياح التجارية مما أدى إلى شدة انخفاض الضغط بالأقاليم

الاستوائية وكثرة الأعاصير بها وغزارة الأمطار فيها . وقد نتج عن هذا اتساع البحيرات الاستوائية إلى حوالى الضعف ، ومثال ذلك أن بحيرة فيكتوريا كانت تمتد شمالا حتى تتصل ببحيرة كيوجا التي كان مستواها أعلا بنحو ٦٠٠ قدم عن مستواها الحالى . أما الأنهار الجليدية التي كانت تنحدر فوق كلنجار ورونزورى فقد هبطت حوالى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف قدم أى إلى مستوى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . ولكن خط الثلج الدائم لم يهبط إلا بمقدار ثلاثة آلاف قدم فقط ، مما يدل على أن السبب فى ذلك لم يكن انخفاض درجة الحرارة وإنما كان غزارة الأمطار .

العصر الجليدى فى آسيا :

سجلت أقل درجات حرارة فى العالم فى سيبيريا فى فصل الشتاء حيث توجد أماكن تتجمد فيها الأرض باستمرار حتى عمق مئات من الأقدام ، كما أن أطول أنهار جليدية معروفة فى العالم توجد فى وديان الهيمالايا ، ومع ذلك لم يوجد دليل على وجود غطاء ثلجى عظيم فى هذه القارة التي هى أكبر قارات العالم ، ولم توجد إلا مساحات جليدية صغيرة نسبيا شرق الأورال ، وفى جزء من شمال شرق سيبيريا وربما يرجع وجود هذه المساحات الجليدية إلى عظم اتساع القارة الذى يبعد سهولها الداخلية عن التأثيرات البحرية الدفيئة ، كما أن الرياح التي تصل هذه السهول الداخلية تكون قد مرت فى طريقها على كتل جبلية هائلة تفقدها ما تحمله من رطوبة ، ومثال ذلك الهيمالايا وغيرها من الجبال العالية التي تصطدم بها الرياح قبل أن تصل إلى سيبيريا . ومع ذلك كانت توجد ثلاثيات پلیستوسينية فوق جبال خالية من الجليد فى الوقت الحاضر كما أن الثلاثيات الحالية كانت تمتد إلى مادون حدودها الحالية . وفى جبال لبنان والقوقاز والهيمالايا ومنشوريا توجد آثار جليدية وركامات تمتد آلاف الأقدام تحت مستوى الثلج الحالى بل تصل عند عرض ٢٦° فى البنغال إلى ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . ومن الجلى أن خط الثلج انخفض فى الجبال الآسيوية لكي يتمشى مع خط الثلج فى جبال الألب غرباً وفى جبال روکی شرقاً .

وظاهرة عدم وجود غطاءات ثلجية عظيمة في سيبيريا يمكن أن تقارن بالمساحات التي لم يغطيها الجليد في آلاسكا ويوكون بأمریکا الشمالية حيث قطعت الجبال العالية المدد الثلجي عن السهول الداخلية رغم قسوة مناخها في الشتاء .

وخلاصة هذا أن الجليد لم يغط السهول الوسطى الشمالية من آسيا لأنها محمية بالجبال من الرياح الحاملة الرطوبة ، وهي حماية لم تتوفر للسهول المماثلة لها في أوروبا وأمريكا لأنها سهول مفتوحة من جهة المحيط الأطلنطي .

وقد وجد في وادي السند الأعلى أربعة أدوار جليدية تتخللها ثلاث فترات دفيئة ، ويمكن ربط هذه الأدوار الجليدية والفترات الدفيئة التي تتخللها بالحالة المماثلة في جبال الألب .

وبهذا نكون قد استعرضنا الظروف المناخية في الجهات المحيطة بالقطر المصري في أوروبا وآسيا وأفريقيا في فترة ظهور الإنسان البدائي .

الفصل الثاني

حضارات العصر الحجري القديم في أوروبا

مقدمة: بدأ الإنسان حضارته باستخدام آلات من الحجارة ولذلك يعبر عن هذه المرحلة من حياته بالعصر الحجري . ويختلف الباحثون في ربط العصر الحجري بالأزمنة والعصور الجيولوجية فيرى البعض أن الإنسان وجد وصنع آلات من الحجارة في أواخر الزمن الجيولوجي الثالث (عصر البليوسين) وتوضع هذه الآلات في مرتبة حضارية خاصة يطلق عليها تعبير « فجر العصر الحجري eoliths » ولكن الرأي الغالب أن هذه الأحجار الأيوليثة ليست من عمل الإنسان وإنما هي قطع من الصوان تكسرت بفعل العوامل الطبيعية .

وإذا ما انتقلنا إلى الزمن الرابع (عصر البليستوسين) نجد أن الآلات التي ترجع إلى هذه الفترة لا يختلف الباحثون في نسبتها إلى الإنسان إذ يظهر في صنعها أثر تفكيره وأرادته وتعمده تشكيلها بشكل خاص لخدمة غرض معين .

ويقسم العصر الحجري إلى قسمين رئيسيين تبعاً لعاملين هما (١) نوع الآلة ودرجة إتقان صنعها (٢) الطبقة الأرضية التي وجدت فيها .

وهذان القسمان هما (١) العصر الحجري القديم Palaeolithic (٢) العصر الحجري الحديث Neolithic ولكل من هذين القسمين خصائص حضارية مختلفة تبعت اختلاف الزمن والبيئة والإنسان .

ويشمل العصر الحجري القديم ست حضارات أطلقت عليها أسماء خاصة تبعاً لأسماء الأمكنة التي وجدت فيها أهم نماذجها . وفيما يلي قائمة بهذه المراتب الحضارية مرتبة من الأقدم إلى الأحدث :

١ — الحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة شل على نهر المارن Chelles sur - Marne

٢ — « الأشولية » « سنت أشيل بالقرب من أميان في وادي السوم

٣ — « الموستيرية » إلى كهف موستيه Moustier في حوض الدردنى

٤ — « الأورينية » « Aurignac في الجارون الأعلى .

٥ — « السولتيرية » إلى بلدة Solutré بالقرب من ماكون في

حوض الساون .

٦ — « المجدلينية نسبة إلى كهف لا مادلين La madeleine بالقرب من

Les Eyzies في حوض الدردنى .

وتوضع هذه الحضارات الست في ثلاث مجموعات هي :

(١) الحجري القديم الأسفل ويشمل الحضارتين الشيلية والأشولية وتمتاز آثار

هذه الفترة بأنها كشفت في المواد الرسوبية في العراء

(٢) الحجري القديم المتوسط ويشمل الحضارة الموستيرية وتمتاز آثارها بأن

بعضها وجد في المواد الرسوبية في العراء والبعض الآخر وجد في الكهوف

(٣) الحجري القديم الأعلى ويشمل باقي الحضارات وتمتاز آثارها بأنها كلها

كشفت في الكهوف فيما عدا الحضارة السولتيرية .

ربط هذه الحضارات بالفترات الجليدية والفترات الدفيئة :

إذا أردنا ربط هذه الحضارات بالفترات الجليدية الأربعة (جنز ومندل ورس

وهرم) والفترات الدفيئة التي تخللتها نجد أمامنا عدة آراء مختلفة نلخصها فيما يلي :

أولا : لوحظ في وادي السوم في شمال فرنسا — حيث توجد أحسن نماذج

الحضارة الشيلية — أن الآلات الشيلية توجد مع بقايا حيوانات من التي تألف

الدفء كالفيل والنمر والخرتيت وفرس الماء . ثم وجد فوق هذه الطبقة طبقة أخرى

تضم آلات أشولية ومعها بقايا حيوانات من التي تألف الدفء — متخلفة عن العصر

الشيلي — مختلطة بحيوانات جديدة من التي تألف البرودة مثل الماموث . ثم وجد

فوق هذه الطبقة طبقة ثالثة تضم آلات موسستيرية ومعها بقايا حيوانات تدل على أن الجو أصبح بارداً تماماً مثل حيوان الرنة .

آلات موسستيرية مختلطة بحيوانات باردة

آلات أشولية مختلطة بحيوانات دفيئة وباردة

آلات شيلية مختلطة بحيوانات دفيئة

شكل (٦) يوضح ترتيب الطبقات في وادى السوم بشمال فرنسا
ثانياً : لوحظ في وادى الأين في شرق فرنسا أن الآلات الشيلية والأشولية توجد فوق ركامات الفترة الجليدية الثالثة (فترة رس) أى أن هاتين الحضارتين جاءتا بعد انتهاء فترة رس الجليدية وسخلتا الفترة الدفيئة التالية لها كما لوحظ أن الحضارة الشيلية شغلت أدفاً أجزاء هذه الفترة غير الجليدية وأن الأشولية وجدت حينما أخذ جليد القرم في الاقتراب وأن الحضارة الموسستيرية وجدت حينما حل جليد القرم فعلاً . وبمقارنه ترتيب الطبقات في وادى الأين بترتيبها في وادى السوم نجد أنهما متفقان .

..... جليد قرم

..... حضارة موسستيرية

حضارة أشولية

حضارة شيلية

..... جليز رس

شكل (٧) يوضح ترتيب الطبقات في وادى الأين بشرق فرنسا

ثالثاً : ظهر في ألمانيا رأى مخالف لما سبق وذلك أنه وجد في توباخ Taubach بالقرب من فيمار ثلاث طبقات من الرواسب ، تتكون الطبقة السفلى من حصباء

جليدية ، والوسطى من رواسب بركانية مختلطة بعظام حيوانات من التي تألف الدفء وآلات موسستيرية ، والعليا من رواسب بركانية أحدث من السابقة ومختلطة ببقايا حيوانية من التي تألف البرد الشديد . ويرى العلماء الألمان أن الطبقة السفلى هي فترة رس الجليدية وأن الطبقة الوسطى هي الفترة الدفيئة التالية لجليد رس وأن الطبقة العليا هي فترة ثرم الجليدية . وبناء على هذا تكون الحضارة الموسستيرية قد وجدت في رأيهم في الفترة الدفيئة التالية لجليد رس وتكون الحضارة الشيلية قد وجدت في الفترة الدفيئة التالية لجليد مندل .

رواسب جليدية (ثرم)

حضارة موسستيرية

رواسب جليدية (رس)

حضارة شيلية

رواسب جليدية (مندل)

شكل (٨) يوضح ترتيب الطبقات في توباخ بألمانيا

ويتوسط الأستاذ سولاس Sollas بين الرأي الفرنسي والرأي الألماني فيجعل ارتباط الحضارات بالعصور الجليدية — بناء على دراسة مدرجات السوم دراسة أو في من — على النحو الآتي :

جليد قرم

حضارة موسيدية

حضارة أشولية

حضارة شيلية ارقى

جليد رس

حضارة شيلية

جليد مندل

حضارة ما قبل الشيلية

جليد جنز

لا توجد آلات

(شكل ٩) يوضح ترتيب الطبقات في وادى السوم بشمال فرنسا

ويظهر أن الاختلاف بين رأى الكتاب الألمان وبين رأى الكتاب الفرنسيين نشأ من أن الحضارة الموسستيرية وفدت من الشرق ولذلك وجدت في ألمانيا في وقت سابق لوجودها في فرنسا، ويمكن القول أن الحضارة الموسستيرية وجدت في ألمانيا في وقت وجود الحضارة الأشولية في فرنسا أى حينما كان المناخ دفيئاً في الفترة الدفيئة الفاصلة بين جليد رس وجليد قرم، ثم لما انتقلت الحضارة الموسستيرية غرباً إلى فرنسا كان جليد قرم قد اقترب ولذلك عاصرت هذه الفترة الباردة في أوائلها.

مظاهر حضارة الإنسان

في العصر الحجري القديم

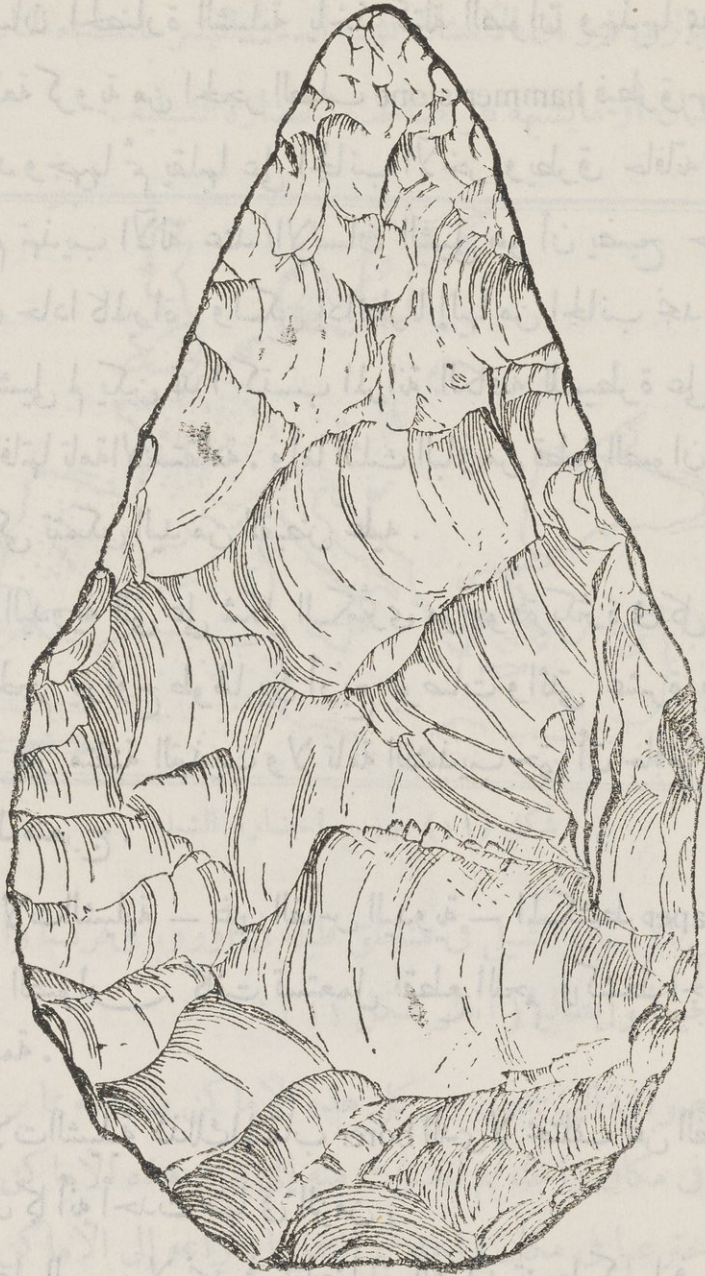
أولاً : العصر الحجري القديم الأسفل

الحضارة الشيلية : قلنا أنه وجدت قطع حجرية سابقة في الزمن الآلات الشيلية . وهي قطع من الصوان مسطحة الشكل بحافات حزات دائرية وليس لها شكل معين مما يرجح أنها من عمل الطبيعة وليس من عمل الإنسان . على أن هذا لا يمنع من أن يكون الإنسان قد وجد في هذه الفترة واستخدم هذه القطع الطبيعية في أغراض الصيد والقتال وغير ذلك من أساليب حياته . ويطلق على هذه المرحلة اسم فجر العصر الحجري *coliths*

ننتقل بعد ذلك إلى الموحلة الشيلية وهي المرحلة التي وجدت فيها آلات حجرية لا يشك في نسبتها للإنسان . على أن هذه الآلات التي من صنع الإنسان مرت بدورها في مراحل من التطور فكانت في المبدأ كبيرة الحجم غير متقنة الصنع ويطلق على هذه المرحلة الحضارية اسم ما قبل الشيلية ثم دق حجم الآلة نوعاً وازداد إتقان صنعها وإن كان شكلها العام لم يتغير وهذه هي المرحلة الشيلية الصميمة .

ومعظم الآلات الشيلية من النوع المعروف بالفأس اليدوية *coups de poing , axe* والشكل السائد من الفأس ما يشبه السكثري أي أنها مدببة في أحد طرفيها ومستديرة في الطرف الآخر، وأما جوانبها فخادة وغير منتظمة ويترك جزء من القشرة الطبيعية للصوان في أسفلها (شكل ١٠) وتتوقف درجة إتقان الآلة على مقدار وجود هذه القشرة الطبيعية ، فالآلات التي يوجد عليها جزء كبير من هذه القشرة تعتبر غير

متمتعة الصنع ، وكلما زاد إتقان صنع الآلة قلت القشرة الأصلية عليها وأصبحت
حقاتها أكثر إنتظاماً كما أن تشذيبها يكون أدق .
وكانت الآلات الشيلية تصنع من النواة أى أن كتلة الصخر نفسها تشكل



(شكل ١٠) فاس شيلية

وتشذب حتى تصبح الآلة المطلوبة ولذلك تطلق على هذه الصناعة صناعة النواة
أو آلات النواة core - implements

وأقدم الآلات التي لا يشك في نسبتها للإنسان هي الآلات الشيلية . وما يميز الآلات الحقيقية عن الصوان المتكسر بفعل الطبيعة هو أن الآلات التي من صنع الإنسان يوجد بينها تشابه ويوجد فيها تناسب يستحيل أن يكون من عمل الطبيعة . وكان إنسان الحضارة الشيلية يأخذ كتلة الصوان ويهذبها بمطرقته التي كانت عبارة عن قطعة كروية من الحجر الصلب hammer-stone فيطرق بها حافات الصوان بعناية من أحد وجهيها ثم يقلبها على الجانب الآخر ويطرق حافته كذلك حتى يتم تهذيبها ، وتمام تهذيب الآلة عند الإنسان الشيلي هو أن يصبح حوالى ثلثي محيط قطعة الصوان حادا كالمبراة . ولسكن إذا نظرنا إليها من الجانب نجد حافات متعوجة لأن الصانع الشيلي لم يكن قد اكتسب المراتة الكافية للسيطرة على قطعة الصوان حتى يخرج حافات تامة الاستقامة . وأما الثلث الباقي من قطعة الصوان فيترك مستديرا في الغالب لكي تتمكن اليد من القبض عليه .

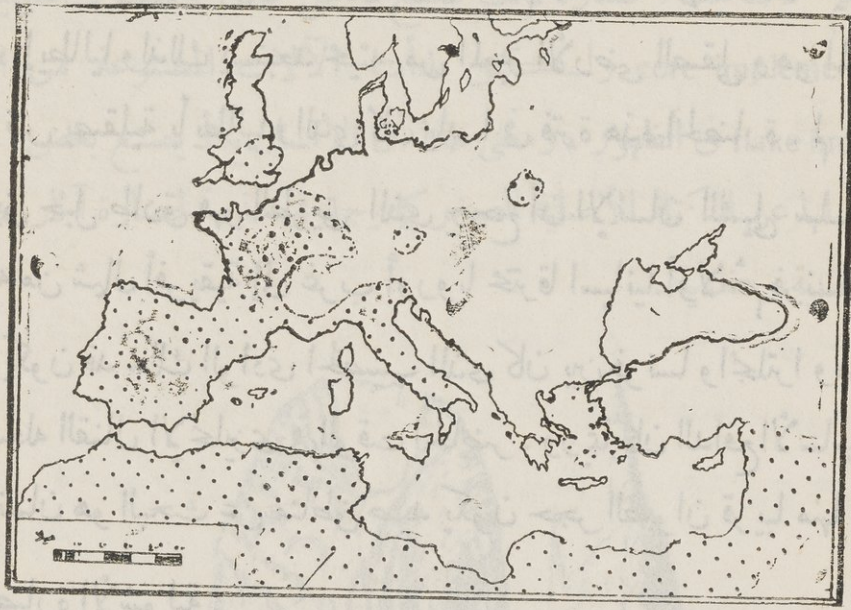
والفأس اليدوية التي على شكل الكمثرى موجودة بكثرة في كل المحطات الشيلية وهي كبيرة الحجم يتراوح طولها بين أربع بوصات واثنتى عشرة بوصة وهي على العموم سمكية غير متقنة التهذيب ولا تامة التهذيب حتى أن حافتها القاطعة تكون على شكل خط متعرج .

ومن الآلات الشيلية — غير الفأس اليدوية — المكشط scraper وهو قطعة مستديرة من الصوان كانت تستعمل لقطع اللحم وكشط الجلد تمتاز بحافتها الحادة المستقيمة .

ومن الآلات الشيلية كذلك المثقاب borer الذي لا يختلف عن الفأس إلا في أنه أضيق وأطول كما أنه أحدث منها في الزمن .

ولسكن على العموم لا نجد في الحضارة الشيلية تنوعا كبيرا في شكل الآلات ولا تخصصا في أغراض استعمالها بل كانت الآلة الواحدة تستخدم في عدة أغراض ولا شك أنه كان من الأمور الشاقة على إنسان هذا العصر الصياد المتجول أن يحمل عددا كبيرا من هذه الآلات الثقيلة التي كانت كل آلة منها تستخدم في رمية واحدة .

إنسان الحضارة الشيلية : أقدم بقايا بشرية معروفة لنا هي ما يسمى إنسان بلتدون نسبة إلى بلدة بلتدون Piltoun في مقاطعة Sussex بجنوب شرق إنجلترا إذ وجد في هذه البلدة غطاء جمجمة وفك بشريان فأما الغطاء فسميك وأما الفك فهو يشبه فك الشمبانزى غير أن الأسنان تشبه أسنان البشر باستثناء الناب فهو كبير . وربما هذا الإنسان أو ما يشبهه هو صاحب الحضارة الشيلية .



شكل (١١) توزيع الحضارة الشيلية

ولقد عاش الإنسان الشيلي في مناطق قليلة في أوروبا في فرنسا وإنجلترا وإسبانيا والبرتغال وبلجيكا وإيطاليا (انظر شكل ١١) .

وآلاته الصوانية التي جمعت من كل هذه الأماكن متشابهة مما يرجح أن طريقة صنعها نشأت في مكان واحد ثم انتشرت منه إلى سائر هذه الأماكن ، أى أنه وجد مخترع واحد اخترعها في مكان واحد ثم انتقل اختراعه إلى الأماكن الأخرى .

والإنسان الشيلي كان صياداً يعيش في العراء لأن المناخ في عصره كان دفيئاً لم يلجئه إلى سكنى الكهوف . ولعل ما يظهر من أن انتشاره كان ضيقاً يرجع إلى قلة عدد الناس في هذا العصر ، أو يرجع إلى أنه كان متجولاً لا يملك كثيراً في المكان

الواحد وبذلك لم يكن يترك آثاراً في كثير من الأماكن التي مر عليها بالفعل بل لعل ضيق انتشاره يرجع إلى العاملين معا.

وأصل الإنسان الشيلي غير معروف بالضبط ولكن طريق دخوله إلى أوروبا يمكن تحديده ، فالمعروف حتى الآن أنه لم تكتشف محطات شيلية في وسط أوروبا وشرقها وعلى هذا يمكن القول أنه لم يدخل أوروبا من هذا الطريق ولم يمر على وادي الدانوب في وصوله إلى غرب القارة . وكذلك لم تكتشف إلا محطة شيلية واحدة في شمال إيطاليا ولذلك يستبعد مجيئه من المعبر الأرضي الصقلي وهو المعبر الذي يصل تونس بصقلية بإيطاليا والذي كان يابسا في فترة هذه الحضارة . لم يبق أمامنا إلا طريق جبل طارق فهو الطريق الذي يرجح أن الإنسان الشيلي سلكه حاملا حضارته من شمال أفريقيا إلى غرب أوروبا مخترقا إسبانيا أولا ثم فرنسا إلى إنجلترا وبذلك يكون قد سلك الوادي الخصيب الذي كان بين فرنسا وإنجلترا وهو الوادي الذي يشغله القنال الإنجليزي في الوقت الحاضر . وربما كان الدافع الأساسي لا انتقال هذا الإنسان هو البحث عن مناطق صيد يكون حجر الصوان قريبا منها .

الحضارة الأشولية :

لا يوجد فاصل تام بين الطريقة الشيلية وبين الطريقة الأشولية في شطف الصوان مما يدل على أن الحضارة الأشولية عبارة عن تطور للحضارة الشيلية وعلى أن الإنسان الأشولي استنبط طريقته من الإنسان السابق له .

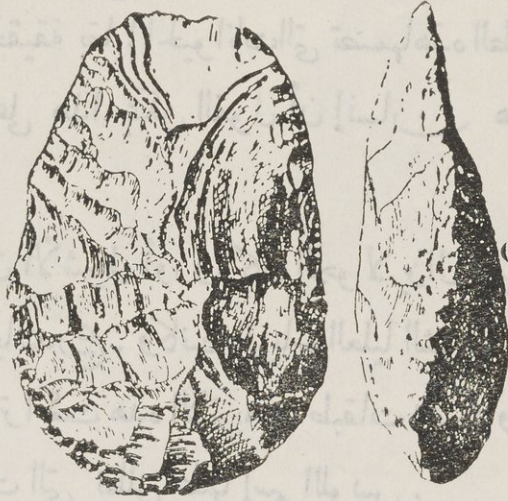
على أن الحضارة الأشولية تدل على تقدم كبير في صناعة الآلات الصوانية . وربما مرجع ذلك إلى هجرة صناع مهرة إلى أوروبا ولعل انتشار المحطات الأشولية يؤيد فكرة هجرة أناس جدد إلى هذه القارة كما يدل على زيادة عدد السكان وعلى سكنى مناطق جديدة لم تكن قد سكنت من قبل .

ومظهر التقدم في صناعة الصوان التي أظهرها الإنسان الأشولي هو أنه لم يكنف كما كان يفعل سابقه - بتهديب حافة الصوان لجعلها حادة بل كان يهذب سطح القطعة

الصوانية كلها حتى يجعل شكلها متناسقاً، ثم يهذب بعد ذلك الحافات لكي يجعلها حادة منتظمة فهي بذلك تختلف عن الحافات المتعرجة الموجودة في الآلات الشيلية. (أنظر شكل ١٢)

وهذه الحافات الحادة في الآلات الأشولية لم تجعل من الضروري أن يكون حجم قطعة الصوان أو وزنها كبيراً ومعنى هذا أن حجم الآلة الصوانية كان يقل كلما زاد إتقان صنعها وبذلك سهل حمل عدد كبير منها.

ومعظم آلات هذه الحضارة كانت تصنع - على مثال الحضارة الشيلية - من النواة core implements وليكن بدأت الآلات المصنوعة من الشظايا flake implements في الظهور، ومعنى هذا أن الإنسان بدأ يصنع بعض آلاته من شظايا يفصلها عن الكتلة الأصلية للصخر كما وجد في هذه الحضارة آثار ضئيلة من آلات خشبية وعظمية.



شكل (١٢) مثال من الآلات الأشولية

ولقد استمر وجود الفأس اليدوية في الحضارة الأشولية ولكنها أصبحت ذات شكل بيضاوى بمعنى أن طرفها المدبب أصبح على هيئة طرف الأزميل. كما أصبحت الفأس أصغر حجماً وقلت القشرة في أسفلها حتى اقتصرت على أفرز بسيط يحيط بقاعدة الآلة وبذلك أمكن القول أن الصناعة الأشولية عبارة عن تحسين في الصناعة الشيلية.

ولقد كانت الشظايا الأشولية كبيرة الحجم ، ومن أشهر أنواعها الصناعة الكلاكتونية بانجلترا (Clactonian industries) التي توجد في نفس طبقات الحصباء مع الفأس اليدوية . ومن أنواعها كذلك الصناعة المسفينية (Mesvenian) في بلجيكا والفلوازية (Levalloisian) في فرنسا فهذه كلها صناعات ترجع للحضارة الأشولية وتمتاز بوجود آلات من الشظايا على شكل مكاشط غير متقنة وعلى شكل آلات مدببة كالمثقاب .

إنسان الحضارة الأشولية :

وجد فك بشري في رمال ماور بالقرب من هيدلبرج بألمانيا . وقد وجد هذا الفك تحت طبقات اللويس القديمة التي تكونت من أرساب الريح لذرات الرمال أثناء فترة الاستيس الجافة التي سبقت جليد ثرم ومعنى هذا أن رمال ماور التي كشف فيها فك هيدلبرج يرجع تاريخها إلى الفترة غير الجليدية التي سبقت جليد الثرم ، وتؤيد هذه الحقيقة ببقايا الحيوانات التي تضمها هذه الطبقات فهي من الأنواع التي تألف الدفء وعلى هذا يمكن القول أن إنسان هيدلبرج هو صاحب الحضارة الأشولية .

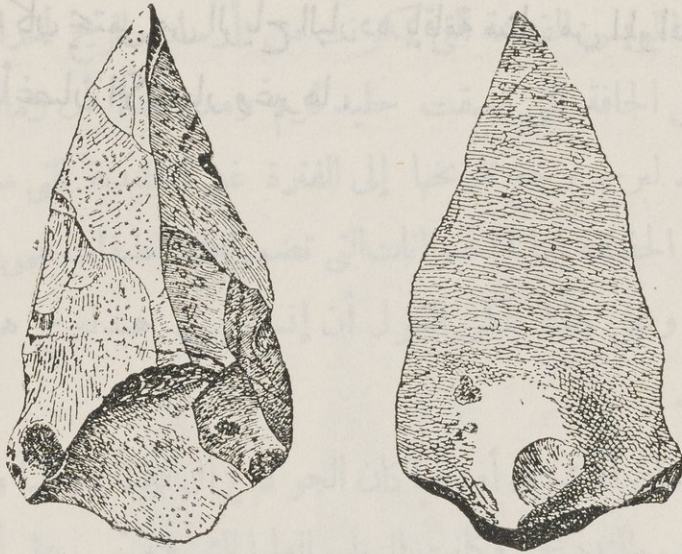
ولما دخل الإنسان الأشولي أوروبا كان الجو لا يزال دفيئاً ورطباً ولكنه أخذ في البرودة والجفاف بالتدريج . وكانت الرياح العليا الشرقية تهب على أوروبا حاملة سحباً من الأتربة وقد تراكت هذه الأتربة في طبقات سميككة وفي مساحات واسعة من القارة وهي الطبقات التي نطلق عليها اسم اللويس .

وقد وجدت الآلات الأشولية في الأجزاء السفلى من طبقات اللويس وهذا يدل على أن الإنسان الأشولي كان يعيش في العراء رغم هبوب الرياح الشرقية الشديدة . ولا بد أن المناخ كان يتنوع من مكان لاخر كما هو الحال الآن لأنه بينما كانت توجد الآثار الأشولية في بعض الأماكن مختلطة ببقايا حيوانات دفيئة كانت توجد في أماكن أخرى مختلطة ببقايا حيوانات من ذوات الفراء السميككة التي يظهر

أنها هاجرت من الشمال إلى حيث يقيم الإنسان الأشولى فارة أمام زحف جليد القرم .
ولقد كان الإنسان الأشولى صيادا يعرف أحداث النار ويحب سكنى شواطئ
الأنهار - حيث توجد الآن معظم مخلفاته - لأنه على هذه الشواطئ كان يجد
الماء والأسماك كما كان يصطاد الحيوانات التى تفد إلى هذه الشواطئ للارتواء .
وربما حفزه اقتراب جليد القرم إلى اختراع النار واستعمالها فى الرماد الأشولى يجد
أولى بقايا المواقد وهى مواقد قليلة على العموم إذا قيست بمواقد الفترة التالية وهى
فترة الحضارة المoustيرية . ولم تكن قسوة المناخ من الحدة بحيث تدبجه إلى سكنى
الكهوف بل كان الإنسان الأشولى يعسكر فى العراء وينتقل بحرية باحثاً عن رزقه
ومن الجائز أنه كان يحتوى من الرياح الباردة بإقامة ستار من المواد الطبيعية التى فى
متناول يديه كأغصان الأشجار وغيرها .

ثانياً : العصر الحجري القديم المتوسط

الحضارة المoustيرية : تختلف الحضارة المoustيرية عن الحضارتين السابقتين - اللتين تؤلفان العصر الحجري القديم الأسفل - في عدة وجوه بما يبرر وضعها في مرتبة حضارية مستقلة يطلق عليها العصر الحجري القديم المتوسط . فمن حيث الصناعة نجد معظم الآلات المoustيرية من الشظايا ونجدها تصنع بواسطة تشكيل الآلة على الكتلة الصوانية ثم فصلها بضربة واحدة ، ثم بعد ذلك تشظى حافاتها ، ولا نجد في هذه الصناعة إلا آلات قليلة من النواة (أنظر شكل ١٣) .



شكل (١٣) مثال من الآلات المoustيرية

وأشكال الشظايا المoustيرية عديدة فمنها المكشط الجانبية أى التى شظيت من أحد جانبيها فقط فأصبح حاداً بينما ترك الجانب الآخر بدون تشظية . ومنها الآلات المدببة الأطراف التى كانت تستعمل كرموس للحراب .

وقد أدى ظهور هذين النوعين - المكشط ورأس الحربة - إلى تضائل شأن الفأس إذ حلت الآلات الجديدة محل الفأس فى الصيد والقتال . وفيما عدا هذه الآلات الحجرية كانت توجد فى الحضارة المoustيرية آلات مصنوعة من العظم والخشب .

إنسان هذه الحضارة : كشفت جمجمة في كهف La Chapelle aux Saintes

في مقاطعة كوريز Corrèze في فرنسا كما وجد في نفس الوقت بقايا بشرية في نياندرتال بألمانيا ثم تعددت البقايا البشرية التي من هذا النوع في جهات كثيرة من غرب أوروبا وقد تبين من بحثها أنها لجنس بشري واحد أطلق عليه اسم إنسان نياندرتال. وقد وجد أنه حيثما وجدت آلات حجرية مع إنسان نياندرتال فإنها من النوع الموستيري الصرف كما أنه حيثما وجدت بقايا بشرية مع الآثار الموستيرية فإنها تكون من نوع إنسان نياندرتال وعلى هذا أصبح من الثابت أن هذا الإنسان هو صاحب الحضارة الموستيرية .

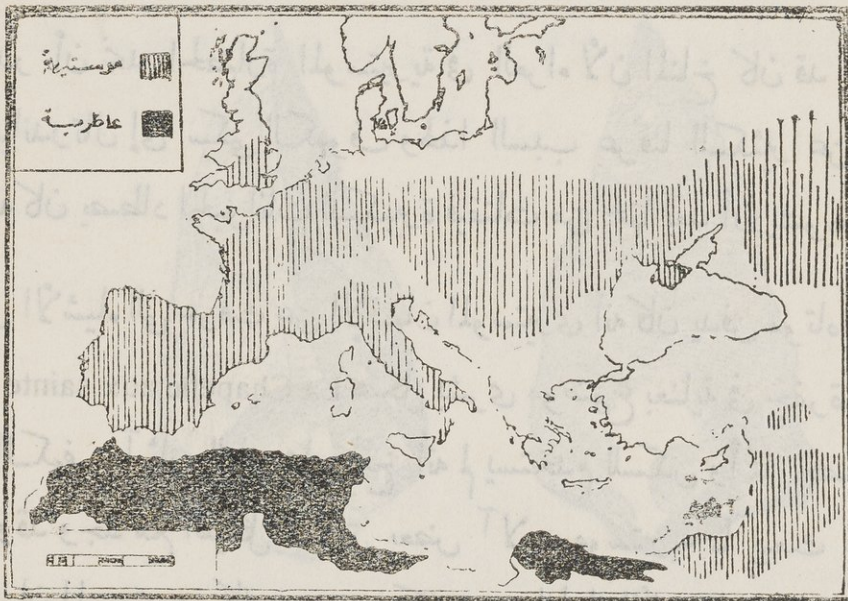
ويندر أن نجد الحضارة الموستيرية في العراق لأن المناخ كان قد برد فليجأ إنسان نياندرتال إلى سكنى الكهوف ولهذا السبب عرفنا الكثير عن حضارته فعرفنا أنه كان يصطاد الحيوانات الكبيرة فيقتات من لحمها بعد أن يشويه على النار

ومن الأشياء التي عرفت عن الإنسان الموستيري أنه كان يدفن موتاه فقد وجد في كهف La Chapelle aux sainte هيكل بشري موضوع بعناية في حفرة خاصة ولم توجد بالكهف آثار النار مما يرجح أنه لم يستخدم للسكن وإنما خصص لدفن الموتى . وقد وجد مع الهيكل السابق بعض آلات موسيقية مما يبعث على الظن بأن الإنسان الموستيري كانت عنده فكرة عن الحياة الأخرى فاعتقد في البعث والنشور ولذلك وضع معه ذووه بعض الآلات الدنيوية لإستعمالها بعد أن يبعث في الحياة الأخرى .

ويظهر أن معظم إنسان نياندرتال صاحب الحضارة الموستيرية ظل مقيما في كهوفه في غرب أوروبا أثناء اشتداد جليد القرم ، على أن بعضه هاجر إلى افريقية في هذه الفترة عن طريق جبل طارق ومالطة وصقلية بدليل وجود البقايا الموستيرية في شمال افريقية وانتشارها في وادي النيل وربما وصل هذا الانسان - المتراجع أمام اشتداد البرودة - حتى أواسط افريقية . (انظر شكل ١٤)

ولم يكن الانسان المoustيري يعيش في العراء ، ولم يكن يحى حياة تجوال بل
تكدس في الكهوف وقد ساعدت هذه الحياة الكشيفة المشتركة على رقيه الاجتماعى
وعلى تقدمه فى التفكير . كما أن الصناعة تطورت فى هذه الحضارة تبعاً لتغير المناخ
ولمطالب الحياة الجديدة كصنع الملابس من الجلود اتقاء للبرد .

وتدل الصناعة المoustيرية على أن الانسان فى هذه الحضارة أصبح أقل فى حجمه
وأضعف فى قوة عضلاته وذلك نتيجة لتحويله من المعيشة الحرة فى الهواء الطلق إلى
التكدس فى الكهوف . ولقد تبع هذا تغير فى حجم الآلات فأصبحت صغيرة الحجم .



شكل (١٤) يبين توزيع الحضارتين المoustيرية والعاطرية

وتعتبر بعض مظاهر الحضارة المoustيرية تطوراً من الحضارة الأشولية فمعظم
الآلات المoustيرية من حجر الصوان كالحضارة السابقة وأن كان مظهرها الخارجى
قد تطور تبعاً لمقتضيات الحياة الجديدة . بل أن انسان نياندرتال صاحب الحضارة
المoustيرية يمكن أن يعتبر متطوراً من انسان هيد لبرج صاحب الحضارة الأشولية
فقد وجد أنه إذا ركب فك هيد لبرج على الجمجمة المoustيرية المكتشفة فى
Chapelle aux Saintes اصلح لها وانطبق عليها ولو أنه يكون كبيراً بعض الشيء .

ثالثاً : العصر الحجري القديم الأعلى

أهم الفروقات بين الحجري القديم الأوسط وبين الحجري القديم الأعلى ما يأتي :

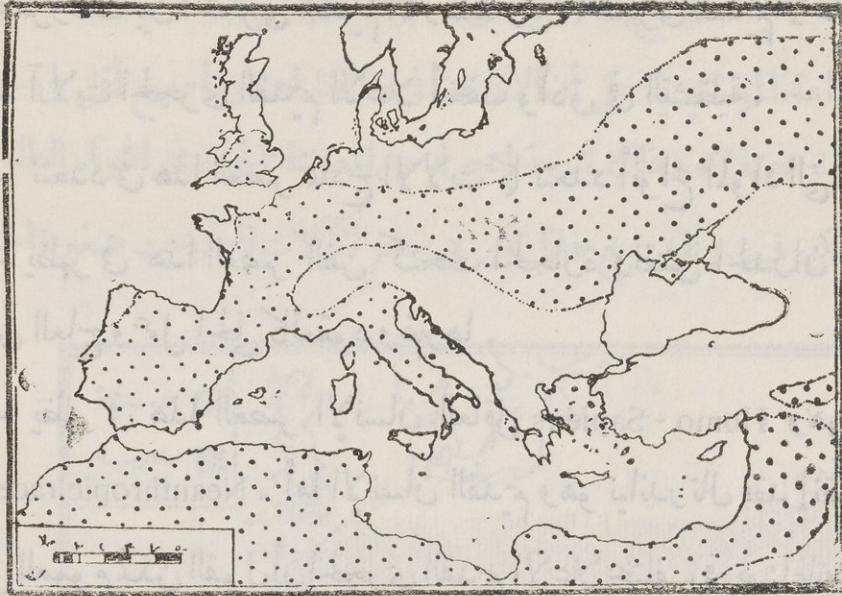
- ١ — آلات الحجري القديم الأعلى أخف وأدق في التشظية .
- ٢ — تتعدد في هذا العصر نماذج الآلات كما تتعدد أنواع المواد التي تصنع منها
- ٣ — يظهر في هذا العصر الفن كمنحت الحجارة ونقش الجدران وتشكيل التماثيل من العاج وعمل الحلى كالعقود وغيرها .
- ٤ — يظهر في هذا العصر الإنسان العاقل Homo - Sapiens وهو الإنسان الحديث Neanthropic race . أما الإنسان القديم وهو نياندرتال فقد انقرض تماماً وعلى العموم يمكن القول أن الحجري القديم الأعلى يختلف في صناعاته وأجناسه عن الحجري القديم الأسفل والمتوسط وأنه لم يكن هناك تطور تدريجي بين الحضارة المoustérienne وبين الحضارة الأورينياسية . وكما سمي الحجري القديم الأسفل عصر صناعة النواه وسمى الحجري القديم الأوسط عصر صناعة الشظايا يسمى الحجري القديم الأعلى عصر صناعة المحتات Gravers or burins industry وأهم الحضارات التي تلتحق إلى هذا العصر مايلي :

الحضارة الأورينياسية : تنسب هذه الحضارة إلى كهف أورينيكاك Aurignac

حيث وجدت طبقة تحتوي على أنواع جديدة من الآلات فوق الطبقة التي تضم آثار الحضارة المoustérienne

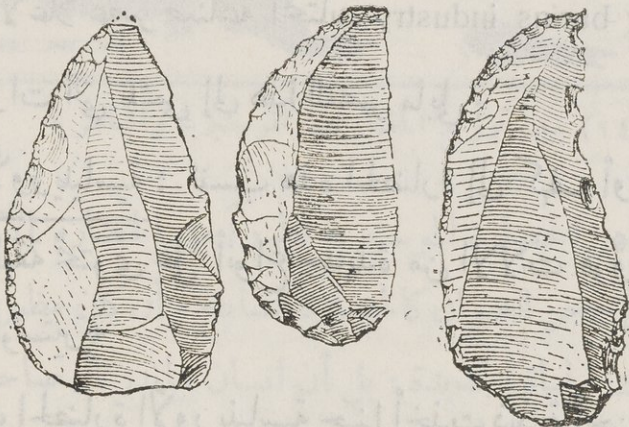
ولقد ظهرت الحضارة الأورينياسية حينما أخذت ذبذبة آخن في التراجع (بين قرم ١ ، قرم ٢) أي أن الظروف المناخية كانت باردة لأن فترة آخن ولو أنها فترة تراجع في الجليد إلا أنه لا يمكن أن تعتبر فترة دفيئة . ولقد اعتدل المناخ بعض الشيء في منتصف هذه الذبذبة ولكن في أواخرها عاد المناخ إلى حالة البرودة

الشديدة ومعنى هذا أن المناخ في أواخر الحضارة الأورينية كان سائرا نحو البرودة الشديدة كما كان سائرا نحو الجفاف في نفس الوقت كما تدل على ذلك بقايا الحيوانات التي من بينها الغزال الأحمر .



شكل (١٥) توزيع الحضارتين القفصية والأورينية

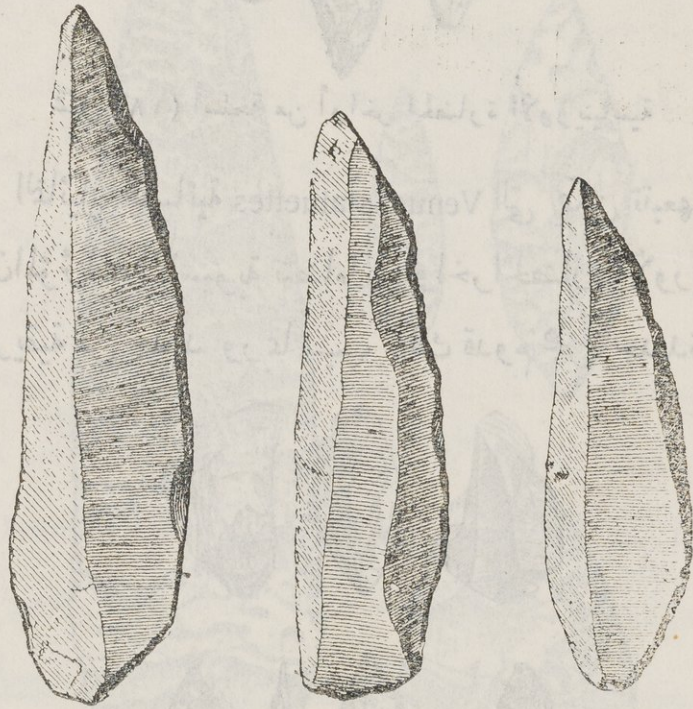
ولقد ظهرت في شمال إفريقيا حضارة شبيهة بالحضارة الأورينية الأوروبية وسابقة لها في الزمن وتسمى هذه الحضارة الأفريقية بالحضارة القفصية نسبة إلى



شكل (١٦) أسلحة من فترة أودى

بلدة قفصة في إقليم قسطنطينية شمال شط الجريد في تونس وكان أصحاب هذه الحضارة يصنعون آلات من الصوان طويلة ورفيعة وقد وجدت هذه الآلات منتشرة على

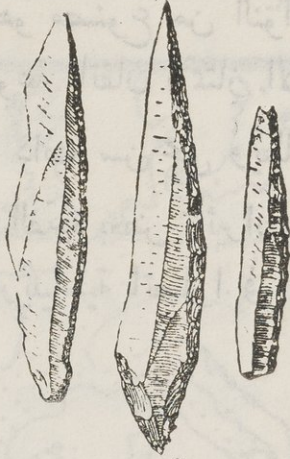
طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وخاصة في المنطقة بين تونس ومراكش. (انظر ١٥ شكل) ومعظم الآلات الأورينية مصنوعة من الشظايا وقليل منها ما هو مصنوع من النواة. والشظايا الأورينية طويلة وضيقة ورفيعة ومصنوعة باتقان وتمتاز الآلات التي ترجع للفترة الأولى من هذه الحضارة بأنها ذات سن مخني ويطلق عليها اسم Audi Points (انظر شكل ١٦) وتحمل هذه الفترة بعض تأثيرات الحضارة الموستيرية مما قد يشير إلى أن أصحاب الحضارة الأورينية اتصلوا في مبدأ الأمر بأصحاب الحضارة



شكل (١٧) يمين أسلحة أورينية

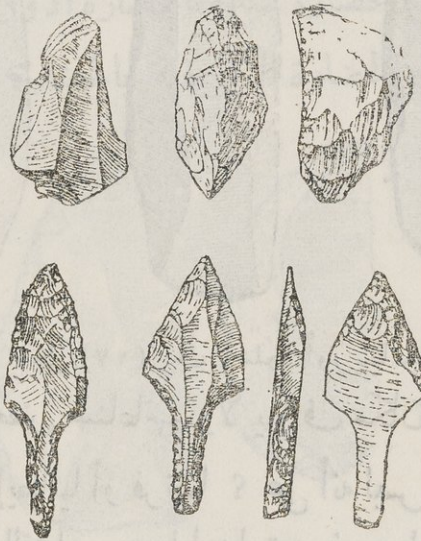
الموستيرية فنقلوا عنهم بعض صناعاتهم ولا يعرف مكان هذا الاتصال بالضبط هل هو في شمال أفريقيا أو إيطاليا أو فرنسا؟ على أنه ليس من الضروري أن يكون الاتصال البشري سبب التشابه بين الحضارتين فمن الجائز أن يكون الإنسان الأوريني شاهد الآلات الموستيرية فقط ولم يشاهد إنسانها. ثم بعد فترة أودى Audi تختفي التأثيرات الموستيرية وتسود الأورينية الصرفة (انظر شكل ١٧، ١٨) وفيما يختص بمصدر الحضارة الأورينية يمكن تتبع آثار هجرتين إلى أوروبا إحداهما من أفريقية والثانية من آسيا. والهجرة الأفريقية أسبق في الزمن بدليل

ما ذكرناه من وجود شبه بين الحضارة القفصية وبين الحضارة الأورينية ثمة تلتهمما
الهجرة الآسيوية فأدخلت مظاهر جديدة إلى هذه الحضارة لم توجد بالحضارة



شكل (١٨) أسلحة من أواخر الحضارة الأورينية

الأفريقية مثل التماثيل النسائية Venus statuettes التي يمكن تتبعها حتى أواسط
سiberia. غير أن المؤثرات الآسيوية تتضاءل في أواخر الحضارة الأورينية وتبقى
المؤثرات الأفريقية من جديد وربما سبب ذلك قدوم هجرة جديدة من أفريقيا.

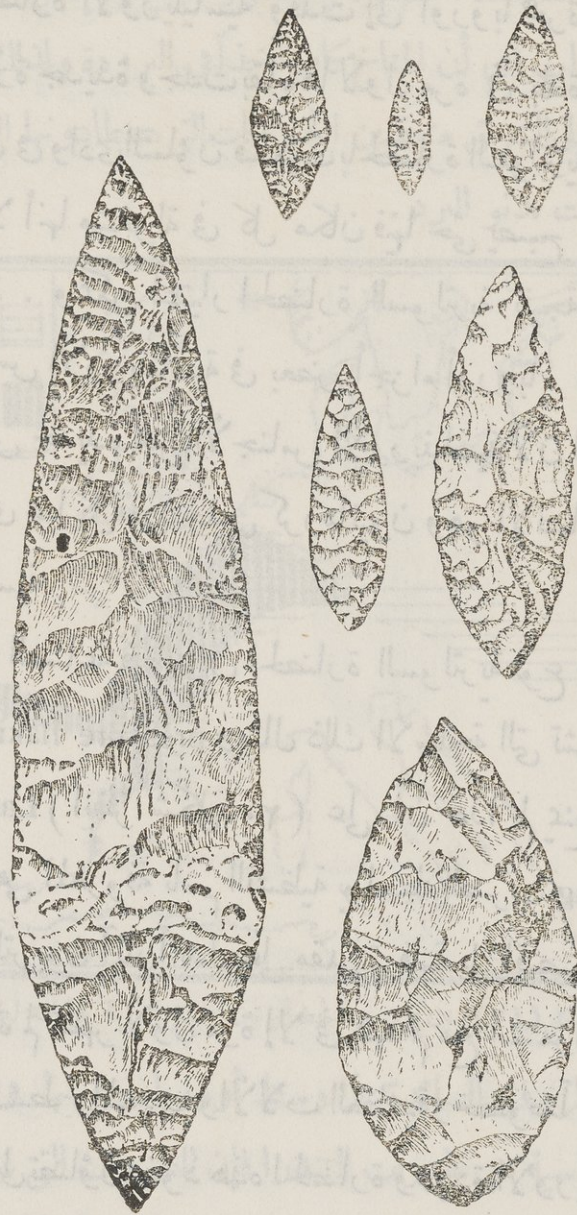


شكل (١٩) أسلحة ذات كعوب من أواخر الحضارة الأورينية

وهكذا تمتاز الحضارة الأورينية في أوروبا عن مثيلاتها في الجهات الأخرى
بعناصر جديدة وافدة من آسيا وأفريقيا.

ومن حيث تطور الصناعة في هذه الحضارة نلاحظ أنه في منتصفها تكثر

المكاشط ذات السكوب kealed scraper المصنوعة من النواة في الغالب (انظر شكل ١٩) كما يظهر المنحت أو المبراة graver وكذلك تنتشر الآلات العظمية في نفس الوقت . ثم في أواخر هذه الحضارة تزيد نسبة الآلات العظمية عن الآلات الصوانية



شكل (٢٠) يمين أسلحة سولتيرية

ويستمر وجود المنحت وتعدد أشكال الآلات وتظهر التماثيل المصنوعة من سن الماموث ومن الحجارة وتوجد منتشرة في غرب أوروبا ووسطها وشرقيها وكذلك في وسط سيبيريا . كما لونت المقابر باللون الأحمر ووجدت أعناق الهياكل البشرية مزينة بحقود من الصدف

وتدل آثار الحضارة الأورينية على أن الإنسان في هذا العصر كان منتشراً في قارات العالم القديم الكبرى آسيا وأفريقيا وأوروبا.

الحضارة السولترية :

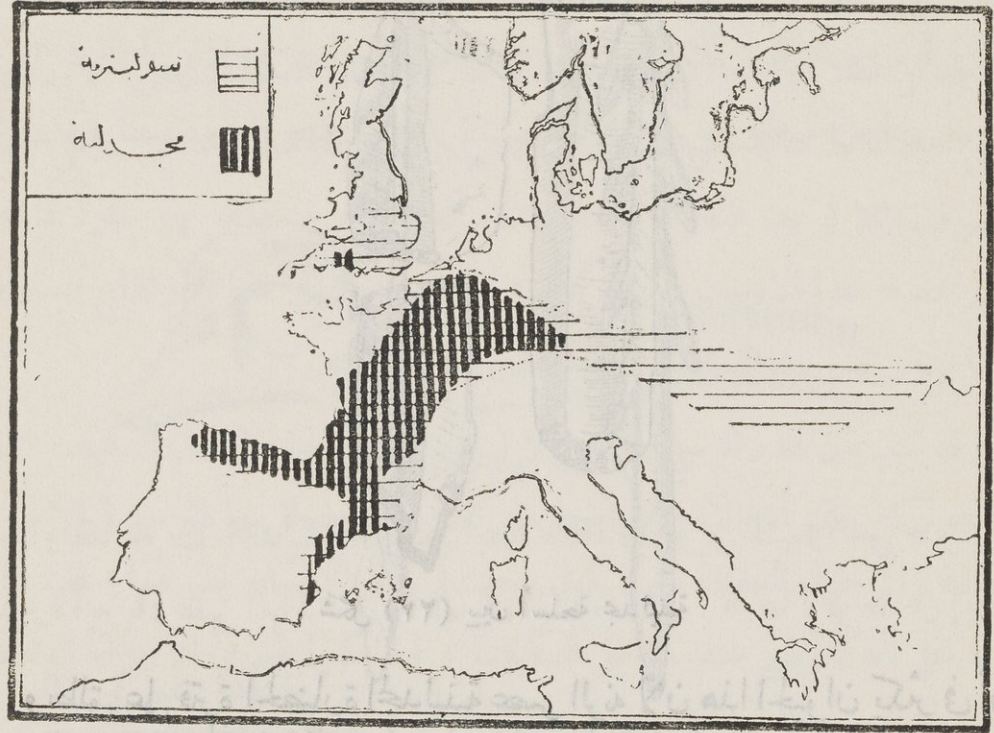
في أواخر الحضارة الأورينية وفدت إلى أوروبا هجرة جديدة من الشرق فأقامت دعائم حضارة جديدة وجدت بقاياها لأول مرة في بلدة سولترى Solutrê بالقرب من ماكون في وادي الساون فسميت بالحضارة السولترية . وآلاتها مصنوعة أيضاً من الشظايا ألا أنها مشغولة في كل مكان فيها حتى يصبح منظرها عبارة عن آلة رفيعة من النواة . ويمكن اعتبار الحضارة السولترية نتيجة قدوم طبقة حاكمة فقط سادت الأجناس الأورينية في بعض أجزاء أوروبا . ولا يمكن اعتبارها نتيجة حلول أجناس جديدة محل الأجناس الأورينية لأن المقابر السولترية في غرب أوروبا تحوى هياكل من جنس كرومانيون وهو الإنسان الذي تعزى إليه الحضارة الأورينية .

وأما من حيث الصناعة فيظهر في الحضارة السولترية نوع جديد من التشظية بواسطة الضغط pressure flaking ومثال ذلك الأسلحة التي تشبه ورق الصفصاف Laurel - leaf blades (انظر شكل ٢٠) على أن هذا لم يمنع استمرار طريقة التشظية القديمة . وهي المعروفة باسم التشظية بواسطة الضرب Strike - flaking

ولم يترك السولتريون آثاراً تدل على مقدرة فنية بل اقتصر صناعاتهم على بعض آلات جديدة لم تظهر لأول مرة إلا في عهدهم مع استمرار وجود الآلات الأورينية كالسكشط والمنحت والآلات العظمية وخصوصاً في أواخر الحضارة السولترية مما يشير إلى تضائل نفوذ هذه الحضارة وعودة الأورينية إلى الظهور من جديد في شكل الحضارة التي سنعرفها تحت اسم المجدلينية .

ولقد وجدت الحضارة السولترية نقية في بعض الجهات التي لم تكن فيها الحضارة الأورينية من قبل بينما وجدت مختلطة ببعض مميزات أورينية في بلجيكا وشمال فرنسا . ولم توجد آثار سولترية في أقاليم الألب بوسط أوروبا لأن السولتريين .

كانوا يفضلون سكنى السهول ولا يرغبون في التوغل في الجبال ولذلك لم يعبروا البرانس إلا في جزء ضئيل جدا حيث وصلوا قلنسية كما لم يعبروا الألب إلى الجنوب فلم توجد لهم بتمايا جنوب هذه الجبال كالر يثيرا أو إيطاليا . وفيما يختص بربط هذه الحضارة بالعصور الجليدية يمكن وضعها حينما أخذ جليد قرم في الاقتراب أى أن المناخ كان آخذاً في البرودة ولذلك عاد أصحاب هذه الحضارة أدراجهم إلى الشرق متعقبين الحيوانات التي يصطادونها التي هاجرت بدورها إلى الشرق لما أحست بدنو البرد .



شكل (٢١) بين توزيع الحضارتين السولتيرية والمجدلية

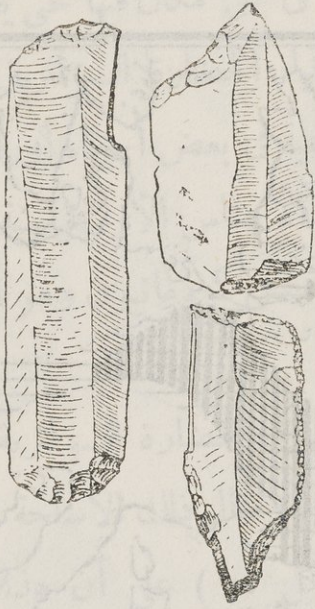
وإذا كانت الظروف السائدة في وسط أوروبا وغربها في القسم الأول من الحضارة الأورينياسية هي ظروف التندرا فإن الظروف التي سادت هذه الجهات في القسم الأخير من هذه الحضارة ثم في الحضارة السولتيرية هي ظروف الاستيس الباردة الجافة .

الحضارة المجدلية :

لما عاد السولتيريون إلى الشرق ظهرت الحضارة الأورينياسية مرة أخرى ولكن

في صورة جديدة تعرف باسم الحضارة المجدلينية نسبة إلى كهف لا مادلين La Madelene في الدردنى حيث وجدت الرواسب التى تضم الآثار المجدلينية فوق الرواسب التى تضم الآثار السولترية. والآلات المجدلينية عبارة عن استمرار للآلات الأورينياسية ولا تحمل من الصفات السولترية شيئاً.

ولقد استمرت الأورينياسية قائمة فى الأماكن التى لم تدخلها السولترية ولذلك نجد فى بعض جهات غرب أوروبا حضارة أورينياسية معاصرة للحضارة السولترية

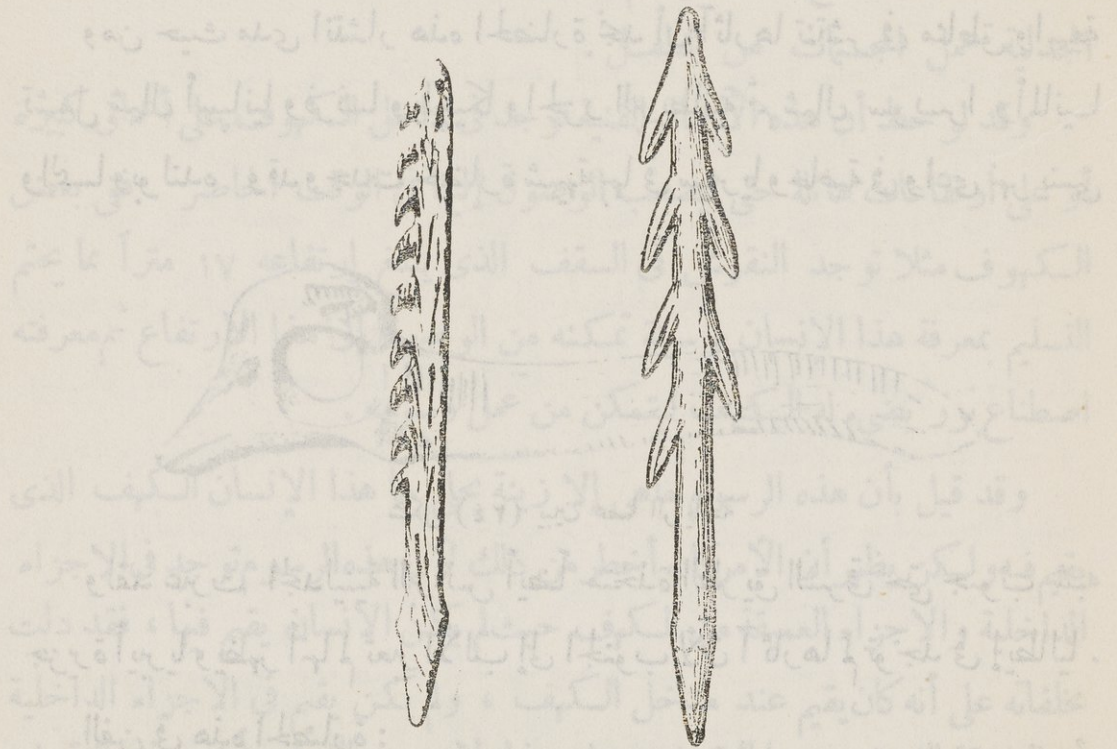


شكل (٢٢) يبين أسلحة مجدلينية

ويطلق على فترة الحضارة المجدلينية عصر الرنة لأن هذا الحيوان يكثر فى أولها ويتوغل للجنوب حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط بينما يقل الغزال الأحمر بسبب اشتداد البرد ولكن فى أواخر هذه الحضارة ينعكس الوضع ويكثر الغزال الأحمر مما يدل على ظهور الدفء، وكذلك انتشرت الغابات فى أواخر هذه الحضارة بسبب ظهور الدفء أيضاً.

وأما من حيث الصناعة فى هذه الحضارة فنجد أن التشظية بواسطة الضغط غير موجودة كما تقل الأسلحة الصوانية وتكثر الآلات العظمية والآلات المصنوعة من القرون التى وصلت إلى درجة كبيرة من الإتقان فى أواخر هذه الحضارة.

وقد وجدت في أوائل المجديزية الآلات الشبيهة بالأوريفيسية كالمكشط Scaper والمنحت Graver والمخراز Awl (أنظر شكل ٢٢) ثم في وسطها تظهر الحربة ذات الصف الواحد من الأسنان ثم في نهايتها تظهر الحربة ذات الصنفين (أنظر شكل ٢٣) ومن الآلات التي تمتاز بها هذه الحضارة العصاة المسماة عصي الرياسة Baton de commandement التي كانت تصنع من قرون الرنة ولها ثقب في طرفها. ولا يعرف بالضبط الغرض من صنعها فربما كانت مجرد عصي يحملها رئيس الجماعة



شكل (٢٣) مثال لحربة مجديزية ذات صف واحد ولاخرى ذات صنفين

وربما كانت تستعمل لشد القوس . وبعض هذه العصي مزين بصور حيوانات (أنظر شكل ٢٤)

وتدل البقايا الحيوانية التي ترجع لهذه الحضارة على أن مقدار الرطوبة والتساقط زاد في أوروبا في هذه الفترة مما أدى إلى زيادة انتشار الغابات في السهل الأوروبي وزيادة تراكم الثلوج في المناطق الألبية، وتعرف هذه المرحلة في جبال الألب بتقدم بهل . وكانت الظروف المناخية والنباتية تختلف من مكان لآخر حسب العوامل

المحلية فيستدل من الحيوانات التي رسمها إنسان هذه الحضارة بنفسه على أن ظروف الغابات كانت سائدة في غرب فرنسا بينما كانت ظروف التندراسائدة في شرقها. وتدل البقايا البشرية على أن الجنس السائد في هذه الفترة كان جنس كرومانيون ولعله كان يعيش معيشة قريبة الشبه بمعيشة الأسكيمو في الوقت الحالي. وكذلك تدل هذه البقايا البشرية عن أن الميت كان يدفن بعناية وكانت توضع معه بعض أدوات الزينة فقد وجدت الهياكل محلاة بعقود من الأصدا ف.

ومن حيث مدى انتشار هذه الحضارة نجد أن آثارها تنتشر في مناطق واسعة تشمل شمال أسبانيا وفرنسا وبلجيكا والجزر البريطانية ثم شمال سويسرا وألمانيا والنمسا وبولنده وقد وجدت حضارة شبيهة بها في سيبيريا وخاصة في وادي نهر ينسي



شكل (٢٤) يبين عصا الرياسة

ولقد عبرت المجدلينية البرانس أيضاً متخذة الطريق الشرقي حتى جنوب شبه جزيرة أيبيريا ويظهر أنها لم تعبر الألب إلى الجنوب لأن آثارها لم توجد في إيطاليا. الفن في هذه الحضارة:

ويمكننا أن نقسم آثار الحضارة المجدلينية إلى قسمين هما (١) الآثار الثابتة (٢) الآثار القابلة للنقل.

أما الآثار الثابتة ففيها - كما كان الحال في الحضارة الأورونياسية - حفر ونقش على جدران الكهوف. ولكن هناك وجوه اختلاف بين الفن في كل من الحضارتين وأهم هذه الاختلافات ما يأتي: أولاً: يظهر في المجدل تعدد الألوان أي أن جدران الكهوف نقشت بعدة

ألوان بخلاف الحال في الأورينياسية اذ لم يستعمل في النقش إلا لون واحد .
ثانياً : يظهر في المجدلى الشعور الطبيعي في الفن . ففي أواخر الحضارة الأورينياسية
كان الإنسان يرسم الحيوانات على جدران الكهوف في وضع ثابت دائماً لا حركة
فيه وأما الإنسان المجدلى فكان يرسم حيواناته في أوضاع مختلفة فبعضها
يمشي في هدوء وبعضها يجري وبعضها يتعارك وهكذا . كما أنه في
الأورينياسية كان الفنان يرسم كل حيوان على حدة ، وأما في المجدلية ولا سيما في
أواخرها فقد أصبح الفنان يرسم الحيوانات قطعاناً ، وكذلك يظهر في
المجدلية عمل المجسمات من الطفل .

وقد لو حظ أن هذه الأعمال الفنية توجد في داخل الكهوف على أعماق كبيرة
أو على ارتفاعات هائلة حتى يصعب الوصول إليها في الوقت الحاضر . ففي بعض
الكهوف مثلاً توجد النقوش في السقف الذي يبلغ إرتفاعه ١٧ متراً مما يحتم
التسلیم بمعرفة هذا الإنسان بوسيلة تمكنه من الوصول إلى هذا الارتفاع ثم معرفته
اصطناع نور يضئ له الكهف ليتمكن من عمل رسومه .

وقد قيل بأن هذه الرسوم ماهي إلا زينة يحلى بها هذا الإنسان الكهف الذي
يقيم فيه ولكن يظهر أن الأمر كان أخطر من ذلك لأن هذه الرسوم توجد في الاجزاء
الداخلية والاجزاء العميقة من الكهف حيث لم يكن الإنسان يقيم فيها ، فقد دلت
مخلفاته على أنه كان يقيم عند مدخل الكهف ، ولم يكن يقيم في الاجزاء الداخلية
أو العميقة التي توجد بها النقوش وعلى هذا لا بد من التسليم بأن هذه النقوش
كانت بقصد الفن للفن أو كانت لغرض ديني .

إذا تركنا الآثار الثابتة وانتقلنا إلى الآثار القابلة للنقل نجد مظاهر جديدة في
المجدلية أهمها ندرة التماثيل النسائية الصغيرة التي تمتاز بها الحضارة الأورينياسية ،
وقد حلت محلها في الكثرة تماثيل الحيوانات المصنوعة من العاج . وفي أغلب الأحيان
نجد بهذه التماثيل ثقباً مما يدل على أنها كانت تعلق في الرقبة كحليمة أو تميمة لمنع
المرض والحسد والأرواح الشريرة كما أن بعض آلات هذه الحضارة كانت ذات مقابض
على شكل حيوان كالحصان والفيل والثور ومثال ذلك عصي الرياسة وقاذفات السهام

وكان إنسان هذه الحضارة يجمع الحصى الذي يجده على شواطئ الأنهار ويزينه بالرسوم ويقول البعض أن هذا الحصى كان يستعمل بمثابة تسويده للتمرين على الرسم بدليل أنه كانت توجد عليها عدة رسومات متقاطعة أو فوق بعضها .

وهذه الآثار المنقولة التي ترجع للحضارة المجدلية تسكثر في وسط أوروبا وشرقها عنها في غرب القارة .

الفصل الثالث

حضارات العصر الحجري

المتوسط والحديث في أوروبا

أولا: العصر الحجري المتوسط

توضع في العصر الحجري المتوسط حضارات ثلاث هي الأزيلية والتردنوازية والسكيبينية ، وقد أطلق عليه اسم الحجري المتوسط لأنه عبارة عن فترة انتقال بين الحجري القديم وبين الحجري الحديث . ولنتكلم عن كل حضارة على حدة :

الحضارة الأزيلية: تنسب هذه الحضارة إلى كهف Mas d'Azil في الأرييج Ariège

في جنوب فرنسا ، ويعتبر بعض العلماء الحضارة الأزيلية حضارة متدهورة لسبيين :
١ - أنها محدودة الانتشار بالقياس إلى الحضارة السابقة لها وهي الحضارة المجدلينية
فبينما المجدلينية توجد في شمال أسبانيا وفي فرنسا وإنجلترا وجنوب ألمانيا وفي سويسرا والنمسا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا فإننا نجد الأزيلية قاصرة تقريبا على شمال أسبانيا وجنوب فرنسا ، وتوجد آثار ضئيلة لها في سويسرا وبلجيكا وإنجلترا . ٢ - أن آثار الحضارة الأزيلية تدل على تدهور صناعة الآلات وفق الفن .

ومن أهم الآثار الخاصة بالحضارة الأزيلية الحصى المنقوش ، فقد كان إنسان هذه الحضارة يجمع الزلط من مجارى الأنهار وينقش عليها رسومات باللون الأحمر ، وهذه الرسومات بسيطة وذات أشكال متعددة [صليب أو حرف أبجدي أو دوائر أو نقط] . (انظر شكل ٢٥)

ويرى مكتشف هذه الحضارة أن الرسوم الأزيلية بدأ اختراع الحروف الأبجدية ، وحاول أن يوجد صلة بين هذه الرسوم وبين الحروف الشرقية

كالهير وغليفية واليونانية والفينيقية . ولكن يظهر أن هذه الصلة غير موجودة بالفعل ،
لا سيما وأن معظم هذه الرسوم ما هو إلا رسومات مختصرة لجسم
الإنسان .

ومن هذه الآثار أيضا نوع خاص من الحربة مصنوع من قرون الغزال ، وهي
ليست في دقة الحربة المجدلينية لأن أسننها أكبر ، ويلاحظ أن لهذه الحربة ثقباً
بعضا . ولما كان لبعض الحراب المجدلينية في شمال أسبانيا مثل هذا الثقب فقد قيل
بأن مهد الحضارة الأزيلية شمال أسبانيا .

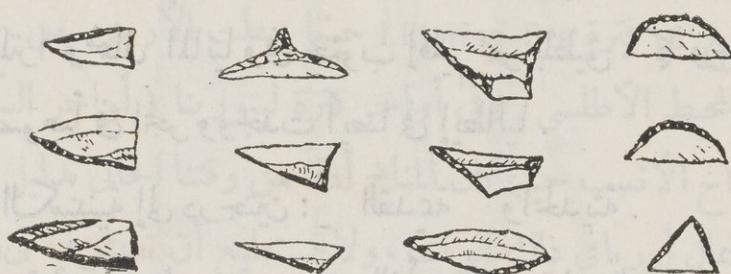


شكل (٢٥) يبين الحراب الأزيلية والحص المنقوش

وأما عن الآلات الصوتية فقد استمر تناقص حجمها في الحضارة الأزيلية ،
ومن أهم الآلات الصوتية الأزيلية المبراة لأن لها شكل السكين الصغير ، كما ظهرت
المكاشط الصغيرة بعضها مستدير وبعضها مخروطي ، وكذلك الآلات ذات الشكل
الهندسي بعضها على شكل قوس وبعضها على شكل مثلث ، كما وجدت بعض الفؤوس
المصنوعة من الزلط بتشظية إحدى أطرافها .

ولقد اختفت الحضارة الأزيلية ولم تتطور إلى حضارة أخرى .

الحضارة التردنوازية : تنسب إلى Tardenois في شمال فرنسا وهي فرع من القفصية الحديثة وتشبهها في أنها حضارة ميكروليثية أى ذات آلات دقيقة (شكل ٢٦) وقد توغلت هذه الحضارة في أوروبا وشغلت مساحة كبيرة ، فأثارها توجد في أسبانيا وفرنسا وأجالترا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر وبولندا ولتوانيا وجنوب روسيا ورومانيا وصقلية وجنوب اليونان ، والجزاء التي لم توجد فيها هي إيطاليا وشمال أوروبا وخاصة اسكندنافيا وشمال روسيا ، ولا يعرف هل توجد في شبه جزيرة البلقان أولا توجد : وتنقسم الحضارة التردنوازية إلى ثلاث درجات : قديمة ووسطى وحديثة :



شكل (٢٦) يبين الآلات القرمزية التردنوازية

أما القديمة فهي معاصرة للآزيلية وتمتاز بالآلات الصوانية الدقيقة ذات الأشكال الهندسية وخصوصاً المثلثات والأقواس كما توجد فيها بعض الآلات العظمية . وكان الإنسان في هذه الفترة يفضل سكنى الجهات الرملية .

أما الوسطى فتمتاز بوجود الآلات التي على شكل شبه منحرف . ويقال أن هذه الآلات كانت تستعمل رؤوس سهام .

أما الحديثة فهي معاصرة للحجري الحديث في أوروبا أى أن بعض قبائل الحجري القديم ظلت تعيش بين زراع الحجري الحديث كما هو الحال الآن في وسط أفريقيا حيث يعيش الأقزام بجوار الزنوج الزراعيين . وتوجد دلائل كثيرة على أن الشعوب التردنوازية كانت من قصار القامة .

الحضارة الكمبينية : تنسب إلى تل Le Campigny في مقاطعة السين في شمال فرنسا

وهي تمتاز بظهور الفأس اليدوية من جديد ، ويعمل ظهور الفأس من جديد بتعليين :

١ — ظهور الزراعة تطلب وجود آلة كبيرة فوجدت الفأس اليدوية ، والقائلون بهذا الرأي لا يرون أن هناك علاقة بين الفأس الكمبينية وبين فأس الحجرى القديم

٢ — أن الفأس اليدوية استمرت موجودة منذ الحجرى القديم الأسفل حتى الحجرى القديم الأعلى ولكن ظهور الشظايا فى الحجرى القديم الأعلى قلل من شأن الفأس اليدوية ثم استعادت نفوذها فى أواخر الحجرى القديم الأعلى لأن الشظايا أصبحت صغيرة الحجم (ميكرو ليثية) لا تنفى بحاجات الزراعة .

ولقد كانت الحضارة الكمبينية واسعة الانتشار فوجدت فى شمال فرنسا وفى بلجيكا وإنجلترا وشمال ألمانيا وفى جنوب إقليم بحر بلطيق ، كما وجدت فى وسط أوروبا وخصوصاً فى المجر ووجدت أيضاً فى إيطاليا .

وتقسم الكمبينية إلى درجتين : القديمة والحديثة .

أما القديمة فتمتاز بظهور نوعين من الفأس اليدوية إحداهما ذات طرف مدبب والأخرى مستطيلة ، كما يظهر فيها الشاطور المصنوع من الصوان أو الكوارتزيت كما تظهر فيها المكاشط ذات العنق وربما عرف الفخار فى هذه الحضارة .

أما الكمبينية فاهم مميزاتها الحضارة المعروفة باسم «بقايا المطبخ» kitchenmidden Culture وتسمى بالدمركية kokken midding وتوجد فى الدنمرك وجنوب السويد ، وهى عبارة عن كميات هائلة من الأصداف ألقيت بعد أكل ما بداخلها من حيوان . ويصل عمق فضلات المطبخ إلى عدة أمتار ، كما يصل طولها إلى ٥٠ متراً ، ويظهر أن الناس كانوا يعيشون فى المنطقة الواحدة طول العام معتمدين على ما يجمعونه من سمك وقواقع ، وعلى بعض الصيد بدليل ما وجد من قرون الوعول المدفونه بين فضلات المطبخ ، بل كانوا يدفنون موتاهم فى نفس أكوام الفضلات .

أما الصناعة فى الكمبينية الحديثه فقد كانت أكثر تقدماً عن القديمة ، وتدل على

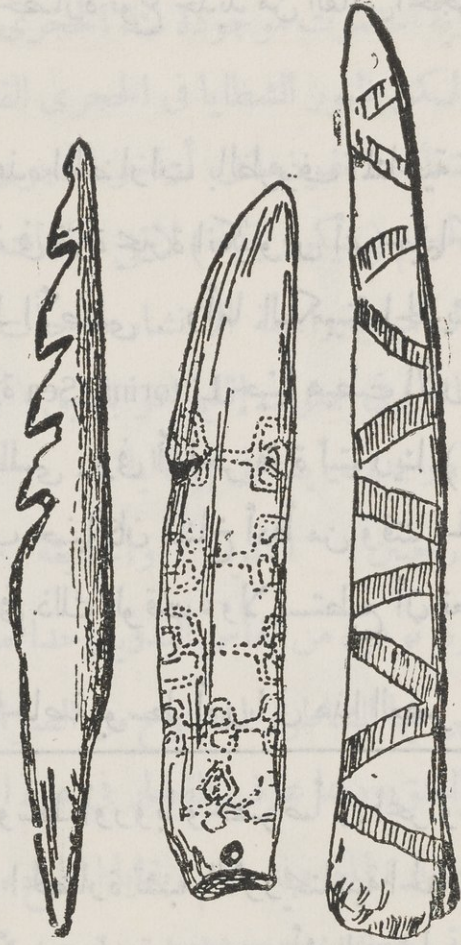
تأثير قوى من الحجرى الحديث لأن الفؤوس والشواطير أصبحت تصنع بإتقان، وظهرت نماذج جديدة من الصناعة من أهمها المشط المصنوع من العظم أو الخشب، وكذلك أصبح الفخار معروفاً؛ فعرفت الأواني الفخارية البسيطة التى تمتاز بقاعدة مدببة أو مستديرة. ولا توجد على الفخار رسومات غير أثر طبع الأصابع على الحافه، كما يظهر فى هذه الحضارة نوع جديد من الفأس الحجرية مصنوعة من الجرانيت أو الديوريت.

ومن حيث ربط هذه الحضارات بالظروف المناخية توضع السكسينية القديمة والتردنوازية والأزيلية فى فترة بحيرة انكيلوس أى حينما كان بحر بلطيق عبارة عن بحيرة منفصلة عن المحيط الأطلسى. وأما السكسينية الحديثة أى حضارة مخلفات المطبخ فتوضع فى فترة Littorina Sea حينما هبطت الأرض من جديد واتصل بحر بلطيق بالمحيط الأطلسى. وفى أواخر فترة ليتورينا (أواخر السكسينية) يظهر ما يسمى بالمناخ الأنسب حينما كان المناخ أدفاً من وقتنا الحالى بدليل الحيوانات التى وجدت فى شمال أوربا فى ذلك الوقت، ولا تستطيع أن تعيش فيه فى الوقت الحاضر

المرتبة الحضارية الخاصة بوسط أوربا فى هذا العصر :

وجدت فى شرق وسط أوروبا وخصوصاً فى المجر ومورافيا حضارة أطلق عليها ماقبل السولترية وهذه الحضارة تشبه الأوريجناسية الحديثة فهى عبارة عن خليط بين بعض المميزات الأوريجناسية وبعض تأثيرات الحضارة القادمة من الشرق. أما هذه التأثيرات القادمة من الشرق فتظهر فى الأسلحة التى تشبه ورق الغار، ولا سيما الآلة التى تسمى الهراوة أو النبوت. وهذه الآلة لم تظهر فى غرب أوروبا وإنما وجدت فقط فى مورافيا فى Briinn وهى مصنوعة من الحجر الجيرى وفى وسطها ثقب تركب فيه اليد، وبذلك تؤدى غرض الفأس. ثم تمتاز هذه الحضارة بظهور رسومات ذات أشكال هندسية بعضها يشبه جسم الإنسان، فهذه كلها أشياء ظهرت فى شرق وسط أوروبا ولم تظهر فى غربها.

المرتبة الحضارية الخاصة بشمال أوروبا في هذا العصر :
أثناء العصر الجليدي الأخير لم يكن شمال أوروبا مسكونا ، ولكن لما أخذ
المناخ في الدفء بدأ الإنسان في الهجرة من وسط أوروبا إلى شمالها ، ولذلك نجد
في شمال أوروبا حضارات مختلفة أهمها حضارة Kunda وحضارة Maglemose .



شكل (٢٧) بين الآلات العظمية بحضارة ما جلموز

حضارة كوندنا : تنسب إلى مكان بهذا الاسم على خليج ريجما وكانت معاصرة
للأزيلية . وتمتاز هذه الحضارة بأن جميع آلاتها مصنوعة من العظام . ومن أمثلة
هذه الآلات الحربة ذات السن الواحد ، كما تظهر فيها الحربة ذات الأسنان العديدة
على صف واحد أو صفين ، وتظهر فيها حربة ذات أسنان كثيرة متقاربة جداً حتى
تشبه المذشار ، ومن أهم آلاتها أيضاً الحربة ذات الأسنان المصنوعة من الصوان تثبت

إلى جوانبها، وهذا النوع لم يظهر إلا في حضارة كندا . ومن أمثلة هذه الآلات أيضاً رموس السهام المصنوعة من العظام ، ولا زالت بعض هذه الآلات تستعمل عند قبائل شمال سيبيريا كالسامويد لأن حضارة كندا كانت تشمل شمال روسيا وسيبيريا .

حضارة ماجلهوز : تنسب إلى بلدة بهذا الاسم في جزيرة زيلند Zeeland التابعة للدانمرك ، وهي عبارة عن خليط من الحضارة الكيمينية القديمة وحضارة كندا ، ولذلك تظهر في هذه الحضارة الآلات العظيمة الكندية والآلات الحجرية الكيمينية ، ومن أهم آلاتها قرون الوعول ذات الشقوب ، وربما كانت تستعمل كقفؤوس وتنتشر حضارة ماجلهوز في الدانمرك واسكندنافيا وشمال ألمانيا وإنجلترا . (أنظر شكل ٢٧) .

ثانياً : العصر الحجري الحديث

امتاز الحجري المتوسط بتغير في درجة الحرارة فاصبح المناخ في أجزاء كثيرة من شمال أوروبا دفيئاً وجافاً ، واختفت تبعاً لذلك الحيوانات التي تألف البرودة وهجر غزال الرنة ألمانيا وتراجع خط الثلج إلى موقعه الحالي تقريباً ، وأخذت الغابات في الانتشار وخصوصاً البتولا والشربين وتناقص مستوى الماء في البحيرات ، وعلى العموم كان المناخ ادفأ منه الوقت الحالي . وتسمى هذه الفترة بفترة Boreal التي في أواخرها ظهر البلوط بكثرة وانخفض بحر البلطيق ووجدت تبعاً لذلك الفترة المسماة Atlantic التي كان المناخ فيها ما زال دفيئاً ، ولكن الرطوبة كثررت فارتفع مستوى الماء في البحيرات وتتفق هذه الفترة مع أوائل العصر الحجري الحديث . ثم في أواسط العصر الحجري الحديث وعصر البرنز ارتفعت الأرض من جديد وساد الجفاف مرة أخرى ووجدت الفترة المعروفة باسم Sub - Boreal وقلت الأشجار في الغابات ، وانخفض مستوى الماء

واستمرت الحال هكذا حتى عصر الحديد . ولكن هذه الحالة لم تكن تنطبق على كل غرب أوروبا بل توجد بعض استثناءات ، ففي فترة Boreal كانت الجزر البريطانية أكثر رطوبة بفضل أعاصير المحيط الأطلسي ، بينما جنوب شرق إنجلترا كان تابعا لحالة القارة فكان جافا دفيئا . كذلك كانت منطقة البرنز في جنوب فرنسا ذات مناخ دفيء رطب في العصر الحجري المتوسط . بدليل أصداف القواقع التي وجدت في الرواسب الأزيلية .

ولقد كان للعامل المناخي أثره في انهاء العصر الحجري الأوسط وابتداء العصر الحجري الحديث وذلك أن الجفاف لما عم أجزاء كثيرة من العالم سادت الظروف الصحراوية في هذه الأجزاء وكان لزاما على الإنسان أن يهجرها ويسم شطر مجارى الأنهار كالدرجة والفرات والنيل فيجتمع حولها في قرى ومدن . وقد تبع ذلك هجر الحرف القديمة كالصيد لأن عدد الحيوان قل واختراع حرف جديدة كالزراعة التي تتناسب مع بيئته الجديدة ، وقد قامت تبعا لذلك أيضا عدة صناعات كصناعة الرحي لطحن الحبوب وكالتجارة والبناء وبعض الصناعات المعدنية ثم اختراع صناعة الفخار وقوالب الطوب واستئناس الحيوان .

هذه المجموعة الجديدة من الاختراعات وثقت صلة الإنسان بالأرض التي يعيش عليها فنشأت الجماعات الزراعية في جهات لا يتوفر فيها حجر الصوان في بعض الأحيان ولذلك كان من الطبيعي أن يستخدم إنسان هذه الحضارة في صناعته أنواعا أخرى من المواد غير الحجرية بل وأن يستبدل نتاج بيئته من هذه المواد بمنتجات البيئات الأخرى وبذلك نشأت التجارة . وقد رأينا أن إنسان العصر الحجري القديم والأوسط يصطاد الماموث والرنه بأقليم التندرا ويصطاد البيزون والحصان بأقليم الإستبس البارد الجاف ويصطاد الثور والغزال الأحمر لما انتشرت الغابات . وقد رأينا أيضا أن منطقة الأعاصير ترحلت نحو الشمال وترحلت وراها النطاق الذي كانت تعمل فيه الرياح الغربية الرطبة فلم تعد هذه الرياح تخترق البحر

الأيض المتوسط طول العام كما لم تعد تخترق إقليم الصحراء الكبرى إلا في فترات استثنائية وفجائية . وقد تبع هذه الزحزحة المناخية زحزحة نباتية فأصبحت الغابات الصنوبرية ثم الغابات النفضية تنتشر في أوروبا في اتجاه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي حتى وصلت الدنمرك وجنوب السويد حوالى سنة ٥٠٠٠ ق . م . وقد وضع انتشار الغابات حدا لصيد الحيوانات الكبيرة في السهول المكشوفة كما كان الحال في العصر الحجري القديم الأعلى ، وتحول انسان العصر الحجري الحديث إلى حياة الاستقرار على شواطئ البحيرات والأنهار والبحار ونشط في حرفة الجمع ، فكانت نسبة كبيرة من غذائه تتكون من الأصداف والفواكه والجذور مع بعض الأسماك واللحوم .

وقد تأثرت الجهات الصحراوية بهذه الزحزحة المناخية والنباتية فقل بها المطر وتحولت ظروفها النباتية من حشائش غنية إلى رمال جرداء ، وقد تبع ذلك هجرة الحيوانات آكلة العشب أو هلاكها وأما الإنسان فقد تفرق وانتشر في جميع الاتجاهات فهاجر بعضه مع الحضارة القفصية الأخيرة عن طريق شرق أسبانيا إلى السهل الأوروبي شمال جبال الألب حيث نشر الحضارة التردنوازية بآلاتها القزمية (microlithic) وقد سكن هؤلاء في أغلب الأحوال المساحات ذات التربة الجافة مثل التلال الطباشيرية والهضاب الجيرية و جهات اللويس الرملية وهى الجهات التى لم تستطع الغابات أن تستقر فيها بسبب جفافها . وقد اعتمد هؤلاء في غذائهم على الصيد الصغير مستخدمين في ذلك الأقواس والسهام ثم على الجذور يستخرجونها من الأرض بواسطة فؤوس من الصوان ولم تقتصر هذه الحضارة القزمية على أوروبا بل شملت مصر حيث وجدت في تلال المقطم كما شملت فلسطين بل الهند وسيلان أيضا ثم في سنة ٤٥٠٠ ق . م حدث إرتفاع قليل للأرض صحبه إنخفاض في درجة الحرارة أدى إلى تقدم الأنهار الجليدية الالبية وهذه هى المرحلة المعروفة باسم شنتز Gschnitz . وهذا النقص في درجة الحرارة لم يؤد إلى تحسن ظروف سكان

الشواطىء النهرية والبحرية فى أوروبا، ثم لما زالت موجة البرد وحلت موجة الدفء لم يظهر هؤلاء الأقسام الاوروبيون أى تقدم فى حضارتهم . بل ظل الركود مخيما عليهم ولم تزد عناصر مدينتهم إلا أمرين إستثناس الكلب وصناعة الفخار .

وعلى العموم يمكن القول أن أهم الفروقات بين العصر الحجري الحديث وبين العصور التى سبقته تنحصر فيما يلى :

١ - الزراعة ٢ - استئناس الحيوان ٣ - صناعة الفخار ٤ - صقل الحجارة .

ولم يعرف استعمال المعادن فى أوروبا فى العصر الحجري الحديث بينما كان معروفا فى نفس العصر فى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط .

وفما يختص بالزراعة نجد أن معرفة الزراعة كانت سبباً فى تجمع الناس فى مناطق استقرار، فأنشئت القرى ومخازن الغلال وحظائر الحيوان وعرف الإنسان إدخار المؤونة للفصل الذى تجذب فيه الأرض . ولقد أدى هذا التجمع إلى الحاجة إلى تنظيم الجماعة كما أدى إلى وجود التخصص وتقسيم العمل فوجدت طائفة لصنع الأواني والآلات وأخرى لبناء المساكن وثالثة للعمليات الزراعية ورابعة لرعى الحيوان وحراسته .

ومن الغلات التى زرعها إنسان هذا العصر الشعير والقمح والذرة وأما الشوفان والشيلم فلم يظهر فى هذا الوقت المبكر . وكانت الغلات تختلف من إقليم لآخر .

وقد عرف إنسان هذا العصر كذلك الغزل والنسيج لصنع الملابس وشباك الصيد . وما دامت الزراعة قد وجدت فلا بد من وجود ثلاث آلات : المحراث والمنجل والهاون . أما المحراث فكانت قائمته تصنع من الخشب وسلاحه من حجر الصوان أو الكوارتزيت ، وأما المنجل فكانت أسنانه تصنع من الصوان ثم تثبت هذه الأسنان فى يد من الخشب ، وأما الهاون فكان عبارة عن حجر كبير يحوف خصيصاً ثم يد من الحجر كذلك لطحن الحبوب فى هذا التجويف .

وفما يختص باستئناس الحيوان ربما عرف إنسان الحضارة الأزيلية كيف

يسخر بعض أنواع الحيوان لأغراضه وليسكن الاستئناس التام للحيوان لم يتم إلا في العصر الحجري الحديث، ومعنى الاستئناس التام أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطة الإنسان ويرجح أن استئناس الحيوان وجد أولاً في الشرق في منطقة أناو في تركستان الروسية ثم انتقل بعد ذلك إلى أوروبا وذلك لأن آثار العصر الحجري الحديث في أناو وهي معاصرة للعصر الحجري القديم في أوروبا تدل على استئناس بعض الحيوانات كالأغنام والماشية وربما الخيول.

وأما عن صناعة الفخار فيقال أن الطفل المحروق عرف في أواخر العصر الحجري القديم ولكن صناعة الأواني الفخارية وتشكيلها والتحكم في ألوانها لم يعرف إلا في العصر الحجري الحديث، وكانت الأواني الفخارية تشكل في هذا العصر باليد وأما استعمال العجلة في تشكيل الفخار فلم يعرف إلا في عصر البرنز وأما عن صقل الآلات الحجرية فإن إنسان العصر الحجري القديم كان يصنع آلاته بواسطة النشظية والتهديب Flaking & chipping وهما لا يصلحان إلا في أنواع خاصة من الحجارة كالصوان، فمثلاً لا يمكن تشكيل آلات من الجرانيت بطريقة النشظية، ثم أن حافة الآلات الصوانية سهلة التهديب ولذلك تتلف بسرعة. ولكن إنسان الحجري الحديث عرف صنع الآلات بواسطة صقل أنواع من الحجارة أكثر صلابة من الصوان كالديوريت والجرانيت. وقد أفادت هذه الآلات الحجرية في قطع الأخشاب التي كثرت في هذا الوقت بسبب دفء المناخ. ومع ذلك فقد استمرت الطريقة القديمة مستعملة وهي طريقة النشظية.

وبسبب الحاجة إلى الحجارة بأنواعها المختلفة وجدت محاجر خاصة لاستخراجها وتخصصت في ذلك فئة خاصة من العمال. وكانت صناعة الآلات تتم في مناطق المحاجر لينخفض حملها وبذلك تجنب هذا الإنسان القديم نقل كتل ثقيلة من الحجارة لالزوم لها.

مصدر حضارة أوروبا في العصر الحجري الحديث:

من المرجح أن وسط آسيا كان المورد الأساسي لحضارة العصر الحجري الحديث في أوروبا وأن هذه الحضارة انتقلت إلى أوروبا نتيجة للتغيرات المناخية في وسط

آسيا . وإذا نظرنا إلى وسط آسيا في الوقت الحالى نجد أنه تشغله أعلا جبال فى العالم بالأضافة إلى الصحارى الواسعة التى تؤلف منطقة داخلية مقفلة لا تنصل بالمحيط . فإذا سقط المطر فى الوقت الحالى فإنه لا ينصرف إلى المحيط وإنما يتسرب إلى باطن التربة أو يتبخر فى الهواء . ولـسكن فى الزمن الرابع كان هناك بحر داخل فى المنطقة التى تشغلها الآن الصحراوات ومن بقايا هذا البحر القديم فى الوقت الحالى بحر آرال وقزوين وبحيرة بلكاش وغيرها من البحيرات الصغيرة . ولقد كان هذا البحر الداخلى على اتصال بالبحر الأسود ، وكان مستوى الماء فى بحر قزوين أعلا من مستوى البحر الداخلى بستمائة قدم . وكانت هذه المساحة المائية الهائلة تتغذى بواسطة الشلالات التى أخذت تذوب فى أواخر الزمن الرابع . وقد أفادت هذه المساحة المائية الداخلية فائدتين : فأولا لطفت درجة الحرارة فى وسط آسيا فقللت من قيظ الصيف ومن قسوة الشتاء على حد سواء . وثانيا كان بخار الماء المتصاعد من هذا البحر الداخلى سببا فى توفير الرطوبة فى مساحات كبيرة من وسط آسيا — هى الآن صحراء — فأمكن بذلك استثمار الأرض . ومعنى هذا أن وسط آسيا كان فى أواخر الزمن الرابع أكثر صلاحية لمعيشة الإنسان من غرب أوروبا . ولـسكن بعد انتهاء العصر الجليدى البلايستوسينى تسود فترة جفاف — هى المعاصرة للحجرى الأوسط — وقد أفاد هذا الجفاف غرب أوروبا ولكنه سبب الخراب فى وسط آسيا لا سيما وأنه حدث فى نفس الوقت حركات أرضية سببت فتح البسفور وتسرب مياه البحر الداخلى إلى البحر الأبيض المتوسط وأصبح الإنسان الآسيوى مخيرا بين الهلاك أو الهجرة فاختر الهجرة واتجه نحو أوروبا من ناحية ونحو شرق آسيا من ناحية أخرى ناقل معه الأشياء التى تميز العصر الحجري الحديث كالزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار

وإذا فالهجرات الرئيسية التى أوجدت العصر الحجري الحديث فى أوروبا أتت من المناطق الواقعة شمال السلاسل الجبلية الوسطى فى آسيا . وكذلك تلقت مصر وفلسطين وسوريا بعض تأثيراتها الثقافية — ولـسكن فى وقت مبكر — من هذه

المناطق عن طريق تركستان الروسية . ومن المناطق التي بحثت في آسيا منطقة أناو بالقرب من أستراباد في التركستان الروسية حيث وجدت طبقات متتابعة من الحضارة .

ثم في بدأ عصر المعادن ينشط التبادل التجاري ويتمكن الإنسان من عبور بعض الجبال القليلة الارتفاع ، فنجد ثقافة بلاد النهرين (ميزوپوتاميا) تنتقل إلى بلاد بعيدة وخصوصاً في أواخر الحجري الحديث حيث ساد الجفاف وذابت الثلوج وانكشفت قمم الجبال القليلة الارتفاع فسهل عبورها ولا سيما من خلال الشغرات التي بينها .

انواع المساكن في العصر الحجري الحديث :

١ — القرى الثابتة : بدأ الانسان في العصر الحجري الحديث يعيش في قرى

ثابتة مكونة من أكواخ عديدة متجاورة ، وهذه الأكواخ كانت قواعدها تبنى بالطين لتثبيت القوائم التي يقوم عليها السقف . واستخدمت الأعشاب وفروع الأشجار لملء الفراغ بين هذه القوائم . وكان يختار للقرية مكان حصين لسهولة الدفاع ضد المعتدى سواء كان إنساناً أو حيواناً . وفي كل كوخ يوجد مخزن للهواد الغذائية محفور في الأرض وموقد . وربما كان الكوخ الواحد يقسم إلى غرفتين أو أكثر كما تدل على ذلك بقايا صفوف الأعمدة الخشبية . أما شكل المنازل فكان منها المستطيل والمربع والبيضاوي ، وفي بعض الأحيان يوجد حجر كبير داخل الكوخ ربما كان يستخدم كمائدة . وقد وجدت نماذج صغيرة من الفخار لمنازل في Brno (Brunn) وقد وجدت آثار تدل على وجود شوارع بين هذه المنازل .

٢ — مساكن البحيرات : استخدمت هذه الطريقة للسكن بقصد الدفاع ضد

المغيرين من البشر أو الحيوانات المتوحشة . وكان هذا النوع من السكن منتشراً في سويسرا بالقرب من بحيرات نيوشاتل ولوسرن وكنستانس ، وفي الناحية الأخرى من التلال وجد سكان البحيرات الايطاليون ، وكذلك وجد هذا النوع من السكن

في جبال الألب . وكانت المساكن تقام في وسط البحيرة على أعمدة خشبية ، وكان يوجد من هذه المساكن طريق ضيق يوصل إلى الشاطئ ويسهل إزالته وقت الخطر حتى لا يتمكن العدو من الاقتراب من المساكن . ومساكن البحيرات في العصر الحجري الحديث لم تكن كثيرة البعد عن الشاطئ . وقد استمر هذا النوع من المساكن مستخدماً حتى عصر المعادن ، ولما زاد بعد القرية عن شاطئ البحيرة . وقد وجدت مخلفات هؤلاء الأقوام وهي تشمل أواني فخارية وآلات حجرية وعظمية وحبوب وقطع منسوجات وبقايا شباك الصيد وغير ذلك ولا بد أن هؤلاء الناس عرفوا صنع القوارب واستخدامها .

٣ — الكهوف : في بعض المناطق التي تلائم طبيعة الصخر فيها وجرد الكهوف

— كمناطق الحجر الجيري — استمر استخدامها للسكن .

المقابر :

وقد تعددت أنواع المقابر في العصر الحجري الحديث ؛ فبعض المقابر كان عبارة عن حفر عادية ، والبعض كان مبنياً على سطح الأرض ، وكذلك استخدمت الكهوف للدفن . وكان يدفن مع الميت بعض الأواني والآلات وربما وجد نوع من الثقافة الدينية خاصة بالموت .

مناطق حضارة العصر الحجري الحديث في أوروبا : وجدت في أوروبا حضارة

العصر الحجري الحديث ممثلة في عدة مناطق منفصلة عن بعضها وذلك لأن الإنسان هذا العصر كان يسكن حيث الأرض سهلة خالية من الغابات . وأهم هذه المناطق ما يأتي :

١ — المنطقة الشرقية وتسكنها العناصر التي هاجرت من آسيا إلى شرق أوروبا

واتخذت أولاً طريق الدانوب وروافده واستقرت في أراضي اللويس بجنوب ألمانيا ، ثم طريق ترانسلفانيا .

٢ — المنطقة الشمالية وتشمل اسكندنافيا وشواطئ البلطيق التي تأثرت

حضارتها بتأثيرات من الجنوب الغربي ومن الشرق والجنوب الشرقي .

٣ — المنطقة الغربية وتشمل غرب أوروبا والجزر البريطانية .

٤ - منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وهي أسبق هذه المناطق كلها من حيث الحضارة ودرجة رقيها .

أجناس العصر الحجري الحديث :

وجد في أوروبا في العصر الحجري الحديث الأجناس الثلاثة المشهورة :
١ - البحر الأبيض ٢ - الألبى ٣ - النوردي .

أما جنس البحر الأبيض فقد وجد في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ كما انتشر شمالا حتى جنوب بريطانيا . وأصحاب حضارة Anau يرجعون لهذا الجنس وهذا يرجح أن منشأ حضارة العصر الحجري الحديث كان في وسط آسيا ، وكذلك أصحاب الحضارة القفصية التي ترجع للعصر الحجري القديم الأعلى من هذا الجنس ، وقد تطورت حضارتهم إلى التردنوازية التي ترجع للحجري الأوسط ، ثم استمر وجودهم حتى ساهموا في إيجاد حضارة العصر الحجري الحديث في الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط . وعلى العموم وصل هذا الجنس إلى أوروبا في الحجري القديم الأعلى سواء منه من يرجع إلى أصحاب حضارة Anau أو إلى أصحاب الحضارة القفصية .

أما الجنس الألبى فهو يحتل سلاسل الجبال الوسطى في آسيا وأوروبا . وقد قيل بأن هذا الجنس العريض الرأس هو الذي أدخل حضارة الحجري الحديث إلى أوروبا لأنه كان المظنون أن الرؤوس العريضة لم تظهر في أوروبا إلا في العصر الحجري الحديث . ولكن ظهر أن الرؤوس العريضة وجدت في أوروبا أثناء الحضارة السوليتيرية (حجري قديم أعلا) كما وجدت في الحجري الأوسط . ومن المرجح الآن أن الجنس المستطيل الرأس هو الذي أدخل الحضارة السوليتيرية إلى أوروبا أما الجنس النوردي فيقال أن منشأه جنوب سيبيريا ؛ ويقال أنه وصل أوروبا متأخرا بعد جنس البحر الأبيض والجنس الألبى .

الصناعة في العصر الحجري الحديث

في اسكندنافيا حيث وجد الصوان بكثرة صنعت آلات صوانية في منتهى الدقة كالسكاكين والخناجر والسهام والرماح. وبلغ من مهارة العمال أنهم كانوا يصنعون الحلى كالعقود والأساور من الحجارة. وقد بلغت هذه الحلى درجة الاتقان التى بلغتها الحلى المصنوعة من المعادن فى عصر المعادن. ومن أمثلة الآلات فى اسكندنافيا الفأس الحجرية المصقولة صقلا تاما، أو المصقولة من سلاحها القاطع فقط. كما ظهرت الفأس التى تشبه المطرقة.

وفى أسبانيا يمكن تتبع ثلاثة أدوار فيها:

- ١ - دور كانت الصناعة فيه ما زالت شبيهة بالحجرى الأوسط إذ أن الآلات المصقولة فيه كانت قليلة جدا وربما لم تصنع محليا بل استوردت من الخارج.
- ٢ - دور كثرت فيه الآلات المصقولة والفخار الملون. ٣ - دور بلغت فيه صناعة الصوان أوجها وبدأ فيه استعمال المعادن.

وفى سويسرا: يمكن تتبع ثلاثة أدوار فى صناعاتها البحرية: ١ - دور تظهر

فيه فؤوس يدوية صغيرة غير مصقولة مصنوعة من صخور محلية، كما تظهر فيه صناعة عظمية غير متقنة وأوانى فخارية غير متقنة أيضا وغير مصقولة. ٢ - دور تظهر فيه فؤوس يدوية كبيرة مصنوع بعضها من صخور مستوردة من الخارج، وتظهر الألوان البسيطة على الفخار ويتحسن صنعه. ٣ - الدور الأخير تظهر فيه الفؤوس التى على شكل المطرقة، وتصل الصناعة الحجرية والعظمية إلى أوجها وتختفى فيه الآلات المصنوعة من حجارة أجنبية ويزداد تلوين الفخار وتظهر مبادئ استعمال المعادن.

وفى إيطاليا لا تظهر الفؤوس المصقولة مطلقا ويحتمل أن تيارات حضارية

ترجع للعصر الحجري الحديث وصلت شمال إيطاليا من سويسرا وجبال جورا من ناحية، ثم من حوض الدانوب من ناحية ثانية.

وفي فرنسا وجنوب إنجلترا وبلجيكا : تظهر ثلاثة أدوار ، ١ — الدور الأول شبيه بالحضارة الكيميائية ولكنه يحمل بعض مظاهر الحضارة النيوليتية كالفأس المصقولة والسهم المصقول . ٢ — والدور الثاني تظهر فيه الفأس التي على شكل المطرقة وتصل فيه الصناعة الحجرية إلى أوجها . ٣ — الدور الثالث بدأ استعمال المعادن مع استمرار الحضارة السابقة .

وعلى العموم تعددت الآلات الحجرية والأواني الفخارية وأصبح لكل منطقة آلاتها وأوانيها الخاصة بها ولهذا لا يمكن تناول العصر الحجري الحديث بالدراسة على النحو الذي يتبع في دراسة العصر الحجري القديم بل لا بد من دراسة كل منطقة على حدة . وقد ظهرت في العصر الحجري الحديث أيضا الفؤوس والسهام والمكاشط ذات المقابض .

الحضارة الأنوليثية

يطلق بعض العلماء اسم الحضارة الأنوليثية على بقايا حضارة العصر الحجري الحديث التي توجد فيها بعض الآلات معدنية . ويظهر أن الآلات النحاسية وجدت أولا في وسط اسيا والعراق ومصر وسواحل البحر الأبيض ثم انتقلت إلى جزر البحر الأبيض ثم انتقلت إلى غرب أوروبا ووسطها وشمالها . وكذلك استعمال الذهب قديم وهو معاصر لاستعمال النحاس لأنه وجد في المقابر الأنوليثية .

على أن استعمال المعادن لم يحدث تغيرا فجائيا في حياة الإنسان لأن هذا الاستعمال حدث بالتدريج ولم يكن نتيجة غزوات بل نتيجة انتقال الحضارة بسبب اتصال الشعوب ببعضها . وكانت الأسلحة والآلات المعدنية في الحضارة الأنوليثية قليلة جداً وكانت تقليدا للآلات الحجرية المعروفة في العصر الحجري الحديث ، ثم لما نشطت حركة استخراج المعادن ووجد نظام المبادلة بين الشعوب كثر استخدام المعادن في صنع الآلات إلا أن هذا لم يقض على استعمال الحجارة . وعلى هذا يمكن القول أن ما يسمى الحضارة الأنوليثية ليس حضارة قائمة

بذاتها وإنما هي عصر انتقال بين العصر الحجري وعصر استعمال المعادن لأن استعمال النحاس في صنع الآلات لم يحدث أى تغيير في حياة الإنسان في أى جهة من جهات العالم

بداية استعمال المعادن

عصر البرنز :

البرنز هو خليط من النحاس والقصدير وهو يمتاز على النحاس بأنه أكثر صلابة بينما النحاس سهل الالتواء لا يصلح في صناعة الأسلحة والآلات . أما معدن النحاس فيوجد منتشر آ في شكل أكسيد وكربونات وغير ذلك من الخامات نتيجة لتفاعل عروق النحاس الظاهرة على سطح الأرض مع الهواء . أما القصدير فهو نادر الوجود ويوجد على شكل عروق بين الطبقات أو على شكل بللورات في الصخور البلورية . على أنه يوجد دائماً في شكل أكسيد فلم يبق أمام الإنسان إلا إذابة هذه الأكاسيد للحصول على المعدن المطلوب . ولما كان النحاس والذهب يوجدان في الطبيعة أكثر انتشاراً من القصدير فقد عرف الإنسان استخدامهما قبل القصدير . ويقول دي مورجان أن بدء استخدام المعادن (أى النحاس) عرف أولاً في شمال غرب آسيا ثم انتقل من هذا المكان إلى مصر وفينيقياً ثم إلى جزر شرق البحر الأبيض ، ثم من هذه الجزر إلى أوروبا . ولكن فيما يختص بمعرفة استخدام القصدير يقول بأن رواسته توجد بقلة في مراکش وغرب اسبانيا وفي الأوثرن Auvergne وبرتنى بفرنسا ثم في فنلندة ، ولذلك يصرف النظر عن هذه الأماكن كأول موطن لمعرفة استخدام القصدير . وكذلك الكاسيتريت وهو أكسيد القصدير يوجد في خراسان في فارس وفي أرمينيا . ولكن لا يرجح أن تكون هذه الأماكن موطناً أولاً لاستخدام القصدير ، وإنما يرجح — في رأيه — أن يكون استخدام القصدير لأول مرة عرف في المنطقة التي تشمل الملايو والهند الصينية والصين لأنها منطقة غنية بهذا المعدن إلا إذا ثبت فيما بعد أن عروق القصدير موجودة في الجبال الشمالية في غرب آسيا ، وأنها كانت تستغل قديماً .

أما النحاس الأصفر وهو الخليط بين النحاس والزنك فلم يستخدمه الإنسان قديماً رغم انتشار الكالامين (calamine) في أوروبا (وهو الزنك الخام) وذلك لأن الزنك يستغل إذا أذيب وهو معرض للهواء.

وكما اشتهد تنوع الآلات الحجرية المصقولة في العصر الحجري الحديث كذلك تنوعت الآلات المصنوعة من البرنز في الأقاليم المختلفة . وهنا نصل إلى المرحلة التاريخية فينتهي فجر التاريخ ويبدأ التاريخ في بعض جهات آسيا وفي مصر وشرق البحر الأبيض ، وتظهر الحضارة النوردية في الجزء الشمالي من غرب آسيا وفي كل أوروبا حيث تخصصت الشعوب المختلفة في أماكن أقامتها فأظهرت ميولها وأذواقها الخاصة ، ولكنها حافظت على المعالم الأساسية للحضارة البرنزية البردية ، فظهرت في أوقات مختلفة الحضارة القزوينية والقوقازية والروسية والمجرية ، وكذلك ظهرت حضارات في اسكندناوة وشمال ألمانيا وبلاد الغال وإسبانيا وشمال إيطاليا كما ظهرت في إقليم البحر الأبيض الحضارة المينوية والأيجية ، وكذلك انتشرت تأثيرات الحضارات المصرية إلى بعض هذه الجهات . وفي كل من شمال أوروبا وشمال آسيا تطورت الحضارة البرنزية محلياً ومرت في عدة أدوار مختلفة .

على أنه في أثناء التطور التاريخي في الشرق الأدنى [أي غرب آسيا ومصر وشرق البحر الأبيض] كانت أوروبا مازالت في فجر التاريخ ؛ فالعصر الحجري الحديث في أوروبا يوضع بين سنة ٣٠٠٠ وسنة ٢٠٠٠ ق . م . وعلى هذا يمكن القول أن العصر الحجري الحديث بدأ في أوروبا في الوقت الذي كانت فيه مصر قد قطعت مرحلة كبيرة من العصر التاريخي . أما عصر البرنز فيوضع في أوروبا بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . وهجرة النورديين (Indo - Germanians) توضع قبل عصر البرنز مباشرة . وقد بسط هؤلاء سلطانهم في شرق أوروبا وفي شمالها وفي غربها ، وكونوا الشعوب التي سنراها في بدء العصر التاريخي في أوروبا ، أما ما خلا ذلك من الشعوب فقد فنيّت . ومن وقت بدء التاريخ الأوروبي أي سنة ٥٠٠ ق . م حتى ميلاد المسيح لم يبق من شعوب أوروبا القديمة إلا بقايا قليلة . ثم أخذت

هذه البقايا في الانقراض ولم يبق في الوقت الحاضر إلا الباسك من الشعوب التي كانت موجودة في جنوب ووسط غرب أوروبا في فجر التاريخ .

عصر الحديد : في المدة من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ٥٠٠ ق.م توضع الفترة الأولى من عصر الحديد في أوروبا المعروف باسم Hallstatt Age (في النمسا) ومن سنة ٥٠٠ إلى ميلاد المسيح تقع الفترة الثانية من عصر الحديد أو فترة La Tène (في سويسرا) ويمتاز عصر الحديد على العموم بأن الآلات والأسلحة أصبحت تصنع منه بينما اقتصر استعمال البرنز على الحلى .

وفي سنة ٤٠٠ ق.م أغارت شعبة أخرى من الـ Indo-Germains وهم الكلتيون على وسط وغرب أوروبا وسيطروا على كل فرنسا وبلجيكا وسويسرا وإسبانيا وإنجلترا وإيرلندا وبلاد الطونة حتى البلقان بل وهاجموا إيطاليا واليونان ، بل وتوغلوا في الأناضول .

وتوضع التواريخ التقريبية الآتية للعصر الحجري الحديث وبداية عصر المعادن في أوروبا :

العصر الحجري الحديث	٢٠٠٠ — ٣٠٠٠	
عصر البرنز	١٠٠٠ — ٢٠٠٠	
هالشتات Halstatt	{ عصر الحديد }	٥٠٠ — ١٠٠٠
لاتين La Tène		٥٠٠ — الميلاذ

الفصل الرابع

سطح مصر من العصور الجيولوجية

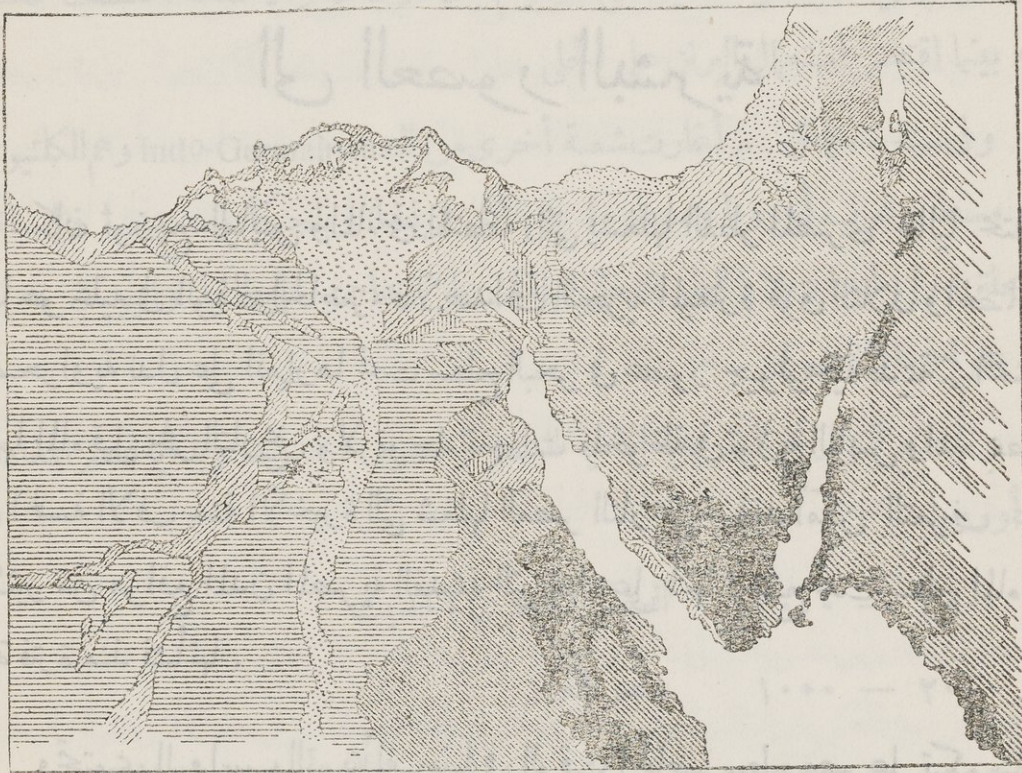
الى العصور البشرية

كان توزيع اليابس والماء في المنطقة التي يشغلها القطر المصري حاليا مختلفا عما هو عليه في الوقت الحاضر، فالأصداف البحرية المبعثرة فوق التلال والهضاب الصحراوية تدل على انغمارها تحت سطح البحر في عصور جيولوجية قديمة ثم انحسر عنها الماء قبل فجر التاريخ. ولا توجد تغيرات ملحوظة في توزيع اليابس والماء بمصر في الخمسة الاف سنة الأخيرة التي شغلها العصر التاريخي، فقد أمكن التعرف على كثير من مواقع المدن المصرية القديمة التي تدل على أنها لم تقع تحت سطح الماء في أية فترة منذ نشأتها.

وتحتوى الرواسب التي يتألف منها في الوقت الحاضر سطح مصر على تسكينات من كل الأزمنة الجيولوجية غير أن بعض عصور هذه الأزمنة غير ممثل بمصر فلا يوجد بها من رواسب الزمن الباليوزوى إلا العصر الفحمي، ومعنى هذا أن مصر كانت يابسا طوال هذا الزمن فيما عدا العصر الفحمي، كما يشمل بمصر من تسكينات الزمن الميزوزوى عصر الجوارسى والكريتاسى، ولكن لا يوجد بها الترياسى، وأما عصور الزمن الكاينوزوى الستة فمثلة جميعا في مصر. وسنتبع فيما يلى وباختصار حالة سطح مصر منذ أقدم العصور الجيولوجية حتى الوقت الحاضر (أنظر شكل ٢٨).

الزمنان الاركيوزوى والپروتير وزوى :

تدخل صخور هذين الزمنين فى تركيب السكتل الجبلية بالصحراء الشرقية وجنوب شبه جزيرة سيناء ، كما توجد فى مساحة كبيرة بجوار أسوان وفى الأجزاء الجنوبية من صحراء ليبيا . وتقدر المساحة التى تشغلها هذه الصخور بحوالى عشر مساحة مصر الحالية ، وهى صخور متبلورة فى الغالب ، كما أنها عبارة عن مركب



شكل (٢٨) خريطة تبين تكوينات سطح مصر فى اهم الازمنة والعصور الجيولوجية .
من الصخور التارية والمتحولة الحالية تماماً من الحفريات . على أن بعض الصخور
المتحولة الداخلة فى هذا المركب مثل النيس والشست كانت فى الأصل صخوراً
رسوبية تراكمت فى قيعان البحار ثم تغيرت حالتها تغيراً عظيماً لما تعرضت له خلال

مئات الملايين من السنين من ضغط والتواء وتداخل المواد النارية السائلة مما أفقدها طبيعتها الأولى وأقنى ما قد يكون بها من حفريات . ولهذا كان من الصعب أن نفرق في هذا المركب بين الصخور النارية الأصلية وبين الصخور التي كانت في الأصل رسوبية ثم تحولت ، وتبع هذا أن أصبح من العسير أن نكون — بناء على توزيع هذه الصخور — فكرة تقريبية عن حدود اليابس والماء وقت إرسابها .

العصر الكربوني :

توجد طبقات العصر الفحمي في مصر في ثلاثة أماكن هي :

- ١ — القسم الغربي من شبه جزيرة سيناء
 - ٢ — وادي عرابة في الصحراء الشرقية .
 - ٣ — جبل عوينات في صحراء ليبيا وفي الركن الجنوبي الغربي من القطر المصري .
- فاما الطبقات الكربونية في غرب سيناء فهي أظهر طبقات هذا العصر في مصر ، ويبلغ سمكها حوالى ٣٢٠ مترا ، وتنقسم الى المجموعات الآتية :

أ — مجموعة سفلى من الحجر الرملى سمكها ١٣٠ مترا تعلو مباشرة صخور الزمن البروتير وزوى البلورية .

ب — مجموعة وسطى من الحجر الجيرى سمكها ٤٠ مترا :

ج — مجموعة عليا من الحجر الرملى سمكها ١٥٠ مترا تحتوى على بقايا اشجار .

واما في وادي عرابة فتظهر الطبقات الكربونية مكشوفة في قاع وادي متسع عُرِى على طول محور ثنية مقعرة وتتتابع بنفس ترتيب طبقات سيناء .

واما في جبل عوينات فتوجد مجموعة عظيمة من الحجر الرملى تعلو الصخور البلورية . وتحتوى طبقات الحجر الرملى على بقايا نباتات من العصر الكربوني .

العصر ان البرمي والترياسى :

يظهر أن ارتفاع اليابس التدريجى الذى بدأ في أواخر العصر الكربوني — والذى يدل عليه وجود قطع من أشجار حفزية في الحجر الرملى الذى يرجع للكربوني الأعلى — استمر في العصر البرمي حتى أصبحت مصر في هذا العصر وفي العصر الترياسى الذى

تلاه أرضا جافة فيما عدا اجزاء صغيرة كانت تشغلها خلجان أو بحار مقفلة ضحلة
ارسبت فيها بعض الرمال المعراة من صخور العصر الكريونى .
العصر الجوراسى :

لا يعرف من بقايا هذا العصر بمصر الا مايو جد بجوار جبل مغارة بشمال
سيناء ، وما يوجد فى الركن الشمالى الشرقى لهضبة الجلالة الشمالية بالصحراء الشرقية ،
وتتكون هذه البقايا من طبقات من الاحجار الرملية والطينية والجيرية ، وهى فقيرة
فى الحفريات ، ولكن بها عروق حفرية تحتوى على بعض الاصداف البحرية ،
وتشبه الحفريات الموجودة فى الحجر الجيرى الجوراس المصرى الحفريات الموجودة
فى نفس التكوينات بجهات العالم الأخرى ، مما يدل على أن البحر المصرى الذى
ارسبت فيه كان متصلا بمحيط ذلك العصر ، وان المياه طغت على مصر من الشمال
حتى الجلالة البحرية على الأقل .

العصر الكريتاسى :

تكون طبقات العصر الكريتاسى حوالى اربعة اعشار سطح مصر ، وتحتوى
على طبقات سفلى من حجر رملى غير حفري سمكة لا يزيد على ٥٠٠ متر هو الحجر
الرملى النوبى ، ثم طبقات عليا فى نفس السمك من الحجر الجيرى والطينى تحتوى
على حفريات بحرية ويستمر امتداد الحجر الرملى النوبى الى خارج حدود مصر
فيمكن تتبعه الى اكثر من الف ميل غربا خلال ليبيا والى مثل هذه المسافة جنوبا
خلال السودان المصرى . والطبقات العليا من هذا العصر اكثر امتدادا نحو الشرق
والغرب فهى متصلة بدون انقطاع تقريبا من المحيط الأطلسى خلال شمال افريقيا
وبلاد العرب إلى الخليج الفارس ، ولكنها أقل امتدادا نحو الجنوب فلا توجد بمصر
جنوب خط عرض ٢٣° .

وإذا كانت طبقات الكريتاسى الظاهرة تكون أربعة أعشار سطح مصر فإنها
تمتد تحت خمسة أعشار أخرى من سطح هذا الإقليم . أما العشر الباقى الذى لا تشغله
طبقات كريتاسية فهى تلك الأماكن التى تظهر فيها الصخور الأقدم من الكريتاسى

على السطح . غير أنه توجد علامات كثيرة على التعرية في هذا العشر الباقي وبذلك يمكن القول أن البحر الكريتاس كان يشغل كل مصر ، كما كان يمتد فوق معظم شمال إفريقيا وبلاد العرب .

عصر الإيوسين :

تغطي الطبقات الأيوسينية حوالى خمس مساحة مصر وتشغل نسبة كبيرة من الهضبة الصحراوية العالية التى ترتفع مئات الأمتار فوق مستوى البحر على كلا جانبي النيل من القاهرة حتى قنا ، كما تشغل أيضاً مناطق مرتفعة كبيرة المساحة في شبه جزيرة سيناء . وتتكون هذه الطبقات من الأحجار الجيرية والطينية ويصل سمكها حوالى ٧٠٠ متر ، وتزدحم أجزاء كثيرة منها بالحفريات البحرية التى من أهمها النوموليتس Nummulites بل أن بعض أحجارها الجيرية مكون كله من هذه الحفريات .

وتغوص الطبقات الأيوسينية في الأجزاء الشمالية من الصحراء الليبية تحت طبقات العصور الأحدث ، ولا شك أنها تستمر تحت هذه الطبقات حتى حوض البحر المتوسط . وفي المنطقة المحصورة بين القاهرة والسويس يمتاز الحد الشمالى لظهور الطبقات الأيوسينية على السطح بالعيوب ، بينما في الأجزاء الشمالية من سيناء قطعت هذه الطبقات بالتعرية إلى كتل منفصلة . ولا شك أن هذه الطبقات السينائية تمتد أيضاً شمالاً إلى ما بعد الساحل الحالى للبحر المتوسط .

ويدل توزيع الطبقات الأيوسينية على أنه في بدء هذا العصر حدث إنخفاض عظيم لليابس فتوغل البحر جنوباً وغطس جزء كبير من مصر إلى أعماق عظيمة واستمر هذا الانغمار ملايين السنين بدليل السمك العظيم الذى بلغته الطبقات الأيوسينية الظاهرة للعيان .

عصر الأوليجوسين :

تغطي الرواسب الأوليجوسينية مساحات كبيرة من الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس كما تشغل شريطاً عريضاً ممتداً من القاهرة في اتجاه جنوبي غربى

لمسافة ٢٠٠ كيلو متر، وتقدر مساحة هذه الرواسب بحوالى ١٢٥ ٪ من مساحة مصر، وتتكون من حصباء ورمال وحجر رملى خالى من الحفريات عادة ولكنها تحتوى فى أماكن كثيرة على خشب متحجر كما أنها تحتوى فى القسم الشمالى من منخفض الفيوم على بقايا حيوانات برية ضخمة عديدة من بينها أجداد الفيلة الحالية. ورواسب هذا العصر من أصل نهري أو خليجى، وحفرياتها عبارة عن بقايا الأشجار والحيوانات التى كانت تعيش على البر ثم اكتسحت بقاياها نحو الشمال بواسطة الأنهار فى البحر. وتتكون الحصباء الأوليجوسينية - فى مظهرها - فى وادى النيل وما حوله من حصى صوانى مقاوم للتعرية الجوية، ولكنه بسبب تفككه قابل للنقل وإعادة التوزيع بفعل المجارى المائية التى تلت العصر الأوليجوسينى، ولذلك نجد الحصباء المتوية على خشب متحجر التى أرسبت فى الأصل فى العصر الأوليجوسينى منتشرة انتشاراً واسعاً فى أماكن بعيدة عن الأماكن الأصلية التى تكونت فيها.

ونستخلص من توزيع الرواسب الأوليجوسينية وحالاتها أن الجزء الأكبر من مصر كان أرضاً جافة فى هذا العصر وأن خط الساحل الشمالى كان يسير شمال الفيوم وإلى الجنوب من القاهرة بقليل. ومعنى هذا أنه بين الأيوسين والأوليجوسين حدث ارتفاع كبير فى أرض مصر صحب فى الجزء الشرقى بالالتواء، وبذلك وضع الأساس لتكوين منخفض البحر الأحمر والسلاسل الجبلية التى على جانبيه.

ويصعب تتبع مجارى الأنهار التى كانت موجودة فى عصر الأوليجوسين ولكن من المعروف أن نهراً كبيراً كان يسير فى اتجاه شمالى - إلى الغرب من مجرى النيل الحالى - ويصب فى البحر شمالاً فى الفيوم مباشرة. كما كانت هناك أنهار أخرى تنصرف إلى منخفض البحر الأحمر الذى كان بجزراً مقفلاً فى ذلك العصر. ولم يكن وادى النيل الحالى قد وجد فى ذلك العصر.

عصر الميوسين :

تمتد الصخور الميوسينية من القاهرة غرباً في شريط يتسع كلما تقدمنا خلال القسم الشمالى من صحراء ليبيا حتى برقة . وكذلك توجد الطبقات الميوسينية فى التلال الواقعة شرق القاهرة وفى القسم الجنوبى من برزخ السويس ، وفى نقط على جانبي خليج السويس ، وبالقرب من ساحل البحر الأحمر . وتتكون الطبقات الميوسينية فى الجزء الشمالى والغربى من مصر من احجار رملية وجيرية وطينية تحتوى على أصداف حفيرية خاصة تدل على أن نشأة هذه الطبقات بحرية فيما عدا مكان واحد بالصحراء الغربية (مغاره) حيث توجد بالطبقات الميوسينية السفلى بقايا حيوانات برية منقرضة، كدلت الحفر على ساحل خليج السويس على أن الطبقات الميوسينية تشتمل على عروق سميكة من الجبس والملح الصخرى التى لاشك فى أنها ارسبت فى ظروف خليجية ، ثم فى وادى غويبة على الجانب الغربى لخليج السويس بالقرب من رأسه نجد الطبقات الميوسينية العليا تحتوى على أصداف مياه عذبة .

ويستدل من توزيع الصخور الميوسينية على أنه فى الجزء الأول من هذا العصر حدث لليابس انخفاض عام فتقدم البحر نحو الجنوب وغطى على القسم الشمالى من مصر إلى ما بعد واحة سيوة ، كما توغل فى برزخ السويس إلى منخفض البحر الأحمر فملا وحول تلك البحيرة الأوليجوسينية إلى ذراع مقفل للبحر المتوسط ثم فى القسم الأخير من الميوسين يقف انخفاض الأرض وتتبعه حركة ارتفاع - كالتى حدثت فى الأوليجوسين - تصحبها التواءات وانكسارات فى الأجزاء الشرقية من مصر .

ووجد فى هذا العصر لأول مرة نهر النيل الحالى ، وكلما زاد ارتفاع الأرض وتقهقر البحر تقدم النهر ناحته واديه العظيم خلال صخور العصور السابقة وفى نفس الوقت نحتت روافده التى كانت تحمل إليه الرواسب من جبال البحر الأحمر وديانها العميقة وهى الوديان الجافة حالياً بالصحراء الشرقية . وقد زاد ارتفاع جبال البحر الأحمر بالتواء وأصبح برزخ السويس يابساً من جديد وأصبح خليج

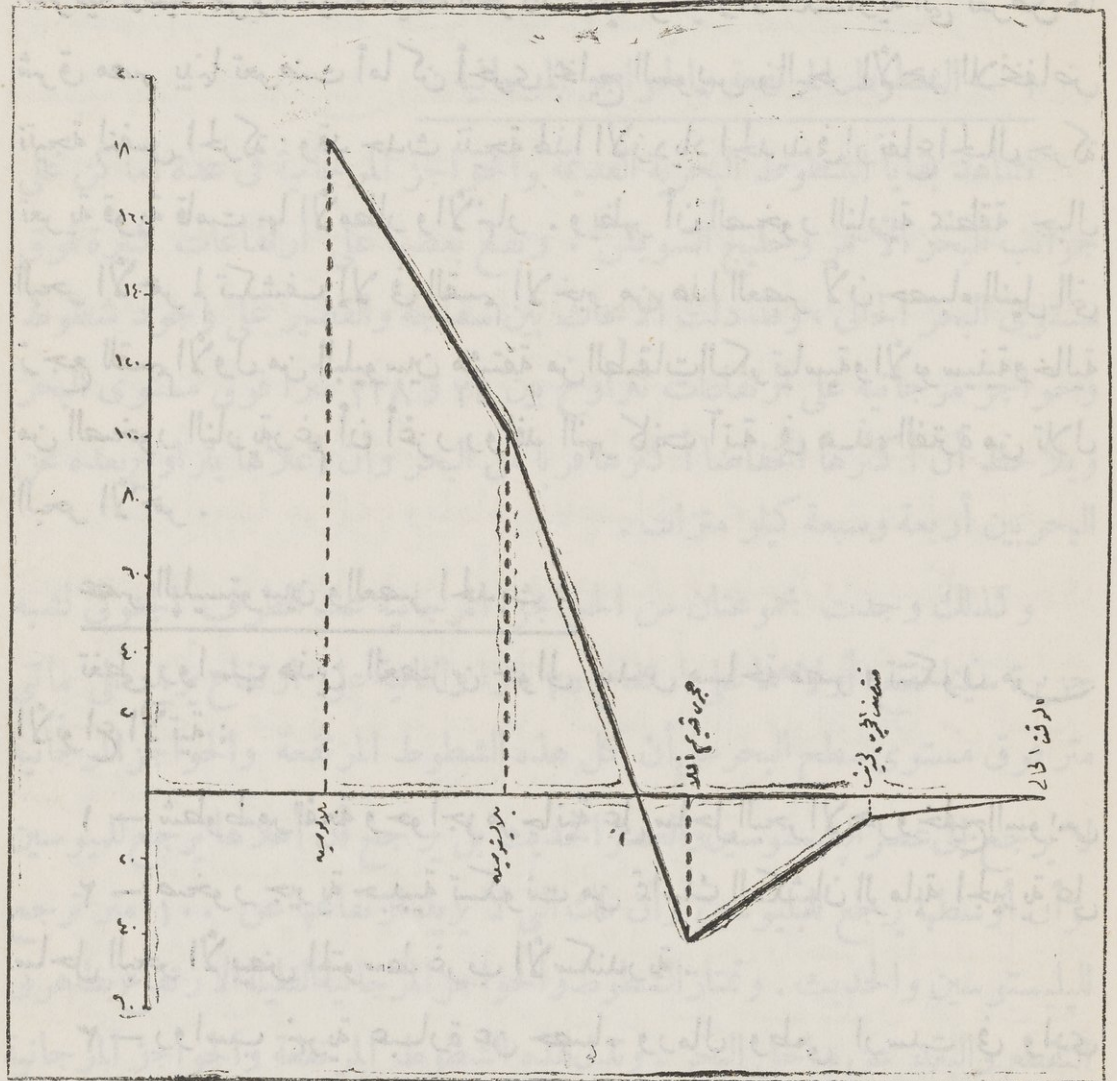
السويس مصب نهر يتلقى عدة روافد من الجبال الواقعة على كلا جانبيه ، ثم ينصرف جنوباً إلى البحر الأحمر ، وأما البحر الأحمر نفسه فقد انفصل نهائياً عن المحيط بانقطاع صلته بالبحر المتوسط .

عصر البليوسين :

توجد الصخور البليوسينية في وادى النطرون وحوله وفي أماكن أخرى قليلة في الأجزاء الشمالية من صحراء ليبيا ، ثم في وادى النيل وعند مصبات الوديان الرئيسية بالصحراء الشرقية وفي نقط على الساحل الغربى لخليج السويس والبحر الأحمر حتى رأس بناس . وتتكون الصخور البليوسينية في الجزء الأدنى من وادى النيل من بنى سويف شمالاً وعلى طول سواحل البحر الأحمر وخليج السويس من صخور جيرية ورمليه وطيلية تحتوى على مرجان وأصداف بحرية وقنأفد بحرية مما يدل على النشأة البحرية لهذه الصخور . غير أنه في أجزاء أخرى من مصر تتكون الرواسب البليوسينية في معظمها من رواسب نهريّة وخليجية . ففي وادى النطرون مثلاً تتكون هذه الرواسب من رمال وطين وجبس يحتوى على بقايا خرتيت وفيلة وزراف وغيرها من الحيوانات البرية ثم بقايا تماسيح وأسماك مما يدل على وجود مجرى مائى قديم كان يجرى غرب النيل الحالى ويصب في هذه المنطقة ثم في الجزء الأعلى من وادى النيل المصرى من بنى سويف جنوباً تتكون الرواسب البليوسينية من جمعات وحصباء ورمال حملت إلى وادى النهر بواسطة روافده القديمة التى كانت تنحدر إليه من تلال البحر الأحمر . وكذلك في الصحراء الليبية جنوب واحة سيوة وجد أن الرواسب البليوسينية عبارة عن حجر جيرى تكون في مياه عذبة .

ويستدل من توزيع الصخور البليوسينية وصفاتها وارتفاعها على أنه في أوائل هذا العصر بدأت حركة انخفاض كبيرة في اليابس جعلت المستوى البسبى البحر يرتفع حتى وصل في منتصف هذا العصر إلى ارتفاع ١٨٠ متراً فوق مستوى البحر المتوسط الحالى ، فأدى هذا إلى تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب حتى عرض

القاهرة ووادي النطرون ، وتوغلت مياه البحر المتوسط في نهر النيل وحولت جزءا طويلا من واديه إلى خليج بحرى . وقد اتصل البحر الأحمر في هذا العصر بالمحيط الهندي لأول مرة عن طريق باب المندب ومن الجائز أنه اتصل بالبحر الأبيض كذلك ، وبذلك أصبح الاتصال المائى موجوداً بين البحر المتوسط والمحيط الهندي عبر البحر الأحمر . (انظر شكل ٢٩)



شكل ٢٩ — خط يأتى يوضح مستوى البحر القديم بالنسبة لمستواه الحالى ثم فى أواخر هذا العصر وقف انخفاض اليابس وتلتته حركة ارتفاع صحبت فى الجزء الشرقى من الإقليم بالتواء شديد وانكسار . ولقد كان خليج النيل - قبل أن تبدأ حركة الارتفاع الأخيرة - قد ملئ معظمه بالحصباء والرمال التى جلبتها المجارى والسيول

المنحدره من الصحارى التى على جانبي النهر ، فلما ارتفعت الأرض وتراجع ساحل البحر وردم الخليج بالرواسب أخذ النيل ينحدر مجراه النهائى خلال هذه الرواسب المتراكمة فترك بذلك مراحل متعاقبة من مدرجات الحصباء تمثل مراحل نحت المتعاقبة كما تمثل أدوار مستوياته التى كان يجرى عليها والتى كانت آخذة فى الانخفاض تدريجيا كلما انخفض مستوى البحر . وفى نفس الوقت ازداد ارتفاع جبال الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء نتيجة للحركات الإلتوائية والانكسارية التى تعرض لها شرق مصر بينما تعرضت أماكن أخرى بخليج السويس والبحر الأحمر للانخفاض نتيجة لنفس الحركة . وقد حدث نتيجة لهذا الازدياد الجديد فى ارتفاع الجبال حركة تعرية قوية قامت بها الأمطار والأنهار . ويظهر أن الصخور النارية بمنطقة جبال البحر الأحمر لم تكشف إلا فى القسم الأخير من هذا العصر لأن حصباء النيل التى ترجع للقسم الأول من البليوسين مشتقة من الطبقات الكرتاسية والأيوسينية وخالية من الصخور النارية رغم أن أغزر روافد النهر كانت آتية فى هذه الفترة من تلال البحر الأحمر .

عصر البليستوسين والعصر الحديث :

تغطى رواسب هذين العصرين حوالى سدس مساحة مصر وتتكون من الأنواع الآتية :

- ١ — شطوط مرتفعة وحواجز مرجانية على ساحل البحر الأحمر وخليج السويس
- ٢ — صخور جيرية جبسية تكونت من تماسك الكشبان الرمالية الجيرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب الإسكندرية .
- ٣ — رواسب نهريّة عبارة عن حصباء ورمال وطمي ارسبت فى وادى النيل ودلتاه .

- ٤ — رواسب بحيرية وطمي نيلي بمنخفض الفيوم .
- ٥ — رواسب نهريّة عبارة عن حصباء ورمال بمجارى الوديان والمنخفضات بالصحارى والسهول الساحلية .

٦ — طوفا جيرية بواحي كركور والخارجة .

٧ — كشبان رملية ومجمعات هوائية أخرى بصحراء ليبيا والقسم الغربي من شبه جزيرة سيناء .

ولما كان الإنسان قد ظهر لأول مرة في عصر البليستوسين وارتبط تاريخه بهذه التكوينات فمنصف كلا منها على حدة :

١ — الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية :

تشاهد بقايا الشطوط البحرية القديمة والحواجز المرجانية في عدة أماكن على جوانب البحر الأحمر وخليج السويس ، ويقع بعضها على ارتفاعات كبيرة فوق مستوى البحر الحالي ، وقد دلت الابحاث بين سفاجة والقصير على وجود شطوط وحواجز مرجانية على ارتفاعات تتراوح بين ٢٤ و ٢٣٨ مترا فوق مستوى البحر ويلاحظ أن أكثرها انخفاضا وأكثرها قربا من البحر وأن أعلاها يتراوح بعده عن البحر بين أربعة وسبعة كيلو مترات .

وكذلك وجدت مجموعتان من الحواجز المرجانية عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء تقع أولاهما على ارتفاع ٢٥ مترا والثانية على ارتفاع يزيد على مائتي متر فوق مستوى سطح البحر على أن كل هذه الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية لا يرجع إلى عصر البليستوسين والعصر الحديث بل يرجع أن أعلاها يرجع للبليوسين وأن أوسطها يرجع للبليوسين وأن تلك التي لا يزيد ارتفاعها عن ١٠٠ متر ترجع للبليستوسين والحديث . وتمتاز الشطوط والحواجز المرجانية القليلة الارتفاع بظاهري التقطع والبعد عن ساحل البحر . وتدل هذه الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية في مجموعها على أنه منذ بدء البليستوسين حتى الوقت الحاضر تعرضت الأرض المطلة على البحر الأحمر وخليج السويس لحركة ارتفاع وصلت بمستواها إلى مائة متر فوق مستوى البحر الحالي أو أن البحر هو الذي انخفض بهذا القدر ، ويعزى لهذه الحركة انحسار الماء نهائيا عن برزخ السويس .

٢ - الحجر الجيري الحبيبي :

من أهم الظواهر التي تستلفت الانظار على ساحل البحر المتوسط غرب الاسكندرية وجود ثلاث حافات من الحجر الجيري يبلغ ارتفاعها ٢٠ مترا فاكثر تمتد موازية للشاطئ مسافات طويلة ، فأما الحافة الأولى فتتمدد بقرب الساحل وأما الثانية فتسير موازية للأولى وعلى بعد بضعة كيلومترات منها ، وأما الثالثة فتقع بين الحافة الثانية وبين حافة الهضبة الليبية . وتشغل المستنقعات الملحة والرواسب الطفلية بعض الأماكن المنخفضة المحصورة بين هذه الحافات . ويقل سمك الرواسب الجيرية عند قاعدة حافة الهضبة الليبية وترتكز في هذه الناحية على الصخور الجيرية الميوسينية التي تتكون منها الهضبة نفسها . وأما من ناحية البحر فإن قاعدة الرواسب الجيرية تقع تحت المستوى الحالي للبحر بحوالى ٤٣ مترا . ويستنتج من عدم وجود حالة طباقية حقيقية بهذه التكوينات ومن الانصقال الشديد لذراتها أن هذه الرواسب الجيرية نشأت من تماسك الكثبان الرملية الشاطئية القديمة ، فهي إذا رواسب أرضية هوائية ، وما دامت قاعدتها تقع تحت مستوى البحر الحالي بمقدار ٤٣ مترا ، فإن هذا يدل على أنه في بدء تكون هذه الرواسب كان مستوى البحر المتوسط تحت مستواه الحالي بمقدار ٤٣ مترا ، وهذا بدوره يجعل ساحله ابعد نحو الشمال بمقدار عشرة كيلومترات عن الساحل الحالي ويوافق هذا من العصور البشرية العصر الحجري القديم الأعلى (الحضارة السيلية) .

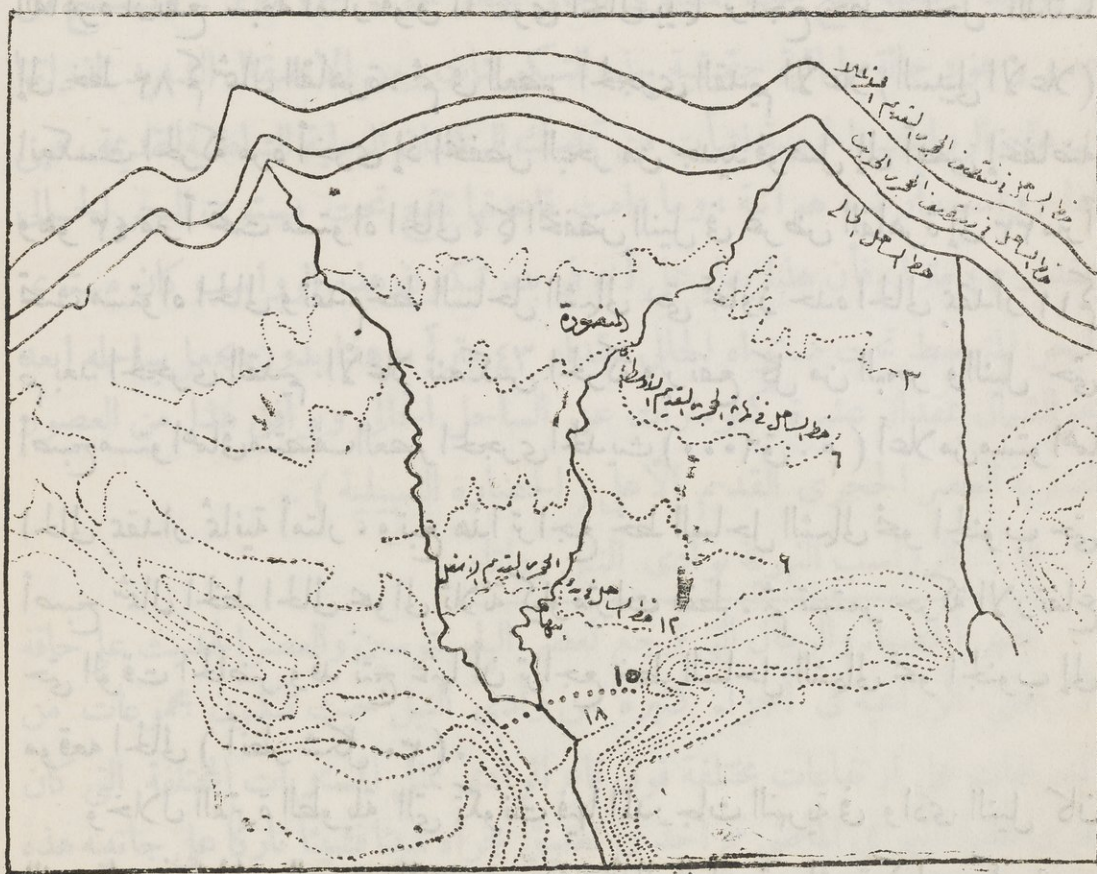
٣ - الرواسب النهرية بوادى النيل ودلتاه :

تظهر الحصباء والرمال التي ترجع لعصر البليستوسين والعصر الحديث على حافة الأراضى الزراعية فى أجزاء كثيرة من وادى النيل حيث تكون مجموعات من المدرجات على ارتفاعات مختلفة فوق قاع الوادى تمثل المستويات المختلفة التي كان يجري عليها النهر فى الماضى ثم أخذ فى تعميق مجراه شيئا فشيئا تاركا على جانبيه هذه المدرجات . ولما كان العامل الرئيسى الذى دفع النهر إلى تعميق مجراه هو انخفاض مستوى البحر بالنسبة للأرض فإن هذه المدرجات تدل فى الوقت نفسه على المستويات القديمة للبحر .

وتدل هذه المدرجات على أنه بعد نهاية البليوسين استمر مستوى البحر في الانخفاض ، واستمر النهر في نحت مجراه خلال الرواسب البليوسينية حتى قرب نهاية البليستوسين أى حتى بعد ظهور الإنسان على مسرح الحياة بمدة طويلة . وحوالى منتصف الحضارة الموستيرية (أى العصر الحجري القديم الأوسط وكان هذا فى أواخر البليستوسين) كان البحر المتوسط قد هبط إلى حوالى ١٢ متراً تحت مستواه الحالى ، كما هبط النيل — نتيجة للنحت — فى عرض القاهرة إلى حوالى ١٧ متراً تحت مستواه الحالى ووصل نمو الدلتا إلى خط تسعين كيلو متراً شمال القاهرة . ثم تنعكس الحركة ويأخذ البحر فى الارتفاع حتى إذا كانت نهاية الحضارة الموستيرية يكون قد ارتفع إلى مستوى ١٦ متراً فوق مستواه الحالى ، كما أن النهر فى عرض القاهرة ارتفع سبعة أمتار فوق المستوى الحالى بينما تراجع خط ساحل الدلتا إلى خط ٨٢ كم شمال القاهرة . ثم فى العصر الحجري القديم الأعلى (السيليل الأعلى) انعكست الحركة مره أخرى إذ انخفض البحر من جديد فوصل إلى أقصى انخفاضه وهو ٤٣ متراً تحت مستواه الحالى ، كما انخفض النيل فى عرض القاهرة إلى ٣٣ متراً تحت مستواه الحالى وتقدم خط الساحل الشمالى حتى تجاوز حده الحالى بمقدار ١١ كم ثم بعد الحجري القديم الأعلى تنعكس الحركة ويرتفع كل من البحر والنيل حتى أصبح مستواهما فى منتصف العصر الحجري الحديث (٦٠٠٠ ق . م) أعلا من مستواهما الحالى بمقدار ثمانية أمتار ، وتبع هذا تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب حتى أصبح شمال الخط الحالى بحوالى ثلاثة كيلومترات فقط . ثم تستمر حركة الارتفاع حتى الوقت الحاضر وقد نتج عنها أن تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب إلى موقعه الحالى (أنظر شكل ٣٠) .

وخلال الفترة الطويلة التى تكونت فيها المدرجات النهرية فى وادى النيل كان النهر يلقى فى الخليج البحرى الذى يصب فيه شمال القاهرة مباشرة كميات كبيرة من الحصباء والرمال انتشرت فى الخليج على شكل دلتا . وأما الطين الذى يغطى فى الوقت الحالى سطح وادى النيل ومعظم دلتاه ، والذي يكون أرض مصر الصالحة للزراعة

فقد أرسب كله بواسطة مياه الفيضان خلال العصر الجيولوجي الحديث وأصبح هذا الطمي يغطي الرواسب القديمة السابقة المرافقة من الحصباء والرمال إلا في أجزاء قليلة جداً تبرز فيها الرواسب القديمة على شكل جزر وسط السهل الفيضي، ويبلغ سمك طمي النيل نفسه - أي الطبقة العليا من الرواسب - حوالى عشرة أمتار وهو مركب من مادة معدنية دقيقة التقسيم مع خليط قليل نسبياً من الرمل وقد أرسبت هذه الطبقة العليا خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة وما زال إرسابها مستمرا. وتوجد تحت هذه الطبقة العليا المكونة من طمي النيل النقي طبقة أخرى سميكة مكونة من الرمل والطين أرسبها النهر في فترة الانتقال من الحجري القديم إلى الحجري الحديث.



شكل ٣٠ - مراحل نمو الدلتا وتراجع الساحل

ويوجد في جنوب مصر بين وادى حلفا ونجع حمادى رواسب سميكة علا جانبى النيل تتكون من طمي خشن يرجع للقسم الأول من الحجري القديم الأعلى

(السيليل الأسفل) ، وتدرج هذه الرواسب من إرتفاع ٣٠ متراً فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند وادى حلفا إلى ستة أمتار فوق مستوى هذا السهل عند الأقصر ، ثم تصبح فى مستوى السهل عند نجح حمادى . وهذا الطمى الخشن - الذى لا يقتصر وجوده على وادى النيل بل يمتد مسافات بعيدة فى الصحراء - لا يمكن تمييزه فى معظم الأحيان عن طمى النيل الحالى ، ولكن ثبتت عراقه قدمه من العلاقات الطباقية والآلات الحجرية التى يضمها . وتسد هذه الرواسب افهام وديان الصحراء الشرقية فى مصر العليا بما يدل على أن الظروف الصحراوية بدأت فى القسم الجنوبى من مصر فى نهاية الحجرى القديم الأوسط .

٤ - الرواسب البحرية وطمى النيل بمنخفض الفيوم :

تنطى الحصباء والرمال ذات الأصداف العذبة التى ترجع لأواخر الپليستوسين والعصر الحديث مساحات كبيرة من الجهات المحيطة بمنخفض الفيوم حيث تكون عدة مدرجات على إرتفاعات مختلفة يصل أعلاها إلى ٤٤ متراً فوق مستوى سطح البحر . وهذه المدرجات عبارة عن شواطئ قديمة لبحيرة داخلية عذبة كانت تستمد ماءها من النيل ولم يكن سطحها على مستوى واحد فى العصور المختلفة . وتدل دراسة هذه المدرجات على أن منخفض الفيوم تم تكوينه ووصل أقصى عمقه قبل أن يتصل بنهر النيل ، ثم تدفقت مياه النيل إلى هذا المنخفض فى القسم الأخير من الحجرى القديم الأسفل فملأته وكونت بحيرة على مستوى ٤٠ متراً فوق مستوى البحر الحالى أى أقل بمتراً أو مترين من مستوى النيل فى ذلك الوقت فى عرض الفيوم . ومعنى هذا أن البحيرة شغلت المنخفض كله وكانت مساحتها تساوى مساحة بركة قارون الحالية أربع عشرة مرة ، كما كان حجمها يساوى حجم هذه البركة بأكثر من مائة مرة . ولكن حدث فيما بعد - بين الحجرى القديم الأسفل والحجرى الحديث - أن تعرض مستوى البحيرة ، وتبعاً لذلك مساحتها وحجمها ، إلى سلسلة من الذبذبات نتيجة لتغيرات مستوى النيل الذى كان على اتصال تام بها . وقد انتهى الأمر بانفصال البحيرة عن النيل .

وإذا انتقلنا إلى العصور التاريخية نجد هيرودوت يخبرنا بأن أحد ملوك الأسرة ١٢ أعاد الاتصال بين النيل والبحيرة فارتفع مستوى البحيرة حوالى ٢٠ مترافوق مستوى البحر الحالى واستمر مستواها على هذا الارتفاع وهذا الاتصال بالنيل مدة ألف عام من عهد هذا الملك . ثم تدل أقوال المؤرخين على أنه فى عهد بطليموس الثانى لم يكن هناك إتصال بين النيل والبحيرة إذ انخفض مستواها إلى ما دون مستوى البحر الحالى وربما كان ذلك نتيجة للتحكم فى مياه النهر ومنع انسيابها إلى البحيرة ، وكان انخفاض مستواها ضئيلا فى عهد البطالسة ، ثم استمر فى النزول إلى أن أصبح فى الوقت الحالى ٤٥ مترأ تحت البحر .

وتغطى سطح منخفض الفيوم طبقة من الطمي لا تختلف فى نوعها ولا فى عمرها عن طمي وادى النيل ودلتاه . وتدل خطوط الارتفاعات المتساوية على أن طبقتي الحصباء والرمل اللتين ترجعان للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسط ثم طبقتي الرمل والطين اللتين ترجعان إلى ما بعد هذين العصرين أرسبت فى معظمها فى شكل دلتا بحيرية انتشرت على شكل مروحة ابتداء من النقطة التى دخلت منها مياه النيل إلى المنخفض .

٥ - الرواسب الطميية فى الوديان الجافة والمنخفضات بالصحراء والسهول الساحلية

تتكون قيعان الوديان الجافة المنصرفه من الصحراء الشرقية إلى النيل من مادة طميية منحوتة من جبال البحر الأحمر . وهذه المادة الطميية عبارة عن كتل وجلاميد بالقرب من رموس الوديان ولكن كلها اتجهنا نحو مجراها الأدنى تتحول هذه الكتل إلى حصباء ورمل حتى إذا وصلنا إلى مجراها الأدنى نجد الطبقة السطحية من قيعان الوديان عبارة عن رمل ناعم وطمى خشن وهى طبقة رقيقة لا تلبث أن تتحول على عمق قليل إلى مترامكات سميكه من الحصباء والجلاميد ، ونجد أفهام كثير من هذه الوديان مسدودة برواسب الطمي الخشن الذى يرجع إلى العصر الحجري القديم

الأعلا . وتوجد بهذه الوديان - ولا سيما أكثرها اتساعا - مدرجات شبيهة بتلك التي توجد على جانبي وادي النيل . وقد سجلت في وادي قنا المستويات ٣٤ و ١٥ و ٣٩ متراً فوق قاع الوادي ودلت آلاتها الحجرية على أنها ترجع للحضارة الشيلية ثم للحضارة الموستيرية ومعنى هذا أنها تشبه في مستوياتها ونوع آلاتها مدرجات وادي النيل ، وهذا دليل على أن وادي قنا كان متصلاً بوادي النيل في ذلك الوقت وعلى أن أمطار الصحراء الشرقية في هذه الفترة كانت من الغزارة بحيث تمسكن وادي قنا من الجريان حتى يصب في نهر النيل . ثم ساد بعد ذلك عصر الجفاف وانقطع وادي قنا عن الجريان المنتظم ، وسدت الرواسب مصبه ولم يعد يستطيع الاتصال بنهر النيل . وبالعكس الحال في الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء نجد أن الصحراء الغربية لا تخترقها إلا وديان قليلة تنصرف شرقاً نحو نهر النيل أو شمالاً نحو البحر الأبيض المتوسط ، وبعضها ينصرف إلى قلب الصحراء نحو المنخفضات المبعثرة فيها . على أن هذه الوديان كلها كانت من الضعف والقصر بحيث لم تستطع الوصول إلى نهر النيل أو البحر الأبيض المتوسط .

وكذلك توجد أشرطة طويلة من الأرض تحف بالبحر الأبيض المتوسط شرق دلتا النيل وغربها يغطيها الطفل ، وهي الأرض التي يزرعها البدو في الوقت الحاضر وقد تكونت هذه الأشرطة من الرواسب التي جلبتها المجاري المائية المنحدرة من الصخور الميوسينية الرملية والجيرية والطينية ونثرتها في هذه الجهات . وما زال تراكم الطفل مستمر نتيجة لسقوط المطر الغزير بين حين وآخر فتسيل الأودية من التلال نحو السهول الساحلية حيث تنثر حمولتها من هذه الرواسب الطينية الخشنة .

٦ - الطوفا الجيرية في الواحة الخارجة وواحة كركور :

سفح الحافة الشرقية لمنخفض الواحة الخارجة مغطى في عدة أماكن برواسب سطحية من الطوفا الجيرية التي يدل وقوعها فوق الصخور الأقدم المكونة للحافة

نفسها على أنها أرسبت بعد تجوف منخفض الواحة ووصوله إلى العمق الحالى .

وهذه الطوفا نوعان يرجع كل منهما إلى عصر مختلف :

النوع الأول : وهو الأقدم مرتكز على صخور الحافة نفسها التي ترجع للزمن

الثالث وهو عبارة عن تكوينات سميكة تتحول إلى لون أزرق غامق على السطح ، ويظهر أن أرساب هذه الطوفا سابق في الزمن للعصر الحجري القديم الأسفل .

النوع الثانى وهو الأحدث مرتكز على مجتمعات وحصباء مجروقة من الحافة وهى

ذات تركيب مسامى تتحول إلى لون أسود باهت على السطح وتحتوى على أوراق وفروع أشجار وعلى أصداف مياه عذبة . ويرجع تكوينها للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسط .

ويظهر أن كلا النوعين من الطوفا أرسبا في مياه عذبة ، ولهذا تدل هذه الطوفا والبقايا النباتية المحتوية عليها على أن المناخ أثناء أرسابها كان أكثر رطوبة من الوقت الحاضر ، واسكن يدل قلة امتدادها على أن المطر المحلى لم يكن غزيرا .

وتوجد في منخفض واحة كركور وحولها — وهو منخفض أصغر مساحة وأقل عمقا من منخفض الواحة الخارجة — رواسب طوفا مسامية شبيهة بطوفا الواحة الخارجة وربما ترجع لنفس العصر .

٧ — الكشبان الرملية والتكوينات الهوائية الأخرى :

تغطى الكشبان الرملية مساحات كبيرة من سطح الصحراء الليبية والقسم الشمالى من شبة جزيرة سيناء ، وتتخذ من الأجزاء الشمالية والوسطى من الصحراء الليبية شكل خطوط طويلة من المجمعات الرملية يصل ارتفاعها في بعض الأحيان بين ٣٠ و ٤٠ متراً ، ويتبع إتجاهها إتجاه الرياح السائدة وتمتد مسافات طويلة تبلغ أحيانا مئات الكيلو مترات دون أن تتخلله ثغرة واحدة . أما في الأجزاء الجنوبية من الصحراء الليبية فتكون هذه المتراكبات الرملية المنقولة سهولا يغلب عليها الإستواء

وتتموج تموجاً قليلاً في بعض الأماكن . وكذلك تشغل هذه الكشبان في شمال
سيناء مساحات واسعة تحف بساحل البحر الأبيض المتوسط وتبلغ ارتفاع الكشبان
الليبية ولكنها أقل منها ترتيباً وتماسكاً ، فالكشبان السيناوية تحتوى غالباً على
تجاويف تشغلها الآبار وغابات النخيل . وقد تكونت هذه الكشبان - سواء ما كان
منها في الصحراء الليبية أو في شبه جزيرة سيناء - في البليستوسين والعصر
الجولوجي الحديث .

مدى ارتباط المدرجات النهرية بالتغيرات المناخية وتذبذب مستوى سطح البحر

ظل العصر المطير سائداً في شمال شرق أفريقية من البليوسين حتى العصر
الحجري القديم الأعلى ولا سيما في وادي النيل الأدنى حيث استمر المطر يسقط
بانتظام إلى قبيل العصر الحجري الحديث . ويمكن أن نرجع تتابع المدرجات في
وادي النيل إلى عامل رئيسي هو التغير في مستوى سطح البحر كما يمكن الربط بين
هذه المدرجات وبين شطوط البحر الأبيض المتوسط التي أشرنا إليها في الفصل
الأول على النحو الآتي :

أولاً : المدرج : ٩٨ - ٨٠ متراً (٣٢٠ - ٢٦٥ قدماً) يقابل مدرج الجزائر
٣٥٥ - ٣٠٥ قدماً الذي يعين مرحلة البحر الأبيض العامة المعروفة باسم المرحلة
الصقلية (١٠٠ - ٩٠ متراً) وتعتبر هذه المرحلة أقدم مرحلة في البليستوسين ومعنى
هذا أن مدرج النيل المعاصر لها يعين بدء البليستوسين . وتدل الحالة بالذات في هذه
المرحلة على انخفاض مستمر في مستوى البحر أدى إلى تكوين المدرجات مع
وجود وقفات تشبه تلك المعروفة في البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة .

ثانياً : المدرج : ٣٠ متراً (١٠٠ قدم) ولهذا المدرج أهمية خاصة لاحتوائه على
آلات من العصر الحجري القديم الأسفل (شيلية وأشولية) وهو يعاصر المرحلة
التيرائية من مراحل البحر المتوسط العامة (٣٥ - ٣٠ متراً أو ١١٥ - ١٠٠ قدم)
ثالثاً : المدرج : ١٥ متراً (٥٠ قدماً) وحضارته أشولية وهو يقابل المستوى

الأساس من المرحلة الموناستيرية monastirian (٢٠-١٨ متر أو ٦٥-٦٠ قدماً)
رابعاً : المدرج ٩ متر (٣٠ قدماً) ويقابل المستوى الأخير من المرحلة الموناستيرية
(٨-٦ متر أو ٢٥-٢٠ قدماً) ويتطلب هذا أن نفرض أنه بين مرحلة الخمسة
عشر متراً ومرحلة التسعة أمتار انخفاض البحر عند مصب النيل تحت مستواه الحال
أو أن النهر هو الذى ارتفع بسبب حركة أرضية ، ويتفق هذا مع ما هو معروف
عن المراحل العامة بالبحر الأبيض المتوسط . ويعاصر هذا المدرج حضارة العصر
الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى أو الليثالوازى) .

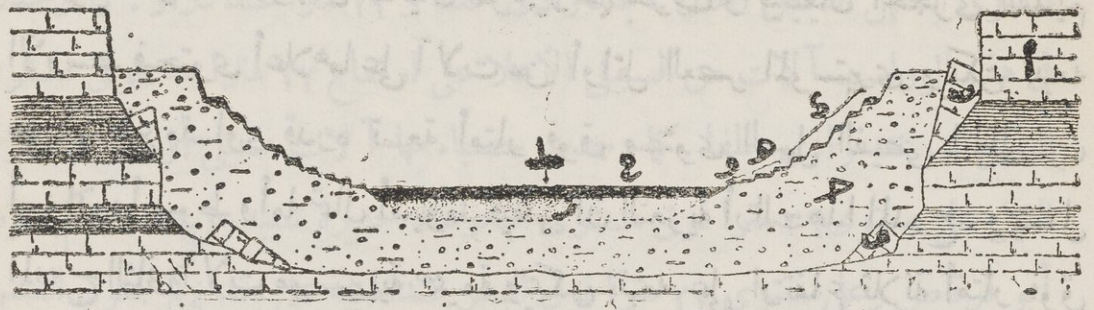
ولا بد أن ندخل فى حسابنا عاملاً آخر أثر فى تكوين المدرجات وهو التغير
المناخى وما يتبعه من تغير فى النظام المائى للنيل وما يتبع ذلك من تفاوت فى كمية
المياه ونوع المواد التى يحملها النهر . فالمدرجات مكونة من مادة محلية جرفها إلى
الوادى المطر المحلى ولا سيما مطر الصحراء الشرقية . وعلى هذا كان من الضرورى
إدخال التغيرات المناخية فى حسابنا عند تفسير نشأة هذه المدرجات . وكانت التعرية
تنشط فى تلال البحر الأحمر خلال الدور المطير وبذلك تزداد كمية المواد التى تحملها
مجارى الصحراء الشرقية إلى النيل فإذا ما صادفت تلك المواد ظروفًا ملائمة مثل
ارتفاع مستوى البحر فأن هذا يساعد النهر على الاحتفاظ بهذه المواد ونشرها على
جانبيه على هيئة مدرجات . وأما فى الدور غير المطير فأن مجارى الوديان
تصبح محدودة وتبعاً لذلك يصبح مجرى النيل نفسه محدوداً وتكون وظيفته فى
هذا الدور النحت وليس الأرساب . ولو فرض وارتفع مستوى البحر خلال فترة
غير مطيرة فإن هذا لا يؤدى وحده إلى تكون مدرج لأن المادة غير موجودة .

ومعنى هذا أن تكوين المدرجات يرجع إلى اشتباك عوامل ثلاثة :

١ - التغيرات فى مستوى سطح البحر ٢ - التغيرات المناخية .

٣ - التغيرات فى نظام النيل المائى وما يتبع ذلك من تفاوت فى كمية المياه
ونوع المواد التى يحملها النهر .

وتوجد بقايا المدرجات النهرية على طول جانبي النيل وهي عبارة عن حصباء وقد كون النهر هذه المدرجات في مراحل متعاقبة من الانخفاض حينما كان يعمق مجراه بالتدريج منذ أواخر البليوسين ويوضح ذلك (شكل رقم ٣١) ففي هذا الشكل نجد المدرجات الخمسة العليا المرموز لها بحرف د تقع على ارتفاعات ١٤٠



شكل (٣١) قطاع في وادي النيل يوضح تعاقب المدرجات .

- (أ) أحجار جيرية وطينية من عصرى الكريتاسى والايوسين وقد حفر النهر واديه الصخرى خلاها في عصر الميوسين .
- (ب) كقل من الصخور الجيرية منزقة وساقطة على جنبي وادي النهر الصخرى .
- (ج) تكوينات من المجمعات والحصباء والرمال ملأت فجوات الصخور السابقة .
- (د) مدرجات نهرية من أواخر البليوسين وأوائل البليستوسين .
- (هـ) مدرجات نهرية من العصر الحجري القديم الاسفل تضم آلات شيلية وأشولية .
- (و) مدرجات نهرية من العصر الحجري القديم الأوسط تضم آلات موسيرية .
- (ز) طبقة سفلى من الطمي والرمال والحصباء ترجع للعصر الحجري القديم الأعلى (العصر السيليل)
- (ح) طمي النيل الحديث وهو الذى يكون الاراض الزراعية والسهل الفيضى الحالى .
- (ط) مجرى النيل الحالى .

و ١١٥ و ٩٠ و ٦٠ و ٤٥ مترأ على الترتيب فوق مستوى السهل الفيضى الحالى . وهذه المدرجات لا تحتوى على أية مواد من مخلفات إنسان فجر التاريخ ويظن أن النهر كونها في أواخر البليوسين أو أوائل البليستوسين ويمكن القول على التحديد أن المدرجين العلويين منها اللذين يقعان في القسم الشمالى من الوادى يرجعان لأواخر البليوسين وأن الثلاثة الأخرى ترجع لأوائل البليستوسين ويمكن تتبعها على مسافات متباعدة على طول الوادى بين وادى حلفا والقاهرة .

وأما المدرجان التاليان المرموز لهما بحرف هـ فيوجدان على ارتفاع ٣٠ و ١٥ متراً فوق مستوى السهل الفيضى الحالى ويمكن أيضاً تتبعهما على مسافات متباعدة بين وادى حلفا والقاهرة ، وهما يتبعان العصر الحجري القديم الأسفل فيحتوى مدرج الثلاثين متراً على الآلات الشيلية ومدرج الخمسة عشر متراً على الآلات الأشولية . وأما المدرجان التاليان المرموز لهما بحرف و فيتبعان الحجري القديم الأوسط فيحتوى أعلاهما على آلات من أوائل العصر الموستيرى ويمكن تتبعه على ارتفاع متساوى قدره تسعة أمتار فوق مستوى السهل الفيضى الحالى بين أسوان وأسيوط وأما شمال أسيوط فيظهر أن النعيرية أرالت هذا المدرج . ويشمل المدرج الثانى آلات موستيرية صميمة ويمكن تتبعه على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق مستوى السهل الفيضى الحالى بين أسوان والأقصر وأما شمال ذلك فيظهر أنه ينزل تحت مستوى السهل الفيضى الحالى ويختفى تحته . على أنه توجد بين نجع حمادى والقاهرة حصباء موستيرية على ارتفاعات تتراوح بين ٣ و ٨ متراً فوق مستوى السهل الحالى وتدل آلائها على أنها ترجع لأواخر الموستيرى أى أنها أحدث من آلات مدرج ٣ متر الموجود فى جنوبها . ويستدل من ذلك على أنه خلال أواسط الموستيرى خفض النيل سهله الفيضى إلى المستوى الذى يكون فيه النهر فى الوقت الحالى عند الأقصر أثناء التحاريق وأقل من المستوى الذى يكون فيه النهر فى الوقت الحالى عند القاهرة أثناء التحاريق ثم فى أواخر الموستيرى رفع النيل سهله الفيضى إلى حوالى ٤ متر فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند الأقصر وحوالى ٨ متر فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند القاهرة .

وفى المنطقة بين وادى حلفا ونجع حمادى نجد مدرجات الحجري القديم الأوسط — فى معظمها — مدفونة تحت رواسب الطمي الخشن silt السميكه التابعة للعصر الحجري القديم الأعلا (السيل الأسفل) التى ترتفع إلى حوالى ٣٠ متراً فوق مستوى السهل الفيض الحالى عند وادى حلفا ثم يتناقص ارتفاعها تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً حتى تصبح ستة أمتار فقط عند الأقصر وتصبح فى مستوى

السهل عند نبع حمادى . ولقد اخترق النهر وروافده بعد ذلك هذا الطمى الفشن التابع للسبيل الأسفل الذى لا يقتصر وجوده على وادى النيل بل يمتد مسافات بعيدة فى الصحراء عند وادى حلفا وأبو سمبل وفى سهل كوم امبو ولقد تكونت نتيجة لذلك مدرجات تضم آلات من السبيل الأوسط على ارتفاع ٢١ مترا - فوق مستوى السهل الفيض الحالى - عند وادى حلفا و ١٢ مترا عند دراو . كما وجدت فى هذه الرواسب آلات من السبيل الأعلى على ارتفاع ١٢ مترا - فوق مستوى السهل - عند وادى حلفا . كما وجدت حصباء بها آلات سبيل أوسط فى مجرى النيل على مستوى ٣٩ مترا فوق مستوى البحر عند جزيرة شبيهة على بعد ١٦ كم جنوب أبو قرقاص وعلى مستوى ٢٧ مترا فوق البحر عند الهبية على بعد ٤ كم جنوب الفشن . ولا ترى الرواسب السبيلية فى وادى النيل شمال الفشن لأنها دفنت تحت الطمى الحديث ، ولكن وجدت رواسب من الحصباء وطمى النيل بها آلات سبيل أسفل على جانبي ترعة الهوارة - المؤدية من وادى النيل إلى الفيوم - على مستويات تدل على أنه فى العصر السبيل الأسفل كان سهل النيل الفيض بجوار بنى سويف أكثر ارتفاعا منه فى الوقت الحالى بمقدار ثلاثة أمتار . ولما كانت رواسب السبيل الأعلى لم توجد فى أى مكان بوادى النيل شمال إسوان فقد يدل هذا على أنه فى هذا العصر السبيل الأعلى كان سهل النهر الفيض فى القسم الشمالى من مصر يقع على مستوى أقل من مستواة الحالى بكثير .

ولم تكتشف بوادى النيل فى مصر آلات من فترة الانتقال بين الحجرى القديم الأعلى والحجرى الحديث ولا من الحجرى الحديث نفسه وهذا يدل على أن النيل فى هاتين الفترتين كان يجرى على مستويات أقل من مستوياته الحالية وأن مخلفات الإنسان الذى كان يعيش فى الوادى فى هاتين الفترتين قد دفنت تحت الطمى الحديث ولا يمكن الحصول على مخلفات هذا الإنسان إلا فى الشريط الفاصل بين الصحراء الصميمة وبين الوادى الخصيب حيث لم يستطع طمى النيل الحديث أن يغطيه .

وأما عن الصلة بين مصر من ناحية ، وبين أوروبا وآسيا من ناحية أخرى في فترة ظهور الإنسان البدائي فيمكن أن نلخصها فيما يلي :

كان هناك ارتفاع تدريجي في اليابس منذ أواخر الپليوسين حتى منتصف الحضارة الموستيرية في مصر وقد نتج عن هذا انخفاض نسبي في مستوى البحر من + ١٢٩ متراً إلى + ١٨ متراً . وقد أخذ البحر في هذه الفترة ينحسر عن برزخ السويس وقد تم هذا الانحسار نهائياً حينما كان البحر على مستوى + ٤٦ وقد كان هذا قبيل سكنى الإنسان الشيل ل وادى النيل . ولما وصل البحر إلى مستوى + ١٨ (وكان هذا في منتصف الحضارة الموستيرية المصرية) أصبحت الممرات بين تونس وصقلية وبين صقلية ومالطة وبين صقلية وإيطاليا عبارة عن أراضي يابسة تصل بين افريقية وأوروبا فانقطعت كل صلة بين الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين الحوض الغربى وتحول الحوض الشرقى إلى بحيرة مالحة أخذ مستواها في الانخفاض نتيجة للبحر حتى وصل إلى - ١٢ مما أدى إلى سرعة جريان الأنهار نحوها . ولكن هذا العامل الأخير بدوره - وهو سرعة جريان الأنهار نحوها - ألقى في البحيرة بكميات كبيرة من الماء عوضت ما فقدته بسبب البحر فارتفع مستوى البحيرة من جديد حتى وصل إلى + ١٦ فانغمرت المعابر الأرضية السابقة بالماء فيما عدا الذى بين مالطة وصقلية . وفي أواخر الحضارة الموستيرية أخذ اليابس في الارتفاع قليلاً ولذلك نجد أن الاتصال بين الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين الحوض الغربى لا يدوم ويتحول الحوض الشرقى إلى بحيرة مالحة مرة أخرى بسبب بروز المعابر الأرضية السابقة . ونتيجة للبحر المستمر في البحيرة ينخفض مستواها إلى - ٤٣ متراً ثم أن هذا الانخفاض بدوره أيضاً يؤدي إلى زيادة انحدار المياه إلى البحيرة وتعويض ما فقدته من البحر وبذلك يرتفع مستواها ويعود الاتصال بينها وبين الحوض الغربى وتتلاشى المعابر الأرضية السابقة جميعاً وتصبح صقلية ومالطة جزيرتين منفصلتين . وتعاصر هذه

الحوادث الفترة الفاصلة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث .
وليس من السهل أن تثبت أن مضيق جبل طارق كان في فترة ظهور الإنسان
برزخاً يصل بين شمال أفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا ، وذلك لأن هذا المضيق أعمق
نسبياً من المضائق الفاصلة بين تونس وصقلية ومالطة وشبه جزيرة إيطاليا . وبالفعل
يرى بعض الجيولوجيين أن جبل طارق كان منذ أوائل البليستوسين مضيقاً يصل
بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي . ولكن الأدلة البشرية تحتم القول



شكل (٣٢) يبين حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في فترة فرم الجليدية .
أن هذا المضيق كان برزخاً في فترتين من فترات البليستوسين تعاصر الثانية منهما
تقدم جليد بهل ، وذلك أنه قد انتقلت في هاتين الفترتين حضارة من شمال أفريقيا
إلى أسبانيا ، وانتقال الحضارة في هذا العصر المبكر معناه انتقال الإنسان معها ،
ولم يكن هذا الإنسان في مرتبة حضارية تسمح له باستعمال أي نوع من أنواع
القوارب ، فلا بد من التسليم إذاً بأن جبل طارق كان برزخاً أيضاً في بعض فترات
البليستوسين ، سلكته الجماعات البشرية البدائية من شمال أفريقيا إلى أوروبا
(أنظر شكل ٣٢)

ومعنى هذا أنه في فترة ظهور الإنسان البدائي كان هناك طريق برى بين آسيا وأفريقية عبر برزخ السويس ثم بين أفريقية وأوروبا عبر جبل طارق ثم عبر الممر « تونس صقلية إيطاليا » وقد مكن هذا من انتقال الإنسان وحضاراته بحرية نسبية بين الأجزاء المتجاورة من هذه القارات الثلاثة.

جدول يبين العلاقة بين العصور الجيولوجية والعصور البشرية

العصر الجيولوجي	العصر البشرى	تواريخ تقريبية
العصر الحديث	العصر التاريخي	من ٣٤٠٠ إلى الوقت الحاضر
	عصر ما قبل الأسرات	» ٤٥٠٠ » ٤٣٠٠ ق. م
	الحجرى الحديث	» ٨٠٠٠ » ٤٥٠٠ ق. م
	الحجرى القديم الأعلى (السبيلي)	» ٢٠٠٠٠ » ٨٠٠٠ ق. م
البليستوسين	الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى)	» ٥٠٠٠٠ » ٢٠٠٠٠ ق. م
	الحجرى القديم الأسفل (الشيلي والأشولى)	انتهى سنة ٥٠٠٠٠ ق. م
	عصر ما قبل الإنسان	
	في مصر	

الفصل الخامس

حضارات العصر الحجري القديم في مصر

أولاً : الحجري القديم الأسفل (الحضارتان الشيلية والاشولية)

مضى على الإنسان في مصر - كما هو الحال في سائر أنحاء العالم القديم - حين طویل من الدهر قبل أن يعرف استعمال المعادن . ولما كان في هذه الفترة يعيش على الصيد بأنواعه فقد صنع الآلات اللازمة لذلك من الحجارة والخشب والعظم . وسرعان ما أدرك صلاحية حجر الصوان لصنع الآلات إذ رغم أنه حجر صلب إلا أنه يسهل تشقيقه إلى رقائق تشبه الأسلحة فهو يفوق في هذه الميزة أنواع الحجارة الأخرى . وكان يستخرج الصوان من عروقه الموجودة داخل كتل الحجر الجيري أو بين مجاميعه في مجارى الأنهار ، ثم يشكله الإنسان إلى آلات مختلفة بطرقه بمطرقه من الحجر نفسه هي عبارة عن حصاة كبيرة مستديرة الشكل .

وقد مر الإنسان في مصر بنفس الأدوار التي مر فيها الإنسان الأوروبي ؛ فبعد فترة العصر الحجري القديم أو عصر « تشكيل الحجارة » يصبح الإنسان المصرى راعياً وزارعاً ويتقدم في صناعته بسبب مقتضيات الحرفة الجديدة . ويصنع من الطين المعجون أواني كبيرة ويطحن الحبوب بين حجرتين بدائيتين ، ويفصل النصال والسهام بدقة كبيرة ، ويصقل حد فأسه بعناية كبيرة . وهذا العصر الذى زاد فيه إتقان الآلات الحجرية التى اخترعها السلف والتي ظهرت فيه مميزات جديدة فى الصناعة يسمى « عصر الآلات الحجرية المصقولة » تميزاً له عن العصر السابق الذى اقتصر على تشكيل الحجارة .

وبعد ذلك نجد في مصر - كما وجدنا في أوروبا - فترة الانتقال المعروفة

باسم النيوليتية حينما ظهرت بواكير استعمال المعادن ولا سيما النحاس .

ثم عرف الإنسان عدة معادن أخرى كالذهب والبرنز والحديد ، وبذلك ينتهى
نحر التيرينخ ويبدأ العصر التاريخي .

ولقد امتاز العصر الحجري القديم الأسفل فى شمال أفريقيا — كما هو الحال
فى جنوب أوروبا — بمناخ حار رطب . وعلى هذا ننتظر أن نجد فى هذه المنطقة
بقايا الحيوانات الدفينة التى كانت تعيش وسط الغابات الكثيفة وعلى شواطئ
المجارى المائية العظيمة الموجودة فى ذلك الوقت ، ومعظم هذه الحيوانات انقرضت
فى الوقت الحاضر وبعضها هاجر إلى المناطق الحارة فى الجنوب لما شعر باقتراب
موجة البرد التى عمت هذه الأقطار فى الفترة التالية لذلك .

ولقد أدت الأبحاث التى أجريت بشمال أفريقيا إلى أن الوصف الذى ينطبق
على جنوب أوروبا وسائر حوض البحر الأبيض المتوسط من حيث الحضارة ينطبق
أيضاً على شمال أفريقيا ولا غرابة فى هذا فالأصل البرى كان موجوداً بين شمال
أفريقيا وبين جنوب أوروبا عن طريق جبل طارق ثم عن طريق جزيرة صقلية .
وفىما يختص بواى النيل : كان يتمتع أيضاً بنفس المناخ الحار ونفس الحيوانات
والنباتات الكثيفة بدليل الأشياء التى كشفت فى مناطق متفرقة فى مصر .

والبقايا الحيوانية المستخرجة من الخليج القديم عند سهل العباسية تعطينا بعض
المعلومات عن ذلك . فالرواسب فى هذه المنطقة تحوى بقايا تماسيح وفيلة وفرس
الماء وغيرها . وكما أن الحال فى مصر كان يشبه جنوب أوروبا فى المناخ والنبات
والحيوان فقد كان يشبه فى الحضارات أيضاً ، فالفأس اليدوية وجدت على
حافات التلال المحيطة بالنهر والمجارى المتصلة به وعلى المدرجات القديمة التى ابتعد
النهر عنها الآن ، وفى قاع الوديان الجافة الحالية وعلى جوانبها .

ومن الأماكن التى كشفت بها هذه الآلات فى العراق منطقة بيبان الملوك
الموجودة على سفح الجبل المحيط بطيبة — (أنظر شكل ٣٣ و ٣٤) ووجدت أيضاً
فى أيدوس وإسنا وفى الفيوم وفى ممفيس وفى منطقة أبو النور بالقرب من نجع
حمادى وفى قنا ثم منطقة الجبل الأحمر بالعباسية حيث توجد آلات من الكوارتزيت .

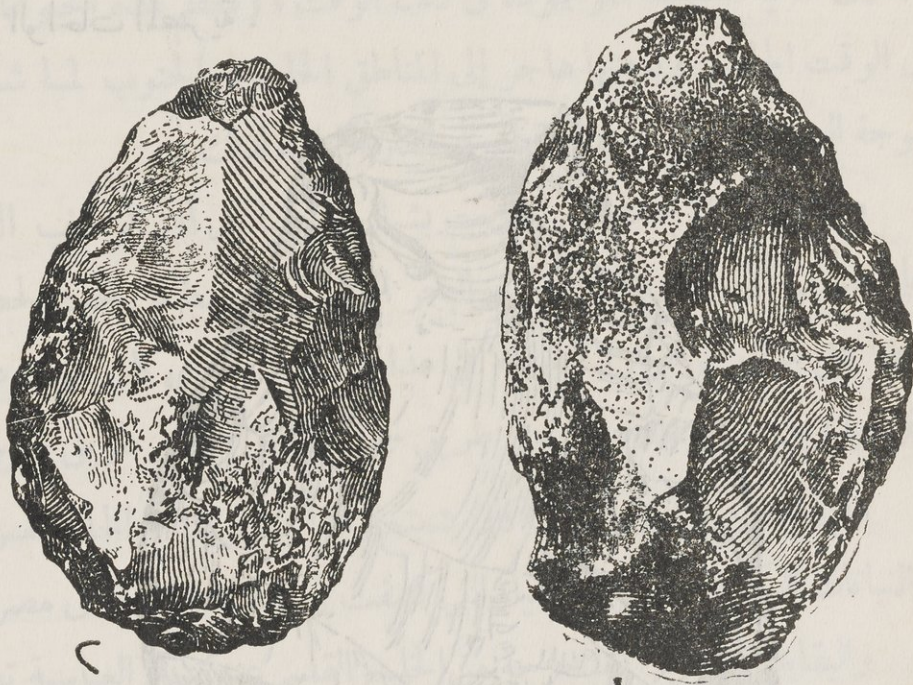
ومخلفات العصر الحجري القديم الأسفل لا توجد في مصر على شاطئ النهر وإنما توجد في مناطق منعزلة في الصحراء مثل الغابة المتحجرة شرق القاهرة ، وفي مناطق متفرقة على طول الطريق بين الأقصر والخارجة وبين أسيوط والخارجة وبين أسنا وكركور . وتوجد هذه الآلات في بعض الوديان التي تصب في النيل شمال أسوان - حيث استخدم فيها الخراسان النوبي لصنع هذه الآلات - وكذلك في سائر الواحات المصرية .



شكل (٣٣) فأس شيلية من مصر العليا .

ولقد جمعت من المنطقة الواقعة شمال اهرامات الجيزة بعض آلات وجدت على السطح في المناطق التي لم يطغ فيها الرمل على التربة القديمة . ومن ضمن هذه الآلات السطحية بعض آلات شيلية وأشولية وبعض آلات موستيرية عبارة عن شظايا وجدت بجوار النواة التي فصلت منها .

وإلى الشمال من ذلك نجد منطقة أبو رواش التي قال عنها دى مورجان أنها ترجع للعصر الحجري الحديث ، ولكنها في الغالب ترجع للعصر الحجري القديم ، وتعتبر امتداداً للمنطقة الواقعة شمال أهرامات الجيزة . وفي الحق أنه لم تعمل حفائر بهذه الجهات وكل الآلات التي جمعت منها سطحية ولو عملت بها حفائر لأمكن التثبت من المعلومات الخاصة بالعصر الحجري في مصر .



شكل (٣٤) يبين فاسين مصريين من العصر الحجري القديم الاسفل
(١) فاس شيلية (٢) فأس أشولية

ولقد أدى استخراج الحصى اللازم لأعمال البناء في القاهرة من خليج العباسية الواقع شمال شرق القاهرة إلى قطع الطبقات في هذه المنطقة إلى عمق يزيد على ٣٠ متراً ، وبدراسة هذه الطبقات وجد في القاع الرمال التي كانت تكون قاع الخليج في زمن البليوسين ، وفوق ذلك طبقة من الرواسب النيلية سمكها حوالى ١٠ متر . وبدراسة الحصى المستدير الموجود في هذه الرواسب أمكن الاستدلال على تتابع الحضارات في مصر ، فوجدت الحضارة الشيلية وفوقها الأشولية وتختلط كل منهما ببقايا الحيوانات المعاصرة (أنظر شكل ٣٥) .

وتوجد في الأجزاء العليا من هذه الفجوات طبقات من الصوان المستدير من جميع المقاسات متبادلة مع طبقات من الرمل المختلط بالطفل كثيراً أو قليلاً. ونظام الطبقات هنا غير منتظم بل كثير التموج بحيث يصعب تعيين المستويات المعاصرة لبعضها. أما عن نوع الرواسب فقد دلت الأصداف على أنها نهريّة. وعلى عمق حوالي عشرة أمتار تختفي طبقات الحصباء كما تختفي معها الآلات، ولا يوجد بعد هذا العمق إلا طبقة سميكة من الرمال - ربما كانت رمالاً بحرية -



شكل (٣٥) بين تتابع الطبقات والحضارات في رواسب سهل العباسية

وهي ذات ألوان مختلفة وخالية تماماً من الآلات التي من صنع الإنسان. ونجد فوق هذه الطبقة المجده من الآثار البشرية مباشرة أقدم الآلات التي صنعها الإنسان ثم تتدرج في الحداثة كلما ارتفعنا حتى نجد أحدثها على السطح. وعلى العموم نجد بكل الآلات المستخرجة من هذه المستويات المختلفة علامات لا جدال فيها تدل على أنها منقولة من مكان بعيد فخافاتها مثله وسطحها ناعم. وقد صنعت هذه الآلات من الحجر الرملی ومن السكوار تريت وتوجد في اعماق جزء من هذه الطبقات (أي على عمق عشرة أمتار من السطح) آلات بدائية غير متقنة الصنع يمكن وضعها

في المرتبة الأيوليئية . ثم تظهر الفؤوس في الطبقة التي تعلوها ، وهي على نوعين :
النوع الأول : كله تقريباً من الصوان وآلاته بدائية جداً لا تتعدى كونها حصى
 مربعاً صغير حجمه من أعلا ببعض ضربات وابقيت القاعدة بحيث أصبح شكل
 الآلة كالحرم الثلاثي وأصبح عرضها كطولها ، وعمودها الفقري متعرج وبدون
 تشذيب وهي ليست ذات سطحين كالقؤوس المعروفة في محطى شل وسنت أشيل
 بفرنسا ، بل ذات ثلاثة أسطح فهي أشبه بهرم ذي ثلاثة أوجه (أنظر شكل ٣٦) .



شكل (٣٦) فأس شالوسية من العباسية

أما النوع الثاني : فبعضه مصنوع من الصوان والبعض الآخر مصنوع من الحجر
 الرملي والنسبة بينهما متعادلة والشكل العام متقارب ولكنها أطول وارتفاع من النوع
 الأول ، وشكلها المثلث أكثر دقة ، وهي أيضاً من غير تشذيب ومحتفظة بالقاعدة
 ومن المرجح أن القؤوس التي من النوع الثاني أحدث من قؤوس النوع الأول لأنها

أكثر دقة ولو أنه لا يوجد دليل طباقى على ذلك^(١).
ثم في الطبقات العليا (من ٣ — ٥ متر) توجد فؤوس من الصوان ومن
الكوارتزيت على حد سواء وتمثل هذه الفؤوس الشكل الشيلي الأصيل فهى مثلثة
الشكل ولكنها مسطحة أى ذات وجهين بدلا من ثلاثة وحافتها متعرجة والقشرة

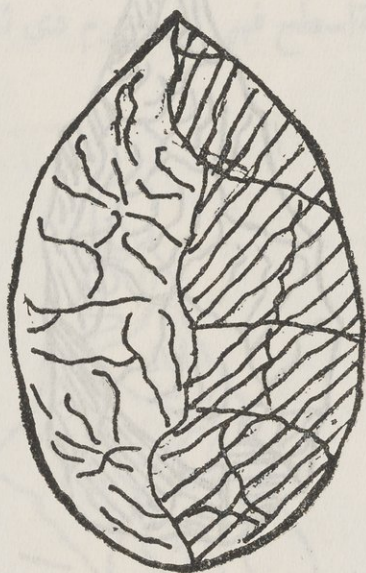


شكل (٣٧) فاس شيلية من العباسية

الأصلية موجودة على القاعدة دائما (أنظر شكل ٣٧) وكلما ارتفعنا في هذه الطبقات
(بين متر وثلاثة أمتار) نجد الآلات ولو أنها تحافظ على نفس الشكل إلا أنها تصبح

(١) وقد وجدت آلات هرمية الشكل شبيهة بالآلات العباسية في منطقة سن الفيل بجوار بيروت
ويرى دى مورجان أن الآلات الهرمية أحدث من الشيلية ويضعها في مرحلة حضارية خاصة يسميها
الشالوسية . ويمكن أن نسمي الشالوسية عباسية أيضا .
ويرى بوفيه لاير أن المرحلة الشالوسية سابقة للشيلية لأنها أتت منها انتقانا ويؤيده في ذلك
Passemard نتيجة البحوث في منطقة لاشالوس بفرنسا فقد وجد أن الآلات العباسية هي نفس
الصناعة التي وجدت في فرنسا ، وقد وجدت في نفس الوضع الطبقي تحت طبقة الصناعة الشيلية
ما يرجح أنها أقدم منها .
ويعترض الدكتور حزين على تسمية هذه الآلات شالوسية ويقول أنها مجرد صناعة شيلية
بدائية Pre - Chellean or Primitive Chellean بدليل وجودها تحت الطبقة الشيلية
الحقيقية . وأما شكلها المثلث الذي دعا بوفيه إلى اعتبارها صناعة مستقلة فانما نشأ من أنها
صنعت من حصى مستطيل في حين أن الشيلي صنع من حصى مستدير .

أدق تفصيلا كما تزداد فيها العناية بتشذيب حد الالة فيصبح كله أو بعضه مشدبا مما يعطى الالة الشكل المستقيم أحيانا والمنحني أحيانا أخرى كما هو الحال في حافات الالات الأشولية ذات الوجهين . وبعض هذه الالات يميل إلى الإستدارة ولكن الطرف دائما دقيق والقشرة الأصلية موجودة على القاعدة في كل الأحوال . وبعض الالات الأشولية ذات مقاسات كبيرة . (أنظر شكل ٣٨)



شكل (٣٨) فاس اشولية من العباسية

وأخيرا وجد في الديسمترات العليا من هذه الطبقات مجموعة من الفؤوس الصغيرة طولها يتراوح بين خمسة سنتيمترات وسبعة ولها نفس الشكل العام المثلث المستطيل كالالات السابقة ولكنها تتميز بأنهار فيعة خفيفة ولها حد مستقيم مشطوف بدقة . ويمكن اعتبار هذه الالات نوعا مصغرا للالات الموجودة تحتها مباشرة . وقد وجدت هذه المجموعات المختلفة من الفؤوس مصحوبة بآلات عديدة من أشكال أخرى مختلفة منها المخارز المدببة الأطراف والأسلحة الكبيرة ذات الحدود غير المشطوفة (المتعرجة) أو المشطوفة (المستقيمة) ولكن المكاشط نادرة جدا كل هذه الالات السابقة منقولة بواسطة المياه من مكان بعيد ثم دفنت في هذا المكان بدون نظام وسط الحصى المستدير ، وقد جمعت عينات من الالات المصنوعة

من صخور مختلفة بقصد تحديد المصدر الذي جاءت منه هذه الآلات ! فوجد أن بعضها مصنوع من الصوان المصري وبعضها مصنوع من السكوارتز كما أن بها آلات من العقيق مع قطع مختلفة من الخشب المتحجر التي ربما يرجع جزء منها إلى الغابة المتحجرة بمنطقة القاهرة نفسها . كما وجدت بعض قطع من الصخر البللوري ربما جاءت من إقليم البحر الأحمر أو من مصر العليا . وقد لوحظ كثرة حجر السماق نسبيا بينما الجرانيت نادر مما يدعو إلى الاستنتاج بأن معظم هذه الآلات والصخور جاء من منطقة تقع شمال الجندل الأول وأما قطع الجرانيت والسماق فقد جاءت من منطقة أسوان ومن جبال البحر الأحمر النارية . وقد لوحظ أن حافاتها متآكلة



شكل (٣٩) رأس حربة موستيرية من العباسية
بشدة مما يدل على أن التيار أدارها في مجراه مسافة مئات من السكيلومترات . وأما الآلات المصنوعة من الحجر الرمل فآقل تأكلا مما يدل على أنها لم تسافر مسافة طويلة ، ومن الجائز أن هذه الآلات جلبتها السيول المنحدرة في ذلك الوقت نحو النيل من المرتفعات المجاورة للغابة المتحجرة أو من الجبل الأحمر .

وأخيرا على سطح السهل وعلى عمق سنتيمترات قليلة توجد آلات من أنواع مختلفة ففيها محتات (محكات) ونوايا مشكلة بعناية بقصد الحصول على آلات مثلثة الشكل ، كما وجدت بينها عدد من الأسلحة المفصولة عن نواياها . وتدل هذه الآلات في مجموعها على أنها ترجع للرحلة الموستيرية (أنظر شكل ٣٩) وقد حافظت هذه الآلات على زواياها وقواعدها وليس بها أثر الاستدارة الموجود في الآلات

السابقة كما أن لونها كدر فهو رمادي مشرب بصفرة مختلف كثيرا عن اللون الذي رأيناه في آلات الطبقات العميقة ، وكل هذه الأدلة تبعث على الاعتقاد بأن هذه الآلات القريبة من السطح صنعت بنفس مكان وجودها (١)

وسهل العباسية ممزوج بعض الشيء فيه منخفضات ومرتفعات ، ثم هو يرتفع تدريجيا نحو الشرق إلى أن يستند على الهضبة الجيرية الواقعة في شرقه . وقد لوحظ أن الصناعة الموسستيرية تسكثر في المنخفضات بينما الصناعة الشيلية تسكثر في الثنيات المرتفعة كما تزداد في أكثر جهات السهل ارتفاعا أى المجاورة لحافة الهضبة الجيرية . وقد وجد بسهل العباسية كذلك آلات شيلية سطحية ، وتدل حالة هذه الآلات على أنها صنعت بنفس المكان ، فالفرؤوس مسطحة وزواياها حادة ليست مثلمة ، وليس بها آثار الاستدارة ولونها كدر شبيه بلون الآلات الموسستيرية التي قلنا أنها صنعت بنفس المكان . والتفسير الطبيعي لهذا هو أنه في أواخر الفترة الشيلية كانت الأجزاء المنخفضة من السهل مازالت مغمورة بالمياه فلم تكن صالحة لسكنى الإنسان ولذلك لجأ هذا الإنسان إلى سكنى الثنيات المرتفعة من السهل ثم تراجع الماء فنتج عن ذلك بروز شريط من اليابس وبرز عدة جزر فوق سطح الماء ، فانحدر الإنسان الشيلي إلى هذه الأجزاء وسكنها ثم أصبح تراجع الماء تاما وبرز السهل كله فوق سطح الماء وسكنه قوم ذو صناعة موسستيرية شغلوا الجهات التي سكنها الإنسان الشيلي من قبل ثم الجهات التي لم يسكنها هذا الإنسان لأنها كانت مغمورة بالمياه في عهده ، وهذا يفسر وجود صناعة موسستيرية صرفة في بعض الأجزاء وصناعة موسستيرية مختلطة بغيرها في أجزاء أخرى .

وفيا عدا سهل العباسية توجد آثار إنسان العصر الحجري القديم منتشرة على السطح في الصحراء الواقعة شرق القاهرة بل أن هذه الآثار توجد فوق الهضبة الأيوسينية نفسها الموجودة في هذا المكان وجميع الآلات التي جمعت من هذه

(١) يرى الدكتور حزين أن الآلات التي يسميها بوفيه لا يميز موسستيرية خالية من الحافات المشددة المعروفة في الصناعة الموسستيرية الحقيقية ، ولهذا يفضل اعتبار هذه الآلات لفلوازيه .

الجهات سطحية فهي قليلة الاهمية من ناحية الدليل الطباقى ولكنها تمدنا ببعض المعلومات عن مدى انتشار إنسان العصر الحجري القديم في مصر وعن المناطق التي سكنها وعن نوع صناعته ودرجة حضارته .

من هذه المناطق منطقة « الجبل الأحمر » الذي هو مجموعة من النافورات القديمة حوات الرمال الموجودة فوق الحجر الجيري الايوسيني إلى كتل متماسكة من الكوارتزيت الأحمر فاصبح عبارة عن سلسلة من المرتفعات أو القباب جائمة فوق الهضبة ، ولذلك أطلق عليها لفظ « الجبل » . وقد وجد في هذه المنطقة مصنع هائل تختلط فيه الصناعة الشيلية والاشولية والموسستيرية . وجميع هذه الآلات التي يبلغ عددها آلاف كثيرة مصنوعة من الحجر الرملى السيليسى فيما عدا آلات قليلة مصنوعة من الصوان . والحجر الرملى السيليسى ذو لون أحمر في الغالب سهل التشكيل وسهل الكسر كالزجاج . والآلات الشيلية نادرة نسبيا بهذا المكان ، أما الآلات السائدة فهي ذات الوجهين الشبيهة بالصناعة الاشولية وهي آلات مشغولة بعناية وذات مقاسات أكبر من الآلات الموجودة بسهل العباسية . ومن بين هذه الآلات ذات الوجهين آلات مسطحة ومثلثة ذات حافات مشطوفة في جميع الأحوال ، غير أنها ليست متناسبة في كثير من الحالات فبعض جوانبها يكون أكثر تعرجا من الآخر وقد وجدت هذه القطع مصحوبة بنوى شيل (ذات الضربة الواحدة) وبنوى موسستيرية (ذات الضربة المنشورية) . وبعض هذا النوى كبير الحجم لأن قطع الكوارتزيت ليست محدودة الحجم كقطع الصوان . كما وجد معها اتصال عديدة طويلة في بعض الأحيان ثم عدد كبير من المحتات وأنواع كثير من السكاكين والمكاشط والأقراص والآلات المدببة الأطراف كالمثاقب . وأهم ما يميز هذه الصناعة وجود كتل كبيرة الحجم يبلغ طولها حوالى ٤٠ سم وتبلغ من الثقل بحيث لا يمكن حملها باليد الواحدة وربما كانت هذه القطع عبارة عن سنادين لأنها مطروقة بشدة في نقط مختلفة مني سطحها . وإلى الشرق من الجبل الأحمر ، وقبل الغابة المحجرة ، توجد منطقة أخرى من

مناطق العيون تضم آلات حجرية أشواية ذات مقاسات كبيرة ، ويوجد مصنع ممتاز لهذه الآلات في جبل المقطم على فوهة إحدى العيون وعلى سفحها وهي العين المسماة بركان رينباوم Rennebaum وقد وجدت في هذا المكان نفس الصناعة التي وجدت بالجبل الأحمر .

وانتشار الصناعة الحجرية في هذه الجهات يدل على التغير المناخى الذى طرأ عليها فهى الآن صحراوية جافة ولكنها كانت قديما وفيرة المياه كثيرة الأشجار مما ساعد إنسان العصر الحجري القديم على سكناها . وبما هو جدير بالملاحظة انه لم يكتشف بهذه الجهات آلات لاحقة للعصر المoustيري فلا الحجري القديم الأعلى ولا الحجري الحديث يوجدان بهذا المكان مما يدل على أن هذه الجهات لم تصبح صالحة للسكنى بعد العصر الحجري القديم . ولم توجد بقايا الهياكل البشرية الخاصة بأصحاب هذه الصناعة .

ثانياً : الحجري القديم الأوسط (الحضارة المoustيرية)

امتدت الحضارة المoustيرية أيضا إلى شمال أفريقيا حيث توجد أدلة كثيرة تدل عليها . ولكن يلاحظ أن المناخ في الحضارتين الشيلية والأشولية كان واحداً في كل من شمال أفريقيا وجنوب أوروبا ، ولكنه اختلف في كل منهما أثناء الحضارة المoustيرية . فصحيح أن هناك آثار تشير إلى وجود عصر جليدى في جبال اطلس وفي جبال شبه جزيرة سيناء وإلى استخدام كهوف الجزائر في السكن ولكن فيما عدا ذلك تدل الآثار على أن المناخ الذى أصبح قاسيا في برودته خلال الحضارة المoustيرية في أوروبا لم يكن كذلك في شمال أفريقيا في نفس هذه الفترة . ولا شك أن سبب ذلك هو الاختلاف في خطوط العرض في كل من الميكانيين ، كما أن قلة ارتفاع الجبال في شمال أفريقيا لم يساعد على تكوين طبقات من الجليد في عظم وكثافة الجليد الاوروبى في فترة القرم . وكذلك تدل بقايا الحيوانات المتخلفة من الحضارة المoustيرية في شمال أفريقيا على أن الحيوانات ولو أنها تغيرت قليلا إلا

أنها ما زالت تحمل طابعها القديم وهو ملائمتها للمناخ الحار فهي لا تحوى بقايا الماموث ولا غيره من الحيوانات الباردة التي كانت تعيش في أوروبا في الفترة الموسمية .

أى أنه يمكن القول أن الظروف مع جميع نواحيها ظلت في شمال أفريقيا كما كانت في أثناء الحضارتين الشيلية والأشولية ، فظل الإنسان يعيش في الهواء الطلق محافظاً على طريقة معيشته وهي معيشة الصيد المتجول . ولم تستعمل الكهوف إلا بالقرب من الجبال حيث كان الجليد محسوساً به أكثر من أى مكان آخر .

وفيما يختص بمصر لم تكشف كهوف كانت تستعمل للسكنى في العصر الموسمي بسبب عدم ارتفاع أرضها وإن كان يحتمل وجود بعض هذه الكهوف في الجهات المرتفعة ولكنها لم تكتشف أو أنها أخليت من محتوياتها في العصر التاريخي حيث استعملت كأكبية جنائزية أو مقابر للحيوانات المقدسة .

وعلى العموم يمكن القول إن آثار الحضارة الموسمية توجد في مصر في العراء وبعضها موجود في نفس المخططات التي توجد فيها الآثار الشيلية والأشولية على طول وادى النيل وفي الصحراوات المحيطة به والتي كانت مسكونة في هذا الوقت . وفي بعض الأحيان توجد آلات الموسمية مختلطة مع الفؤوس اليدوية التي ترجع للحضارتين السابقتين لها . ومثال ذلك ما يوجد على تخوم الصحراء وفي منطقة طيبة وفي منطقة الجبل الأحمر حتى إن البعض اعتبرها خطأ معاصرة لبعضها .

ولكن في مناطق أخرى وجدت الآلات الموسمية منفصلة تمام الانفصال عن الآلات السابقة لها في الزمن ومثال ذلك ما وجد في العباسية نفسها (على بعد مئات قليلة من الأمتار عن الجبل الأحمر) في منطقة العباسية وجد العصر الحجري القديم الأسفل في الطبقات العميقة ، وأما الحجري القديم الأوسط فوجد على سطح الأرض .

ومثال ذلك أيضاً ما وجد في مدرجات الفيوم حول بركة قارون ، وما وجد في

مدرجات النيل في مصر العليا حيث وجدت الآلات الموسستيرية في المدرجات السفلى على ارتفاع قليل ، بينما المدرجات العليا تحوى الآلات الأشولية والشيولية وسبب ذلك أن الناس كانوا يقتربون في سكناتهم من مجرى النهر كلما ابتعد عنهم بسبب تعميق واديه . (أنظر شكل ٤٠) .



شكل (٤٠) امثلة من الأسلحة الموسستيرية

رقم (٣) موسستيرى قديم . رقم (٤) موسستيرى متوسط . رقم (٥) موسستيرى حديث

ويلحق البعض بالحضارة الموسستيرية في افريقيا صناعتين هما العاطرية والسيبيكة وهما تحملان الطابع الافريقى الصريف ، وقد وصلت آثارهما إلى اسبانيا شمالا وإلى مصر شرقا . ومثال آثار هاتين الحضارتين في مصر ما وجد في شمال شرق الاقصر وفي الواحه الخارجة .

ثالثاً . العصر الحجري القديم الأعلى في مصر

الاختلاف الذي رأيناه بين أوروبا وبين شمال افريقيه في مظاهر العصر الحجري القديم الأوسط يستمر في العصر الحجري القديم الأعلى كذلك . ففي أوروبا يستمر الانسان ملتجئاً إلى كهوفه حيث ترك طبقات أخرى من الرواسب وحيث ترك آثاراً تدل على فن حقيقي . وأما في شمال افريقية فأن انسان العصر الحجري القديم الأعلى ظل متمتعاً بالمناخ الدفء الذي تمتع به سلفه الانسان المoustéri . على أنه في الأماكن الجبلية حيث المناخ أكثر برودة لجأ انسان هذا العصر إلى الكهوف التي كان يستخدمها الانسان المoustéri ، وأما في الأماكن المنخفضة والقليلة الارتفاع فقد سكن انسان العصر الحجري القديم الأعلى العراء كما تدل على ذلك مخلفاته . وهذه المخلفات لا تدل على أن المناخ في شمال افريقية كان أدفأ من أوروبا فحسب بل تدل أيضاً على أنه كان أجف منه في أوروبا وأجف من مناخ الفترة المoustيرية في شمال افريقية نفسه ، إذ قل نزول المطر في شمال افريقية في هذه الفترة فانخفض مستوى الماء في الأنهار والبحيرات ، وقلت الحياة النباتية ، وسادت أنواع خاصة من الحيوانات التي تألف الجفاف كالنعام والغزال . على أن الحيوانات السالفة التي تألف الرطوبة كالفيل والزراف لم تكن قد هاجرت بعد إلى الجنوب في هذا العصر ، وأما الانسان فقد تغيرت حياته تبعاً لتناقص الماء فقل انتشاره وانحصرت مساكنه وترك إلى غير رجعة تلك المساحات الشاسعة التي أخذت في التحول إلى صحراء قاحلة .

ولم يعرف شكل هذا الانسان الا من الآثار، على أنه لم يكن من جنس نياندرتال^(١) ولم يكن من جنس كرومانيون^(٢) ، ثم أن الانسان الافريقي في العصر الحجري القديم الأعلى لم يترك آثاراً فنية تصل إلى مستوى الفن الذي أظهره الانسان المعاصر

(١) انسان العصر الحجري القديم الأوسط في أوروبا

(٢) انسان العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا

له في أوروبا . وكذلك لانجد هذا العصر ينقسم في شمال افريقية إلى الحضارات التي رأيناها في أوروبا ، بل لانجد في شمال افريقية في هذا العصر إلا حضارة واحدة هي الحضارة القفصية التي قلنا أنها أساس الأورينياسية الأوروبية أو منبع العصر الحجري القديم الأعلى الأوروبي . ثم تتطور القفصية مباشرة في شمال افريقية نحو الصناعة الحجرية الدقيقة (الميكروليثية) ونحو صناعة الآلات ذات الأشكال الهندسية .

وأما في مصر فقد كشف ثنيار Vignard آثاراً عند نجع حمادى تقع في مكان متوسط بين المدرجات الموستيرية وبين طمى النيل الحديث ولذلك وضعت هذه الآثار في العصر الحجري القديم الأعلى . ويرى مكشفها بأنها أشبه بالأورينياسية الأوروبية منها بالقفصية الافريقية . على أن الحضارة الموستيرية في مصر لم تنته في نفس الوقت مع الموستيرية في أوروبا بل استمرت موجودة حيث تسمى الموستيرية المصرية . ووجدت منتشرة في كل مكان تقريباً على حافة الهضبة الممتدة على طول وادى النيل المصرى . وكذلك وجدت كيتين تسمون حضارة من هذا النوع في الواحة الخارجة أطلقت عليها اسم « ما قبل السبيلية » أى أن مصر ظلت في مرتبة العصر الحجري القديم الأوسط بينما أوروبا كانت قد قطعت مرحلة في العصر الحجري القديم الأعلى . على أن هناك فرقاً بين الموستيرى الحقيقى والموستيرى المصرى (أو ما قبل السبيل) ذلك أن الموستيرى المصرى يمتاز بصغر حجم الآلات سواء ما كان منها مصنوعاً من النواة أو الشظايا ولذلك يمكن اعتبار ما يسمى « الموستيرى المصرى » حضارة مبكرة من حضارات العصر الحجري القديم الأعلى في مصر .

وكذلك وجد جريس (Grace) أحد ضباط الطيران فى الجيش البريطانى سنة ١٩٤٠ منطقة غنية بالآلات القزمية على بعد ١٧٠٠ متر شمال محطة سكة حديد أبو صوير وإلى الشمال الشرقى من المطار . ويسمى الدكتور حزين هذه الصناعة « الليفلوازية الصغيرة » Diminutive Levalloisian ويعتبرها امتداداً للصناعة الليفلوازية الأصلية التي ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط (الحضارة

الموستيرية). وكذلك جمع منجيين الأستاذ السابق بجامعة فيينا والجامعة المصرية آلات شبيهة بهذه في وادى العنقمية جنوب طريق القاهرة السويس الصحراوى وشرق القاهرة بخمسة وعشرين كيلو مترا وتدل هذه الآلات على تحول الصناعة الليثوازية الأصلية (الموستيرية) التى ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط نحو الصناعة القزمية فى العصر الحجري القديم الأعلى^(١).

ويظهر أن أصحاب الحضارة القفصية غزوا مصر فى العصر الحجري القديم الأعلى حيث وجدت آثارهم حول عيون حلوان وتمتاز هذه الآثار بأن الآلات من النوعى القزى ذى الأشكال الهندسية وخصوصا الآلات المشثلة الشكل. ومن الجائز أن الحضارة القفصية الصميمة وجدت فى جهات أخرى من مصر، ولكن معظم آثارها مدفون تحت طمى النيل الحديث، لأن الإنسان فى هذه الفترة كان قد اقترب من النهر بسبب قلة الأمطار، فلا تظهر الآثار القفصية فى الوقت الحاضر إلا فى الأماكن البعيدة عن منال الفيضان كمنطقة حلوان ومنطقة وادى ميدامود بالقرب من الأقصر وبعض جهات الفيوم التى لا يصل إليها الفيضان. وكذلك وجدت هذه الآثار فى الجهات الصحراوية البعيدة مثل واحة سيوة وجبل العوينات وعلى سطح الهضبة الواقعة غرب الواحة البحرية وواحة الفرافرة. وقد وجدت فى كل هذه الجهات آثار قزمية شبيهة بالحضارة القفصية كالنصال والمحتات والأطباق المصنوعة من قشر بيض النعام.

أما عن حيوان العصر الحجري القديم الأعلى فى مصر فقد دلت الآثار العظمية التى جمعها فنيار من كوم امبو والتى جمعها برنتون من قاو على أن الحيوان كان فى هذا العصر فى مصر شبيها بحيوان شمال أفريقيا فى هذه الفترة.

أما عن إنسان هذا العصر فى مصر فقد اختفى إنسان نياندرتال فى هذه الفترة من مصر كما اختفى من أوروبا وربما وجد الإنسان الطويل القامة فى بدأ الحضارة

(١) مجموعة الآلات المكتشفة فى أبو صوير ووادى العنقمية محفوظة بقسم الجغرافية بجامعة فؤاد الأول.

القفصية ثم أصبح الجنس السائد هو القصير القامة Pygmoids نتيجة اختلاط جماعات من الاقزام Pygmies بهذا الجنس الطويل القامة . وهذا يفسر صغر حجم الالات وتحول الحضارة إلى حضارة ميكروليثية . وقد حدث هذا أيضا في أوروبا إذ ظهر إنسان جريما لدى الذى يقل طوله عن ١٦٠ إسم فى منتونى Mentone بإيطاليا وهو نتيجة اختلاط أقزام أفريقية بجنس أوروبى طويل القامة من نوع كرومانيون أو كوم كابل . وقد حدث هذا الاختلاط فى الغالب فى شمال أفريقيا ثم انتقل النتاج المتقدم إلى أوروبا .

ولقد نتج من وجود الحضارة الموسيرية المصرية والحضارة القفصية فى وقت واحد فى مصر حدوث اختلاط بين الحضارتين أنتج مايسمى الحضارة السيلية نسبة إلى بلدة سليل بالقرب من كوم امبو . وتعتبر الحضارة السيلية حضارة شبه قزمية أو نصف قزمية لأن آلاتها لم تبلغ الصغر الذى بلغته الحضارة القفصية الحديثة وسنذكر فيما يلى أهم مميزات الحضارتين القفصية والسيلية .

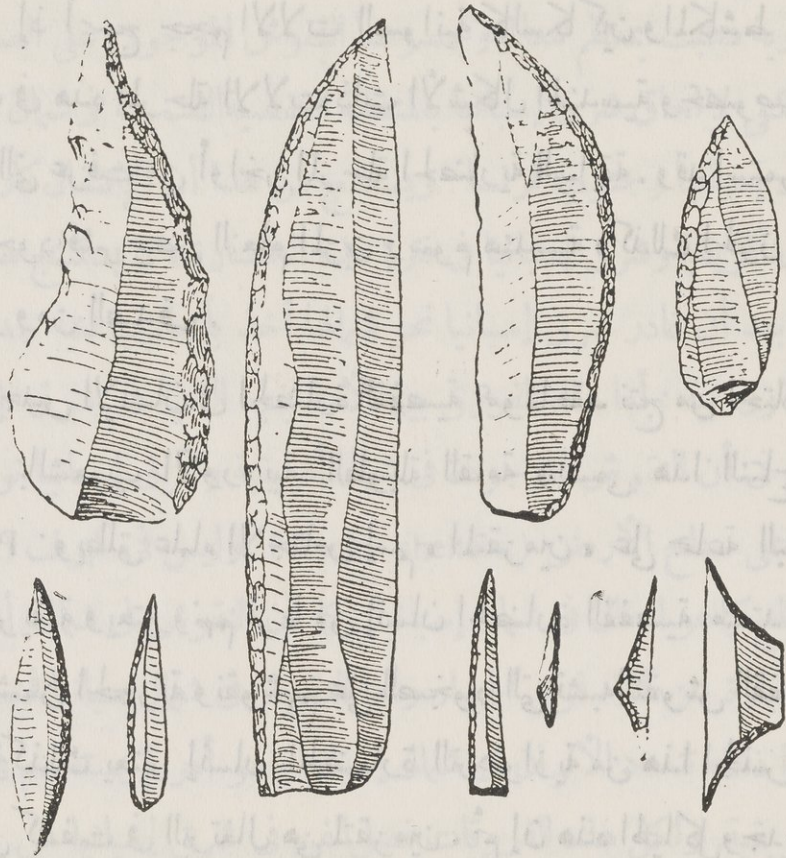
الحضارة القفصية (١) :

ليست هذه الحضارة إلا نوعا من حضارة العصر الحجري القديم الأعلى أو هى فرع من حضارة المحتات خاص بشمال أفريقية فهى معادلة لحضارات وسط أوروبا وغربها فى هذا العصر كالأورينياسية والسولترية والمجدلينية (أنظر شكل ٤١) وتقسم الحضارة القفصية إلى مراحل ثلاثة : قديمة ووسطى وحديثة .

أما القفصية القديمة فهى شبيهة بالأورينياسية وتوضع معها فى الزمن وهذا أمر طبيعى لأنهما من أصل واحد . فنجد فى القفصية القديمة أسلحة صوانية كالنصال والمكاشط شبيهة بالأسلحة الأورينياسية ، كما نجد فيها آلات عظمية ولا سيما المشاقب وأما القفصية الوسطى فتوضع فى الزمن مع الحضارة السولترية الخاصة بوسط أوروبا . ولكنهما يختلفان فى نوع الصناعة لأننا لا نجد فى شمال أفريقية أسلحة

(١) تنسب هذه الحضارة إلى بلدة قفصة فى إقليم قسطنطينية شمال شط الجريد فى تونس .

من هذا العصر تشبه الأسلحة التي على شكل ورق الصفصاف والتي تعتبر أهم مميزات الحضارات السولترية بأوروبا . وأهم ظاهرة في القفصية الوسطى تضائل حجم الأسلحة الحجرية فهي تتدرج نحو ما يسمى حضارة الالات الحجرية القزمية (Microlithic) . وكذلك تظهر في هذه مفترق الالات ذات الأشكال الهندسية فبعضها على شكل قوس ، والبعض الآخر على شكل مثلث وهكذا . وقد وجدت



شكل (٤١) أسلحة صوانية من الحضارة القفصية

في هذه الحضارة أيضاً أواني مصنوعة من قشر بيض النعام ومزينة برسوم هندسية وكذلك عرف أهل هذه الحضارة تأليف العقود من حبات الخرز المختلفة . وبالإضافة إلى العناصر الحضارية التي وجدت على القفصية الوسطى تستمر فيها المقومات الحضارية المعروفة من القفصية القديمة . وقد ظهرت في أواخر القفصية الوسطى صناعة السهم الصواني الذي على شكل شبه المنحرف .

ويظهر أنه في أواخر القفصية الوسطى خرجت من شمال أفريقية هجرتان أحدهما وصلت إلى أوروبا حيث انشأت الحضارة التردنوازية التي ستعاصر القفصية

الحديثة فيما بعد ، بينما وصلت الهجرة الثانية إلى جنوب أفريقية حيث أسست هناك حضارة شبيهة بالقفصية الحديثة كذلك ، وما زالت هذه الحضارة قائمة حتى الوقت الحاضر عند جماعات البشمان في جنوب أفريقية الذين مازالوا في مرتبة حضارية شبيهة بالحضارة القفصية الحديثة .

وأما الحضارة القفصية الحديثة فهي حضارة الآلات الحجرية القزمية بمعنى الكلمة ، إذ أصبح حجم الآلات الصوانية كالسكاكين والمكاشط صغيراً جداً كما كثرت في هذه المرحلة الآلات ذات الأشكال الهندسية وخصوصاً ما تشبه شبه المنحرف التي عرفت من أواخر المرحلة الحضارية السابقة . وقد استمر في القفصية الحديثة وجود قشر بيض النعام المزين برسوم هندسية وكذلك الخرز المصنوع من هذا القشر ومن الصدف .

وأما جنس الإنسان في الحضارة القفصية عموماً فقد نتج من اختلاط الأقزام الأفريقية بالشعوب الأوروبية الطويلة القامة ويسمى هذا النتاج بالمتقزمين Pygmoids . ويطلق علماء الأجناس إسم « المتقزمين » على جماعة البشمان الحالية بجنوب أفريقية ويعتبرونهم فرعاً من إنسان الحضارة القفصية مستدلين على ذلك بآلات البشمان الحجرية ونقوشهم على الصخور التي تشبه النقوش القفصية في شرق إسبانيا . وكذلك يعتبر إنسان الحضارة التردنوازية من هذا الجنس . فالهياكل البشرية التي كشفت في البرتغال هي لمتقزمين ، ثم إن هذه الهياكل وجدت مع آلات الحضارة القفصية الحديثة . وكذلك وجد في أحد الكهوف بألمانيا هياكل قصيرة القامة ومعها آلات تدل على تأثير قفصى . وكل هذه أدلة على أن الإنسان القفصى هاجر من شمال أفريقية في اتجاهات ثلاثة . الاتجاه الأول وصل به إلى جنوب القارة الأفريقية عبر الصحراء الكبرى حيث أسس حضارة قفصية ما زالت قائمة حتى الوقت الحاضر ، والاتجاه الثانى أدى به إلى مصر حيث اختلط بالحضارة الموسستيرية المصرية فنشأت نتيجة لذلك الحضارة السبيلية التي سنعرفها فيما بعد ، والاتجاه الثالث وصل به إلى شرق إسبانيا حيث أسس حضارة قفصية صميمة ثم

استمر في هذا الاتجاه حتى جنوب فرنسا وغرب أوروبا عموماً حيث ظهرت الحضارة القفصية بمظهر جديد تحت اسم الأورينياسية التي تتشابه مع القفصية من بعض الوجوه وتختلف عنها من وجوه أخرى كثيرة . ويستند العلماء إلى الفن في تقرير العلاقة بين الحضارة القفصية في شمال أفريقيا وشرق إسبانيا وشمالها وجنوب فرنسا . ومع أنه لا يعرف من الفن القفصى بشمال أفريقيا إلا القليل لأن الظروف الصحراوية ذهبت بمعظم معالمه وخصوصاً النقوش الموجودة على الصخور ، فإن هذا القليل يكفي لإلحاق شرق إسبانيا بالمنطقة القفصية الصميمة في شمال أفريقيا وفصله عن شمال إسبانيا وجنوب فرنسا . ويستنتج من هذا أن الانتقال كان حراً وميسراً بين شمال أفريقيا وشرق إسبانيا في فترة هذه الحضارة ، كما يستنتج منه أن الإنسان القفصى بعد أن غادر شرق إسبانيا نحو شمالها أخذ بأساليب فنية جديدة أملت عليها حياته الأوروبية . أما هذه الفروق بين الأساليب الفنية في شرق إسبانيا وشمالها فتتلخص في أن النقوش الموجودة في شمال أفريقيا وشرق إسبانيا توجد في ملاجئ صخرية على سطح الأرض (Rock - shelters) وليس في كهوف (Caves) تحت هذا السطح كما هو الحال في شمال إسبانيا . كما أن النقوش في شمال أفريقيا وشرق إسبانيا عبارة عن طلاء فوق الجدار وأما النقوش في شمال إسبانيا فنحوتة في الجدار . وفيما عدا ذلك تتعدد الألوان في شمال إسبانيا وهو أمر لم يستخدم في شرقها ولا في شمال أفريقيا . ولكل هذه الفروقات فصل الفن في شرق إسبانيا عن شمالها وألحق بالفن القفصى الأفريقى .

وقد كشفت بمصر أيضاً نقوش على الحجارة في المناطق الصحراوية تدل على مقدرة فنية كبيرة وتشبه ما وجد على جدران الكهوف المجدلينية في أوروبا وتوضع معها في زمن واحد ، وإن كان بعض هذه النقوش يشك في نسبته لهذا العصر القديم ويظن أنه من عمل الإنسان الحديث .

وقد قسمت النقوش المصرية حسب مميزات فنية خاصة إلى قديمة وحديثة . فأما القديمة فتوضع في العصر الحجري القديم الأعلى وأما الحديثة فتوضع في العصر الحجري

الحديث وفي العصر التاريخي . وهذه النقوش عموماً شبيهة أيضاً بنقوش جماعة
البشمن في صحراء كلهارى بجنوب أفريقية . ومن أمثلة النقوش الصخرية المصرية
ما وجد في جبل العوينات وفي أسوان وفي وادى ميدامود بالقرب من الأقصر .
وأما عن حياة الإنسان القفصى فقد كان صياداً يتجول وراء الحيوانات التى كان
شمال أفريقية غنياً بها فى هذه الفترة ، فالحضارة القفصية تقع فى النصف الأخير
من العصر المطير الذى كانت فيه الأقاليم الصحراوية بؤديانها المختلفة مزدهرة بالسكان
والحيوان وخاصة شمال أفريقية لقربه من منطقة أعاصير البحر الأبيض المتوسط .
غير أن شمال أفريقيا كان فى أثناء هذه الحضارة سائراً نحو الجفاف ونحو الظروف
الصحراوية عموماً ، وهذا يفسر الهجرات التى أشرنا إليها فيما سبق نحو وادى النيل
وجنوب أفريقية وجنوب أوروبا ، فأن الإنسان القفصى لما شعر بدنو الظروف
الصحراوية هاجر إلى جهات تكون فيها موارد الرزق - وعلى الأخص الصيد -
متوفرة . وكان من ضمن الأشياء التى يقات بها الإنسان القفصى - إلى جانب صيد
الحيوانات - القواقع التى كانت وديان شمال أفريقية عامرة بها فى ذلك الوقت .
وتوجد فى الوقت الحالى فى شمال أفريقية فى جهات غير صالحة حالياً للاستيطان
البشرى أكوام القواقع التى خلفها الإنسان القفصى ومعها آلات صوانيه مديبة كان
يستخرج بواسطتها ما يوجد داخل قشرة القوقعة الصلبة من مادة طرية صالحة للأكل
وكذلك وجد فى هذه الأكوام بعض عظام الحيوانات التى كان يصطادها إنسان
هذه الحضارة .

وقد أشرنا فيما سبق من فصول إلى أنه وجد فى شماله أفريقية - عدا الحضارة
القفصية - الحضارة العاطرية . وهذه الحضارة قريبة الشبه فى شظاياها من الموستيرية
الأوروبية ومثال ذلك الآلة ذات العنق . والحضارة العاطرية - على مثال الحضارة
الموستيرية المصرية - تبدأ فى الزمن مع الحضارة الموستيرية الأوروبية ولسكنها تستمر
بعد انتهاء هذه الحضارة فتعاصر العصر الحجري القديم الأعلى . وقد وجدت هذه
الحضارة فى مصر فى الواحة الخارجة وبعض جهات مصر العليا . ويقال كذلك أن

الحضارة السبيلية ربما دخلت مصر في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى وتوغلت حتى طيبة حيث وجدت آلات صوانية تشير إلى ذلك .

الحضارة السبيلية :

امتاز تاريخ فجر التاريخ في مصر فترة من الوقت بخلوه من آثار مكتشفة ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى حتى ظن دي مورجان أن الإنسان المoustéri ظل مقيما على جانبي وادي النيل المصري إلى أن ظهر العصر الحجري الحديث ، ومعنى هذا أن مصر لم تمر في العصر الحجري القديم الأعلى بل انتقلت من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري الحديث ، غير أن هذا الظن لم يلبث أن تلاشى بفضل أبحاث العالم الأثرى أدمون فنيار Edmond Vignard الذي كشف عن عدة مواقع أثرية من العصر الحجري القديم الأعلى في نجع حمادى وكوم امبو . أما منطقة نجع حمادى فقد سبقت الإشارة إليها وأما منطقة كوم امبو فهي أهم المنطقتين حيث أجريت بها حفائر منظمة كشفت عن الحضارة الهامة المعروفة باسم الحضارة السبيلية ، نسبة إلى قرية سبيل بالقرب من كوم امبو .

ويشغل سهل كوم امبو صحن بحيرة قديمة واسعة كانت تتلقى مياهها من النيل في أوائل الزمن الجيولوجي الرابع (عصر البليستوسين) من فتحة في واديه شمال جنادل اسوان بعشرين كيلو متراً . كما كانت هذه البحيرة تتلقى قدراً من مياه الأمطار الساقطة على جبال البحر الأحمر وذلك بواسطة واديين كانا يجريان من هذه الجبال نحو البحيرة بمياه الأمطار الغزيرة في ذلك الوقت ، وقد استحالاً في الوقت الحاضر إلى واديين جافين . ويحد السهل من الشمال جبل السلسلة . وهذه المياه التي كان يجلبها نهر النيل من الجنوب والواديان من الشرق كانت تحمل معها كميات كبيرة من الحصى والرمل والطين وتلقى بها في البحيرة إلى أن امتلأت بها . والطبقة العليا من هذه الرواسب طميية يبلغ سمكها حوالي العشرين متراً . وهذه هي الطبقة التي تضم آثار العصر الحجري القديم الأعلى والتي كشف فيها فنيار عن آثار الحضارة السبيلية

وقد استند قنيار على عاملين في القول بوجود ثلاثة مراحل حضارية في هذه الطبقات . أما العاملان فهما (١) شكل الآلات (٢) المستوى الذى وجدت عليه الآلات، فقد وجدت في مدرجات ذات ارتفاعات مختلفة تدل على المستويات المتعاقبة للبحيرة التى كانت تجف بالتدريج. وأما المراحل الحضارية الثلاثة فى :

١ - المرحلة القديمة وهى ذات آلات شبيهة بالآلات الموستيرية .

٢ - المرحلة الوسطى وهى ذات آلات متوسطة الاتقان - Le niveau inter

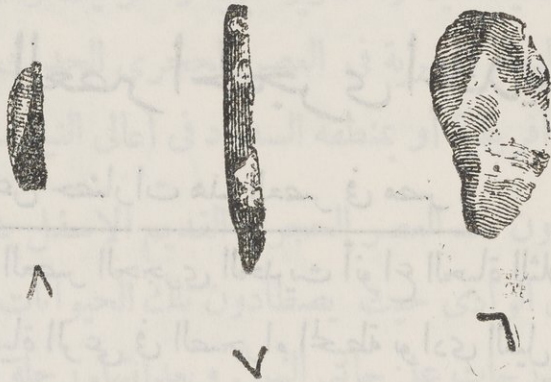
mediaire de perfectionnement

٣ - المرحلة الأخيرة وهى ذات آلات قزمية Le niveau a microliths

وقد وجد بهذه الحضارة أنواع مختلفة من الآلات الحجرية كالسكاكين والمثاقب والأسلحة ذات الأسنان ولكن لم توجد بها محتات شبيهة بالمحتات الأورينياسية أو المجدلينية فى أوروبا . ومن أهم الآلات السبيلية الشظايا المثلثة الشكل المشطوفة من الجانبين . وكذلك وجدت بهذه الحضارة أكوام من فضلات المطبخ كما وجدت بها آثار مواقد القوم . ولم يعثر بقريبة سبيل القديمة على أى أثر يدل على أن القوم عرفوا صناعة الآوانى الفخارية . ولقد خلفت مواقد السبيليين تحتها رقائق من الطين المحروق تؤذن بقرب اختراع صناعة الفخار . غير أن هذا الاختراع لم يتم إلا فى العصر التالى لعصر هذه الحضارة .

وبدراسة الآلات بأشكالها المختلفة وعلى مستوياتها المختلفة أمكن ملاحظة التدرج من الصناعة الموستيرية إلى الصناعة القزمية وذات الأشكال الهندسية (انظر شكل ٤٢) غير أنه يلاحظ على تقسيم قنيار لهذه الحضارة إلى قديمة ووسطى وحديثة أن السبيلية القديمة ليست شيئاً آخر غير الموستيرى المصرى ولا تستحق اسم سبيلية وأما الوسطى والحديثة فمع أنهما يكونان حضارة مختلفة عن الموستيرى المصرى إلا إنهما لا يختلفان فيما بينهما اختلافاً بينا يبرر التفرقة بينهما ، فالفرق الوحيد بين السبيلية الوسطى والسبيلية الحديثة أن آلات الأخيرة أصغر حجماً . ومن هنا كان الأفضل تقسيم

طبقات قرية سييل إلى قسمين : قسم يضم آثار الحضارة الموستيرية المصرية والقسم
الآخر يضم الحضارة السبيلية .



شكل (٤٢) أمثلة من الأسلحة السبيلية

رقم ٦ سييل قديم رقم ٧ سييل متوسط رقم ٨ سييل حديث

ولقد عثر ساندفورد وآركل في جهات مختلفة من وادي النيل على آلات
يمكن نسبتها إلى الحضارة السبيلية .

الفصل السادس

حضارات العصر الحجري الحديث في مصر

قصة الكشف عن حضارات هذا العصر في مصر .

نجد في مصر في العصر الحجري الحديث أنواع الحياة الثلاثة التي يمتاز بها هذا العصر وهي : (١) حياة الرعي في الصحراء المحيطة بوادي النيل (٢) حياة الزراعة في الوادي نفسه (٣) حياة المدن في النقط الهامة على طول مجرى النهر .

ولا بد عند تأريخ العصر الحجري الحديث في مصر من التفريق بين الوجهين البحري والقبلي . فالوجه البحري - ويطلق عليه أيضاً مصر السفلى أو الدلتا - منطقة مكشوفة كانت كثيرة المستنقعات وكان الاتصال ميسراً بينها وبين جيرانها في الغرب (ليبيا) وفي الشرق (فلسطين وسوريا) وفي الشمال (البحر المتوسط) . وأما الوجه القبلي - ويطلق عليه أيضاً مصر العليا أو الصعيد - فعبارة عن شريط طويل ضيق تحيط به من الجانبين هضبة صخرية تخرقها وديان كانت تجري بالمياه في العصر المطير ولا سيما من الجانب الشرقي . وقد اتخذت هذه الوديان بعد انتهاء العصر المطير طرقاً للتواصل بين وادي النيل وساحل البحر الأحمر أو بينه وبين سلسلة الواحات في الغرب .

وإذا كانت المنطقة الواقعة جنوب القاهرة غير ممطرة في الوقت الحالي فأنها في العصر المطير لم تكن كذلك ، بل أن وديانها الصحراوية الجافة حالياً كانت عامرة بالمياه وكانت شواطئها مزدهرة بالحشائش وربما بالحبوب البرية أيضاً : وكان يعيش على هذا العشب البري قطعان من الحيوانات البرية كالخير والأغنام والغزلان والزراف وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود . وقد ظلت صور هذه المناظر الطبيعية مطبوعة في أذهان المصريين يتوارثونها جيلاً بعد جيل حتى وجدناهم

يصورونها في العصر التاريخي على جدران مقابرهم . هذا في الصحراء المحيطة بالوادي وأما في الوادي نفسه فكانت المستنقعات الكثيرة تنتشر حول النهر، وكانت توجد في هذه المناطق المستنقعية الفيلة والخنازير البرية والخريت والتماسيح . ويمكن أن نقول بصفة عامة أن البيئة المصرية في العصر الحجري الحديث كانت شديدة بيئة السفانا الحالية بوسط أفريقية أو بمنطقة السدود في أعلى النيل .

ولقد كان الصيادون منذ العصر الحجري القديم الأسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادي حيث يصطادون تلك الحيوانات كما دلت على ذلك آلاهم الموجودة بالمدرجات على جانبي النهر . وبعد انتهاء رحلة الصيد يعود هؤلاء الصيادون أدراجهم إلى مناطق سكنهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات . ثم جاء إلى هذا الوادي أصحاب الحضارة القفصية واختلطوا بالمصريين الذين كانوا ما زالوا في مرحلة الحضارة الموسيرية وتنتج عن ذلك الحضارة المكتشفة في قرية سبيل بالقرب من كوم امبو والمكتشفة على طول القنوات المؤدية إلى الفيوم ثم في جهات أخرى من القطر المصري . فلما ازداد الجفاف بالصحراء ازدادت هجرة الناس إلى الوادي وتجمعهم فيه واستقرارهم به ، وقد هداهم هذا إلى اختراع الزراعة وبذلك تمت مقومات العصر الحجري الحديث وانتقلت مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار .

وإذا كانت الحبوب البرية كالقمح والشعير قد وجدت في مصر في ذلك الوقت فمن الجائز أن اختراع الزراعة حدث في هذه البلاد . فقد كان الفيضان السنوي للنيل يسبب نمو هذه النباتات بعد فصل الخريف من كل عام دون تدخل الإنسان ، ثم يأتي قيظ الصيف وجفافه فيميتانها ، ثم يحياها النيل مرة أخرى بعد فصل الخريف وهكذا . فمن الجائز أن هذه العملية المتكررة استرعت انتباه أحد أذكيا المصريين في ذلك العهد الغابر فاخترع فكرة الزراعة وبذر البذور بمعرفة الإنسان .

ولدينا بالوجه القبلي خمس حضارات تمثل العصر الحجري الحديث بما فيها الفترة الأخيرة من هذا العصر التي توضع في مرحلة حضارية خاصة يطلق عليها اسم

« عصر ما قبل الأسرات » ،

أما هذه الحضارات فهي مرتبة من الأقدم إلى الأحدث .

(١) دير تاسا (بالقرب من البدارى)

(٢) البدارى .

(٣) العمرة (بمصر الوسطى) .

(٤) جرزة (بين بنى سويف والواسطى) .

(٥) سماينة (بالقرب من نقادة) .

فأما الحضارتان الأولى والثانية فهما اللتان تمثلان العصر الحجري الحديث الصميم .

وأما الحضارات من الثالثة إلى الخامسة فتشمل عصر ما قبل الأسرات ويطلق

عليها مجتمعة اسم « حضارة نقادة » كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

إذا انتقلنا إلى الفيوم نجد عندنا حضارتين هما (١) حضارة الفيوم الأولى (فيوم أ)

(٢) حضارة الفيوم الثانية (فيوم ب) وتوضع الأولى منهما في العصر الحجري

الصميم وتوضع الثانية في عصر ما قبل الأسرات .

وأما بالوجه البحرى فلدينا أربع حضارات هي كما يأتى مرتبة من الأقدم للأحدث:

(١) حلوان الأولى (حلوان أ أو حضارة العمرى) بالقرب من مدينة حلوان

(٢) مر مة بنى سلامة بالقرب من الخطاطبة في غرب الدلتا .

(٣) حلوان الثانية (حلوان ب) بالقرب من مدينة حلوان .

(٤) المعادى شرق مدينة المعادى الحالية .

وتوضع الحضارتان الأولتان في العصر الحجري الحديث الصميم وتضع

الحضارتان الثالثة والرابعة في عصر ما قبل الأسرات .

ويمكن الربط بين الحضارات المصرية عموماً في هذا العصر ربطاً زمنياً على النحو الآتي :

التاريخ	الوجه البحري والفيوم	الوجه القبلي
٣٢٠٠ قبل الميلاد	الأسرة الفرعونية الأولى	الأسرة الفرعونية الأولى
» » ٤٠٠٠	حضارة المعادي	حضارة سماينة
	» حلوان الثانية (حلوان ب)	» جرزة
	» الفيوم الثانية (فيوم ب)	» العمرة
		» البداري
» » ٥٠٠٠	» مرمدة بني سلامة	» دير تاسا
	» الفيوم الأولى (فيوم أ)	
» » ٦٠٠٠	» حلوان الأولى (العمرى	
	أو حلوان أ)	

ويمكن القول أن العصر الحجري الحديث في مصر يبدأ حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد . وقد استطاع الإنسان المصرى في هذا الوقت المبكر أن يستأنس الحيوان ويعيش على الرعى وأن يكتشف الزراعة ويشيد المساكن وينظم الجماعة على أساس المصلحة المشتركة كما تمكن من صنع الأواني الفخارية والآلات الصوانية المتعددة الاشكال تبعاً لتعدد الغرض من صنعها . ثم دخل هذا الإنسان في الدور الذى نسميه عصر ما قبل الاسرات . وما يميز هذا الدور الأخير عن الدور السابق له هو أنه في عصر ما قبل الاسرات كثر استعمال النحاس في صناعة بعض الآلات ، هذا فضلاً عن الرقى الملحوظ في مظاهر الحضارة المختلفة .

ولا تدل قلة الحضارات المكتشفة بالذات على أنها كانت في هذا العصر أقل

حضارة من الصعيد ، بل العكس هو الصحيح . فقد كانت الدلتا في العصر الحجري الحديث أكثر تقدماً من الصعيد إذ توفر لها من مقومات الحضارة ما لم يتوفر للصعيد . فأرضها الزراعية أكثر اتساعاً ومناخها أكثر اعتدالاً ، وصلاتها الثقافية ميسرة بجيرانها في الشرق والغرب والشمال . ولهذا كان عدد سكانها أكبر ومدنها أعظم . غير أن غرين النيل غطى معظم آثار هذا العصر بالدلتا بسبب استواء سطحها وقرب مستوى أرضها من مستوى ماء النهر ، في حين أنه لم يستطع أن يفعل ذلك بالصعيد لأن قرى الصعيد كانت تبنى في أماكن مرتفعة بعيدة عن منال الفيضان . ولا نستطيع أن نعثر في الوقت الحاضر على آثار العصر الحجري الحديث بالدلتا إلا عند أطرافها بالقرب من حافة الصحراء حيث توجد بعض الأكمات التي قامت عليها قرى مرتفعة من هذا العصر .

ويطلق على الحضارات الثلاثة الأخيرة بالصعيد (العمرة وجرزة وسمانية) اسم حضارة نقادة نسبة إلى بلدة نقادة بالقرب من الأقصر فقد دلت الآثار المكتشفة من هذه الأماكن ومن أماكن أخرى سيرد ذكرها فيما بعد على أنها حضارة واحدة متدرجة نحو الرقي . وقد قام فلاندرز بترى بالحفر في نقادة وإليه يرجع الفضل في الكشف عن معالم هذه الحضارة وفي تعريف الناس بهارغم أنه أخطأ في معرفتها في بادئ الأمر ووضعها في عصر غير عصرها الصحيح . وقد حفر دى مورجان أيضاً في هذه المنطقة وكشف عن كثير من آثار حضارة نقادة إلا أنه سماها باسم مختلف هو حضارة طوخ نسبة إلى قرية طوخ بالقرب من قرية نقادة . وأطلق على هذه الحضارة اسم « مخلفات المطبخ في طوخ » Kjoekkenmoeddings de Toukh وإذا كان مانشره دى مورجان عن هذه الحضارة لم يصل من حيث التنظيم العلمي إلى مستوى مانشره بترى عنها ، فإن الفضل في تحديد عصر هذه الحضارة يرجع إلى دى مورجان فقد وضعها بحق في عصر ما قبل الأسرات في حين أخطأ بترى في مبدأ الأمر ووضعها في عصر الانتقال بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى . ثم لم يلبث بترى أن عاد وأخذ برأى دى مورجان .

أما حضارة البدارى فقد أخرج آثارها بترى وبرنتون . ثم كشفت بعد ذلك حضارة أقدم من البدارى هى ديراتاسا وقد عمل فيها برنتون وسامى جبره . إذا تركنا الصعيد وانتقلنا إلى الفيوم نجد أن من كيتون تمسون تبحث منحدرات الفيوم وتوفق إلى كشف آثار حضاره تابعه للعصر الحجري الحديث نسميها « حضارة الفيوم » . وقد ازدهرت هذه الحضارة حينما كانت بحيرة قارون على ارتفاع ستين متراً فوق مستواها الحالى . وكان سكان العصر الحجري الحديث يعيشون حول شواطئ هذه البحيرة وينحدرون مع هذا الشاطئ كلما أخذ مستوى البحيرة فى الإنخفاض .

وأما فى منطقة حلوان فقد وجد أمين العمرى على بعد ثلاثة كيلومترات شمال حلوان محلة بها أسلحة تشبه أسلحة العصر الحجري الحديث بالفيوم . كما وجد بالمكان مواقد مما يدل على أنه كان قرية من قرى هذا العصر ، وعلى بعد مئات من الأمتار من مساكن القوم وجدت مجموعة من المقابر بها عظام بشرية وحبتان من العقيق . وقد أدركت مصلحة الآثار المصرية أهمية هذا الكشف فعهدت إلى بوقيه لايير بالإشراف العلى على حفائر تجرى بهذا المكان ، يساعده أمين العمرى . ولما سكن العمرى لم يلبث أن انتقل إلى جوار ربه بعد البدء بالحفر بقليل ، فأطلق بوقيه إسمه على هذه الحضارة تخليداً لذكراه واعترافاً بفضله .

بعد ذلك قام الأستاذ هرمان يونكر — مدير المعهد الألمانى والأستاذ السابق بجامعة فؤاد الأول — بأبحاثه على حافة الدلتا الغربية يعاونه نخبة من العلماء الألمان . وقد أدت أعمال الحفر إلى الكشف عن حضارة مرمدة بنى سلامة . وقد حال قيام الحرب الأخيرة دون أتمام البحث فى هذه المنطقة ، ولعل أحداً من المصريين يتم ما بدأه العلماء الألمان .

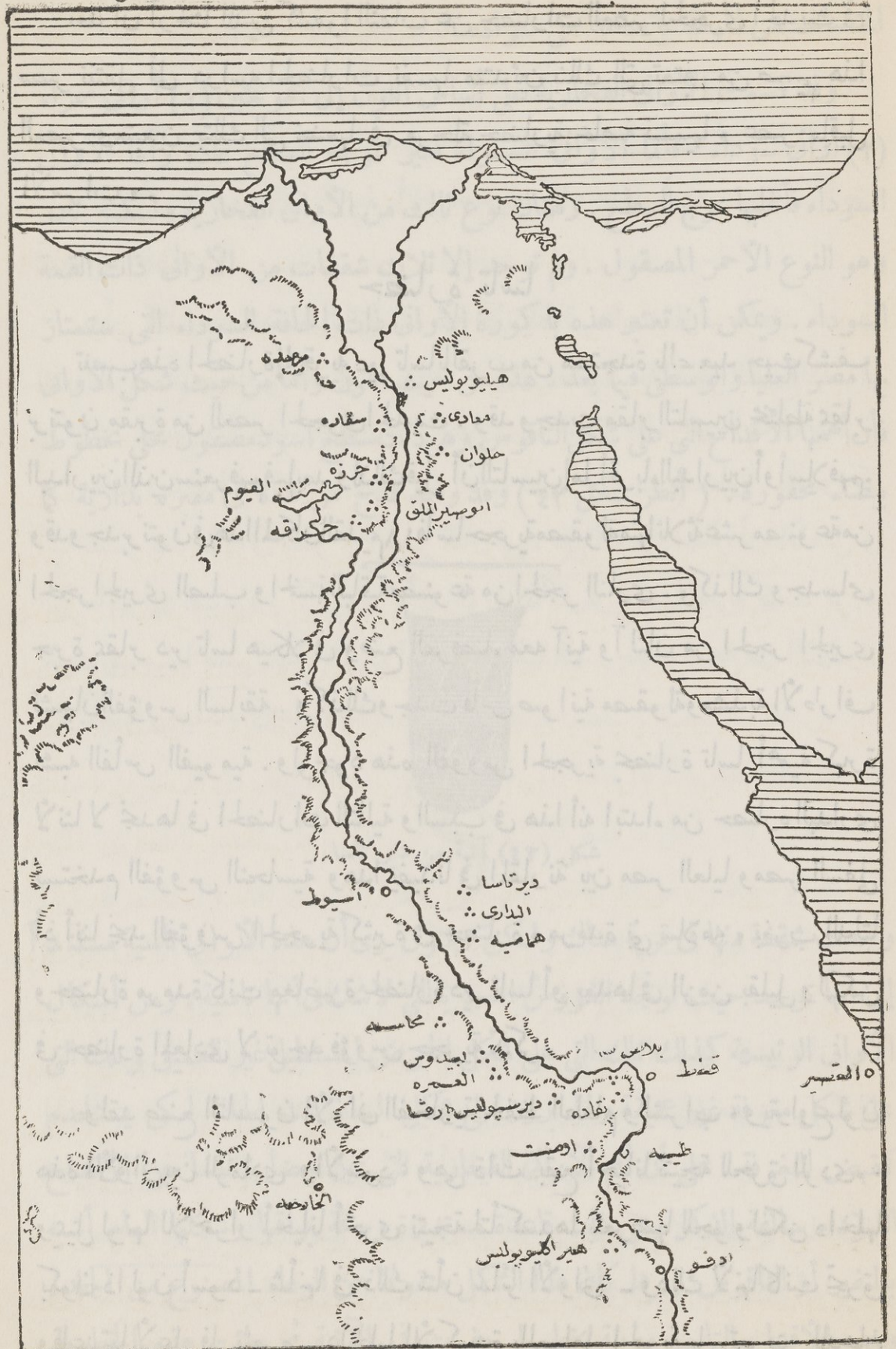
ثم فى سنة ١٩٣١ بدأت الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول حالياً) أعمال الحفر بالصحراء الواقعة شرق مدينة المعادى تحت إشراف الأستاذين مصطفى عامر وأزوال المنجى ، ثم استقل الأستاذ مصطفى عامر بالعمل فى هذه المنطقة منذ سنة ١٩٣٤

ومع أن أعمال الحفر مازالت مستمرة حتى الوقت الحاضر بسبب اتساع المدينة ووفرة آثارها ، إلا أن ما ظهر من نتائج يكفي لرسم صورة واضحة عن حضارة الدلتا عامة وحضارة المعادى خاصة في عصر ما قبل الأسرات . وستتم هذه الصورة بشكل رائع — يوم أن تتم أعمال الحفر بالمعادى وتنشر نتائجها النهائية — بسبب النظام العلى الدقيق الذى يسير عليه العمل فى هذه الحفائر .

وفى سنة ١٩٤٣ أذنت مصلحة الآثار المصرية للمسيو دى بونو بالحفر فى منطقة حلوان فى نفس المنطقة التى أخرجت منها آثار حضارة العمرى أو بالقرب منها . وقد نتج عن أعمال الحفر هذا المكان إخراج مجموعة من الآثار القيمة وضعها دى بونو فى مرتبة حضارة العمرى وسماها فعلا بهذا الإسم . ولكن الأستاذ مصطفى عامر يرى بناء على فحصه لمجموعة الآثار التى أخرجها دى بونو أن هذه الآثار تمثل حضارة أرقى من حضارة العمرى وأحدث منها فى الزمن حتى لتقترب فى زمنها من حضارة المعادى نفسها ولذلك فهو يفضل التمييز بين حضارتى حلوان ، فتعتبر العمرى حضارة حلوان الأولى أو حلوان ١ وتعتبر مجموعة دى بونو ممثلة لحضارة أخرى يطلق عليها حضارة حلوان الثانية أو حلوان ب على مثال ما اتبع فى الفيوم إذ فرق العلماء بين الفيوم أ والفيوم ب

وقد شملت أبحاث هذا العصر كذلك بلاد النوبة السفلى فى منطقتى اسوان ووادى حلفا . فتتبع عن ذلك الكشف عن حضارة من العصر الحجري الحديث تشبه حضارة نقادة ولذلك تقسم مراحلها إلى نفس المراحل التى قسمت إليها نقادة وهى العمرة وجرزة وسمانية . ويطلق الأستاذ يونكر على حضارة النوبة السفلى فى هذا العصر اسم حضارة الكوبانية .

ويجدر بنا فى هذا المقام ألا نغفل جهود الدكتور سليمان حزين الأستاذ بجامعة فاروق الأول . فهو بسبب خبرته الشامة بصناعة الآلات الحجرية القديمة قد ساهم فى أكثر من مكان فى خدمة هذا العصر وتعريف الناس بآثاره ، ولا سيما بدراسة الآلات الحجرية بمنطقتى أرمنت والفيوم .



شكل (٤٣) خريطة تبين أهم المواقع الأثرية

بعد أن أرخنا للذين كشفوا النقاب عن حضارات العصر الحجري الحديث في مصر ننقل إلى دراسة الحضارات نفسها مبتدئين بذلك التي تعتبر من صميم هذا العصر ومتبعين بتلك التي نضعها في مرحلة حضارية خاصة نسميها « عصر ما قبل الأسرات ».

حضارة تاسا

تنسب هذه الحضارة إلى قرية دير تاسا بالقرب من مستجدة بالبحر الأحمر حيث كشف برنتون مقبرة من العصر الحجري الحديث . وقد وجدت مقابر التاسيين مختلطة بمقابر البداريين الذين سنعرفهم فيما بعد ولذلك قيل أن التاسيين إما أقرباء البداريين أو أسلافهم . وقد وجد برنتون في هذا المكان القديم ١٨ فأسا حجرية مصقولة منها ثلاثة عشر مصنوعة من الحجر الجيري الصلب والخمسة الباقية مصنوعة من الحجر الناري . وكذلك وجد سامي جبرة بمقابر دير تاسا هيكلًا في وضع القرفصاء معه آنية و آلتان من الحجر الجيري تشبهان الفؤوس السابقة . وكذلك وجدت فأس صوانية مصقولة ومشذبة الأطراف تشبه الفأس الفيومية . ولوجود هذه الفؤوس الحجرية بحضارة تاسا أهمية كبيرة لأننا لا نجد لها في الحضارات التالية والسبب في هذا أنه ابتداء من حضارة البداري تستخدم الفؤوس النحاسية وهذا يفيدنا في المقارنة بين مصر العليا ومصر السفلى إذ أننا نجد الفؤوس الحجرية كثيرة في حضارة « مرمدة بنى سلامه » بغرب الدلتا وحضارة مرمدة كانت معاصرة لحضارة دير تاسا أو بعدها في الزمن بقليل ولكن في حضارة المعادي لا توجد فؤوس حجرية تذكر .

ولقد صنع التاسيون الأواني الفخارية لحفظ الطعام والشراب ، ويتراوح لون هذه الأواني بين الرمادي والأسود ، وهي ذات بقع أحيانًا نتيجة للحرق الرديء ، ويميل لونها للاحمرار أحيانًا أخرى نتيجة لتأكسدها بتعرضها للجو ولكن داخلها يكون ذا لون أسود - شأنها في ذلك شأن سائر الأواني - وذلك لأنها كانت تحرق وقاعدها لأعلى فلم يتعرض داخلها للأكسدة بالعوامل الجوية بل تعرض للدخان

المتصاعد من الموقد مما ساعد على سواده .

وقد قسمت الأواني الفخارية على أساس اللون إلى مجموعتين (١) أواني سمراء (٢) أواني سوداء . فأما الأواني السمراء فغير بموجة السطح عادة وأما الأواني السوداء فأغلبها موج السطح . وهناك نوع ثالث من الأواني الفخارية ولكنه نادر وهو النوع الأحمر المصقول . ولم توجد إلا ثلاث شقفات من الأواني ذات القمة السوداء . ويمكن أن تعتبر هذه با كورة الأواني ذات الحافة السوداء التي ستمتاز بها مصر العليا والوسطى فيما بعد . هذا من حيث اللون وأما من حيث شكل الأواني فأن أهمها الأقداح التي على شكل الناقوس وهي ذات سطح اسود مصقول محلي بخطوط بيضاء محفورة . (أنظر شكل ٤٣) وقد وجد قدح من هذه في مقبرة بدارية كما

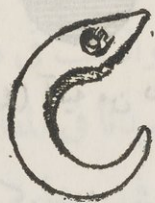


شكل (٤٣) آنية من دير تاسا

وجدت شقفة منها في قرية هناك ولكن برنتون يرى أن هذه الأواني تاسية مستنداً إلى أنها توجد حيث توجد الفؤوس الحجرية التي لا شك في أنها تاسية . ومن أشكال الأواني الرئيسية كذلك تلك التي على شكل الحوض المستطيل غير العميق وتلك التي على شكل مغرفة غير عميقة ولها بروز على شكل لسان عند الحافة لكي يستخدم كمقبض للمغرفة . على أن أهم الأواني الفخارية التي تميز حضارة تاسا هي الأقداح السوداء سالفة الذكر وهي ذات قاعدة مستديرة وحافة براقها وشكلها العام أشبه بالنفير أو الناقوس وربما كان هذا الشكل منقولاً عن الوعاء المصنوع من الجلد . وهذه الأقداح التاسية مزينة بخطوط حفرت في الآنية ثم ملئت هذه الخطوط

بطلاء أبيض . ورسوماتها الدائرية ربما كانت منقولة عن شكل الأسبته . وما زالت الأسبته التي من نفس الشكل والرسم تصنع في بعض جهات افريقية إلى اليوم . وما زاد في أهمية هذه الأقداح التاسية ظهور آنية مماثلة لها في غرب أوروبا مما يبعث على الظن بأن الأقداح الأوروبية مأخوذة عنها . كما وجدت أواني شبيهة بها أيضاً في منطقة الفرات .

ومن آثار هذه الحضارة التي تسترعى الانتباه اللوحات المرمرية فقد عثر في ثلاث من مقابرها على لوحات ليست من الاردواز كمعظم لوحات فجر التاريخ المصري وإنما من المرمر (الألباستر) أو الحجر الجيري . وتفيدنا هذه اللوحات في المقارنة بين حضارات الدلتا والصعيد إذ أن لوحات المرمر توجد بحضارة المعادي كما أنها تنتشر بعد ذلك في مصر في العصر التاريخي . على أنه من الجائز أن الأصل في اللوحات أن تصنع من الاردواز وأن اللوحات المرمرية أو الجيرية كانت توجد حيث يصعب الحصول على الاردواز ، ومع ذلك فقد وجدت لوحة من الاردواز - ولكنها وحيدة - في دير تاسا .



شكل (٤٤) سنارة لصيد السمك من دير تاسا

ومن آثار هذه الحضارة كذلك المنشار المصنوع من الصوان الذي يمتاز ببعد المسافات بين أسنانه والمشط ذو الحز في ظهره الذي يشبه أمشاط مرمدة . وكذلك عرفو صناعة السنانير لصيد السمك (أنظر شكل ٤٤) .

مقابر القوم : كان التاسيون يدفنون موتاهم في حفر كبيرة يضعون فيها الهيكل في وضع مقرفص . وتختلف مقابر تاسا عن مقابر البداري في أمر واحد، ذلك أنه يوجد ببعض مقابر تاسا طاقة محفورة في الجانب الغربي للمقبرة يوضع فيها ما يمكن أن نسميه

أثاث المقبرة وهى الأدوات التى توضع مع الميت لاستخدامها فى الحياة الأخرى . وقد دل شكل الهياكل على أن معظم القوم من أصحاب الرموس المستطيلة وعلى أن بعض الجماجم أعرض وأقوى كما أن الوجه أعرض من وجوه أقوام عصر ما قبل الأسرات فى مصر العليا والوسطى وهى الأقوام الأحدث زمناً من التاسيين . ولذلك قيل بأن التاسيين جنس بشرى مختلف عن الجنس الذى سكن مصر من بعدهم . ولا يعرف بالضبط عمر المقابر التاسية ولكن يمكن وضعهم على رأس مجموعة المقابر الأحدث زمناً التى تضم هياكل المصريين من عصر ما قبل الأسرات . ويمكن أن نرجع التاسيين إلى نفس جنس الهدندوة الحاليين — أى أنهم حاميون — واعتبارهم من الزراع .

المرتبة الحضارية لأهل تاسا :

حضارة تاسا هى أقدم حضارات العصر الحجري الحديث بالصعيد وقد كان أهلها يدفنون موتاهم فى جبانات مستقلة عن مساكن الأحياء وكانت مقابرهم عبارة عن حفر مستطيلة وبعضها طاقات يوضع فيها أثاث المقبرة . وهذا يدل على أن المرتبة الحضارية لأهل تاسا كانت أعلا من أهل مرمدة رغم أن الأخيرين أحدث فى الزمن ، فإن أهل مرمدة كانوا كآسلافهم من أهل العصر الحجري المتوسط مازالوا يدفنون موتاهم داخل المساكن بالقرب من المواقد . ولسنا نعرف شيئاً عن مساكن أهل تاسا كما لا نعرف شيئاً عن المواد التى كان يستعملها الأحياء ألا ما وجد فى مقابرهم . فأما صناعتهم الصوانية فكانت عبارة عن صناعة نواة غير راقية يستخدم فيها الصوان المحلى . وكانوا يستعملون قووساً مصنوعة من أنواع مختلفة من الحجارة وكان للفأس حدقاطع . وقد سبق أن ذكرنا أن أوانيهم الفخارية فيها الأسمر والأسود وبعضها موج السطح ، وأنهم كانوا يعرفون صناعة الآنية الحمراء المصقولة . وقد وجد بهذه الحضارة نوع من الأواني الفخارية مخروط الشكل مزدوج . وليس هناك ما يثبت أو ينفي أصالة الآنية ذات الحافة السوداء بدير تاسا غير أنه يلاحظ أنه حتى الدولة الحديثة كان أهل النوبة يقدون إلى مصر ومعهم أواني فخارية ذات قبة سوداء

شبيهه بأواني فجر التاريخ المصري. وقد يبعث هذا على الظن بأن أصل هذه الأواني نوبي لا سيما وأن هناك شها كبيراً بين النوبة ومصر في أدوات فجر التاريخ كالآلات الصوانية والفؤوس الحجرية والأواني الفخارية. كما أن هذا يؤيد رأى القائلين بأن سكان مصر الأقدمين وفدوا من الجنوب.

ونحن إذا نظرنا إلى حياة القبائل الحامية الحالية كالهندوة نجد أنهم ظلوا حتى القرن الماضى يعيشون فى الصحراء الشرقية كراع رحل ولكنهم كانوا يحتفظون بقرى ثابتة إلى حد ما بالقرب من السهول الفيضية وكانوا يبذرون حبوب الدخن فى الأرض بعد انحسار الفيضان عنها ثم ينتظرون المحصول. فمثل هذه الجماعة التى تعيش جنوب نطاق الجفاف الشديد تمثل نوع الحياة المعزوة إلى الأسلاف المباشرين للبداريين الذين هم أقدم الزراع الذين وصلوا إلى علمنا نتيجة للبحوث الأثرية فى وادى النيل. فهذه الصورة التى كونها عن الهندوة تنطبق على الصورة التى كونها عن جماعة تاسا من المخلفات الأثرية المكتشفة فى قرية دير تاسا وغيرها من الجهات الواقعة على شاطئ النيل الشرقى بجوار البدارى.

وكان التاسيون يعرفون الزراعة بدليل الحبوب التى وجدت بمقابرهم غير أنهم لم يكونوا يعيشون معيشة استقرار تامة بدليل ندرة مقابرهم وشدة تفرقها. وكانوا إلى جانب الزراعة البدائية يمارسون صيد البر وصيد النهر وكان رأس الدبوس من أسلحتهم إذ وجدت آلة القتال هذه فى إحدى مقابرهم ولكن من الغريب أنها مقبرة امرأة. وكانت الأسماك تصاد بسنانير من الصدف أو عظام القرون.

وفى عهد التاسيين كانت مساحات كثيرة من الوادى ما زالت مغطاة بالمستنقعات وكانت الأشجار الضخمة ما زالت تشغل قاعدة الهضبة بالقرب من حدود السهل الفيضى وقد صنع التاسيون الفؤوس الحجرية لقطع هذه الأشجار. ولعل اختفاء هذه الفؤوس من مصر العليا والوسطى فيما بعد سببه أن ازدياد الجفاف أفنى الأشجار فلم تعد هناك حاجة لصنع هذه الفؤوس.

وتوجد بقايا ضئيلة للمنسوجات التاسية ولكننا لا نعرف شكل الزى. ونستنج من وجود اللوحات أنهم عرفوا الزينة كطلاء الوجه بالألوان وقد قلنا أن هذه اللوحات كانت تصنع من المرمر المصرى (الالباستر) وكانت

سميكة وقائمة الزوايا ومختلفة في شكلها عن اللوحات الأحدث . وكذلك كان التاسيون يلبسون الحلى فمن مخلفاتهم أصداف البحر الأحمر المثقوبة والخرز الأسطوانى الشكل المصنوع من العظم أو العاج وقد وجد كذلك خلخال من العاج .

حضارة البدارى

وجدت حضارة البدارى فى الهمامية بالقرب من مدينة البدارى حيث كشفت المساكن والمقابر . وحينما استقر أصحاب هذه الحضارة فى هذه المنطقة كان المطر مازال يسقط بانتظام على القطر المصرى من ساحل البحر الأبيض حتى أسيوط وكانت تنمو عند قاعدة التلال الجافة بالوادى أشجار طويلة لا نجد لها مثيلا فى مصر التاريخية ولا فى الفترة الأخيرة من فجر التاريخ . وتوجد جذور تلك الأشجار فى الوقت الحاضر بين الأكواخ والمقابر التى تمثل هذا العصر .

وقد استندت مس كيتون تمسون إلى أن البداريين كانوا يستعملون الحصى السطحى فى صناعتهم الصوانية رغم وجود أنواع جيدة من حجر الصوان فى تلال الحجر الجيرى القرية منهم فى القول بأن موطنهم الأصيل كان خارج هذه المنطقة المحاطة بالحجر الجيرى وأنهم كانوا يحملون وجود الصوان الجيد بها . وتنتهى الطبقات الجيرية فى الصحراء الشرقية جنوب خط عرض ٢٥° بانتهاء الطبقات الأيوسينية وبدء الطبقات الكريتاسية وأما فى الصحراء الغربية فأن الخط الفاصل بين الطبقات الجيرية والسكريتاسية أكثر بعداً نحو الجنوب ، ومن ناحية أخرى تمتد صخور الزمن الثالث الجيرية بلا انقطاع من منطقة البدارى حتى البحر الأبيض المتوسط بل تستمر فى الامتداد نحو الشمال الشرقى حتى فلسطين . فإذا سلطنا بجمل البداريين بمناطق الحجر الجيرى حيث الصوان الجيد فلا بد من القول أنهم وفدوا من الجنوب . وتعزز الأدلة الأثرية الأخرى هذا الفرض . ولقد صنعت الآلات الصوانية محليا بدليل الكمية الكبيرة من فضلات الحصى

التي وجدت بالمكان . وكانت طريقتهم في صناعة الأسلحة الصوانية طريقة الشظية بواسطة الضغط ، وقد صنع بهذه الطريقة السهام الحادة قلمسوية الشكل أو ذات الجناحين والأسلحة الرفيعة التي على شكل ورق الصفصاف ، والمكاشط الحادة والسكاكين والأسلحة ذات الأسنان كالمنجل والمنشار، وهي مشطوفة من الوجهين ومن أهم آلات البدارى الصوانية تلك المسماة بالشظية ذات الضربة الجانبية وهي شظية مقوسة عادة .

ويلاحظ أن أغلب هذه الأسلحة الصوانية من أدوات النجار بسبب كثرة الغابات في منطقتهم في ذلك الوقت ، ولم تلبث هذه الغابات أن اختفت في القسم الأخير من عصر ما قبل الأسرات بسبب زيادة الجفاف . وأما المكاشط فكانت من أدوات دباغ الجلود . وتعتبر السهام — سواء ما كان منها ذا جناحين أو على شكل ورق الصفصاف — مثلاً حسناً للصناعة البدارية (أنظر شكل ٤٥) .



شكل (٤٥) آلة صوانية على شكل ورق الصفصاف من البدارى

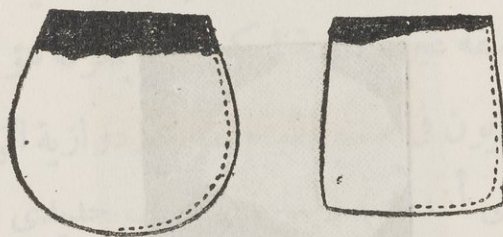
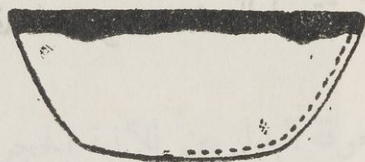
وقد امتاز البداريون على أسلافهم بمعرفة النحاس ولذلك اعتبروا في مرحلة حضارية أرقى وأحدث من التاسيين كما يرجح أنهم استعاضوا بالنحاس النحاسية عن الفأس الحجرية التي عرف بها التاسيون .

وكان عند البداريين آلات عظيمة مدببة الطرفين ربما كانت تستخدم كسهام ، كما كان عندهم من أدوات القتال بخلاف القوس والسهام — العصي القاذفة Boomerang المصنوعة من الخشب ثم القرص Mace المصنوع من الحجر الصلب وهو مشقوب

من الوسط لكي يركب في قطعة من الخشب ويستخدم في الضرب ، ويطلق البعض على هذه الأداة اسم رأس الدبوس . وكذلك عرف البداريون صناعة السنانير .

أما الأواني الفخارية ولا سيما التي صنعت لوضعها في المقابر فقد بلغت درجة من الاتقان والرقعة لم تبلغها حضارة مصرية أخرى قبل البداريين أو بعدهم . ويمكن أن نميز في صناعة البداري الفخارية بين الأنواع الآتية :

١ — أواني حمراء ذات حافة سوداء لأنها غطيت بطلاء من مادة حديدية وكانت تحرق مقلوبة بحيث يكون جزء الأنية الأسفل معرضا للهواء الطلق وبذلك يكتسب لونها احمر نتيجة لتأكسده بينما تكون حافة الأنية سوداء كما يكون داخلها ذا لون

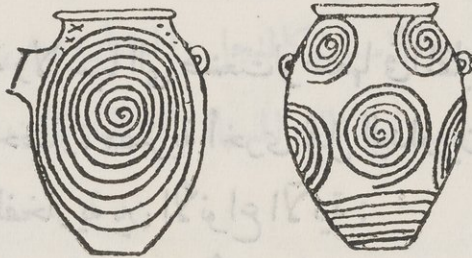


شكل (٤٦) أواني سوداء القمة من البداري

اسود كذلك . ومن الأواني المصنوعة بهذه الطريقة الجفان وهي ذات جوانب عمودية غالبا ومقعرة أحيانا . وهذه الأواني شديدة الرقة صقلت قبل ادخالها الموقد (الفرن) كما تتصف بتموج السطح وهذا هو ما يميزها عن أواني حضارة نقادة التي من نوعها فأني الأواني المموجة السطح لا توجد بعد حضارة البداري . (انظر شكل ٤٦)

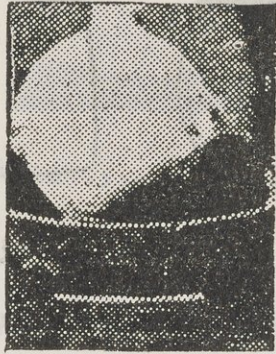
٢ — أواني سوداء مزينة برسوم بيضاء ، وهذه الرسوم عبارة عن مثلثات وخطوط مرصوفة في صفوف . وهذه الأواني ذات شكل واحد هو « القدر الذي على شكل الناقوس » وهو تقليد لصناعة الأسبته (انظر شكل ٤٧) .

٣ - أواني خشنة رديئة الاحتراق وتحتوى على قش كثير رغم أن أشكال هذا النوع متقنة ومتنوعة (أنظر شكلى ٤٨ و ٤٩) .



شكل (٤٧) أواني سوداء مزينة برسوم بيضاء من حضارة البدارى

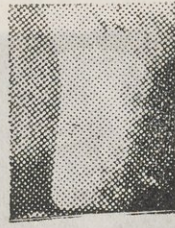
وبعض الأواني البدارية مزينة من الداخل برسوم ، وهى رسوم بسيطة معظمها على شكل فروع الشجر ، وقد استمرت هذه الطريقة فى الحضارات التالية مثل حضارة نقادة .



شكل (٤٨) انية غير جيدة الاحتراق من البدارى

وقد لوحظ على الصناعة الفخارية بالبدارى أن تمييز الآنية بعلامة خاصة تدل على الملكية أو غير ذلك من الأمور النادرة . كما لوحظ أنه رغم كثرة الأواني فإن صناعة اصلاح المكسور منها كانت موجودة ، وذلك بواسطة عمل ثقب على كلا جانبي المكسر ثم وصلها بخيط من العشب .

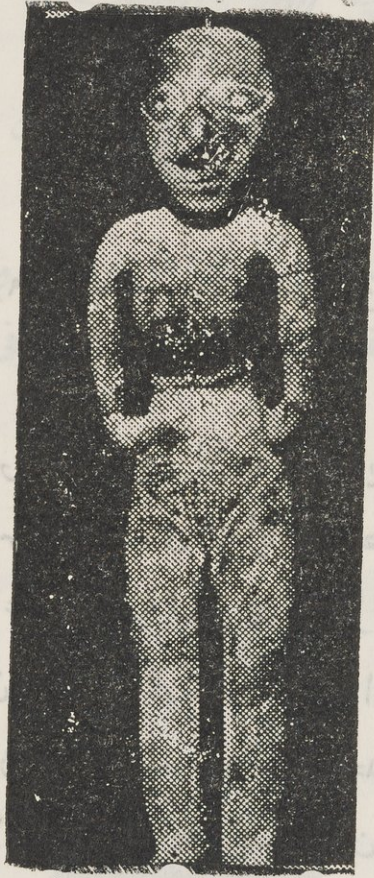
إذا تركنا صناعة الأواني الفخارية وانتقلنا إلى صناعة الأواني الحجرية نجد هناك رأيين رأى يقول أن البداريين عرفوا تجويف حجر البازلت وتشكيله إلى أواني مخروطية الشكل ذات حافة مشطوفة والرأى الثانى يشكك فى صحة الرأى الأول



شكل (٤٩) انية غير جيدة الاحتراق من البدارى

ويقول أنه لا يمكن الجزم بمعرفة البداريين للآنية الحجرية لأن كل ما كشف بالمنطقة كان عبارة عن قطع متكسرة وجدت فى النفايات السطحية ولا بد من العثور على قطع كاملة فى طبقات عميقة غير سطحية لكي نجزم بمعرفة هؤلاء القوم لهذه الصناعة ولقد تفوق البداريون فى صنع اللوحات الأردوازية التى كانت تستخدم لطحن الملاشيت (تراب نحاسى أزرق) والمغرة (تراب حديدى أحمر) وكانت هاتان المادتان تستخدمان فى طلاء العين والوجه بقصد التزين ، كما وجدت بعض لوحات من المرمر. وقد عرف البداريون صناعة التماثيل فقد وجد بمقابرهم ثلاثة تماثيل نسائية صغيرة ذات أشكال مختلفة، أحداها من الطين المحروق (من الفخار الأحمر المصقول) والثانى من الطين الغير محروق والثالث من العاج. فأما التمثال الأول فهو لا مرأة صغيرة السن يلاحظ عليه حرية فى الحركة لم تعرف فى الفن المصرى الصميم ، وهو من غير رأس كما أن جزءاً من الرجلين مفقود . وأما التمثال الثانى فهو لا مرأة صغيرة السن كذلك وهو أقل اتقاناً فى تشكيله . كما أنه كامل إلا من الصدر فهو مكسور ولم تصنع له رجلان فى الأصل وإنما قام على قاعدة مديبة كما أنه لم تصنع له ذراعان .

وقد وجد مثل هذا النوع في المقابر المصرية في الحضارات التالية ، كما وجد شبيهه له من بعض الوجوه في بعض جهات شرق البحر الأبيض المتوسط . وأما التمثال الثالث فيمثل امرأة أكبر سنا وذات رأس ضخمة وعيون واسعة وأنف كبير وصدر بارز . (أنظر شكل ٥٠)



(شكل ٥٠ . تمثال من البدارى)

وفيما عدا التماثيل كان البداريون يصنعون أشياء فنية أخرى فكانوا يصنعون من العاج القوارير والملاعق والامشاط والدبابيس وبعض الألوان الأسطوانية الشكل . كما كانوا يشكلون حبات الخرز من حجارة السكوارتز والفلسبار ، وكانوا يشكلون الأقراص من قشر بيض النعام ، ويصنعون من أصداف البحر منظومة في شكل عقود وأحزمة وأساور .

وقد دلت جبانة البداريين على أنهم كانوا يدفنون الميت في وضع مقرص في حفرة غير عميقة مكسوة بالحصير أو جلد الماعز وأحيانا تكون مغطاة بأغصان الأشجار. كما دلت على أن البداريين كانوا قصار القامة نحاف الجسم، وكانت رأسهم صغيرة ضيقة فهم في هذا شبيهون بسكان مصر في القسم الأخير من عصر ما قبل الأسرات غير أن الصفات الزنجية في البداريين واضحة، فهم يقتربون في بعض النواحي من الأجناس الهندية القديمة كال دراويديين في الهند والقدما في سيلان. وليس معنى هذا أنهم ينتمون للجنس الزنجي بل كل ما في الأمر أن فيهم صفات زنجية طفيفة، فهم حاميون عليهم مسحة زنجية. وكذلك دلت محتويات مقابرهم على أنهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى، وكانت لهم طقوس جنازية. ولما كانت التماثيل الثلاثة التي كشفت بهذا المكان وجدت كلها في مقابر فلا بد أن لها دلالة دينية أو سحرية.

وكذلك وجد بالبدارى مدافن خاصة للحيوانات، هذا بالإضافة إلى الحيوانات المدفونة مع الميت، ولهذا وذاك دلالة دينية. فقد وجد في منطقة ثلاث مقابر لنوع من الأبقار، ووجد في منطقة أخرى مقبرة لحيوان يشبه الكلب أو ابن آوى ووجدت كذلك مدافن للغنم والماعز. وعلى هذا يمكن القول كذلك أنه كان هناك تعدد في الحيوانات المعبودة فهذا يعبد ابن آوى وذاك يعبد البقرة وهكذا.

أما عن حياتهم الاقتصادية، فقد كان البداريون زراعا ولكن لا يعرف أنواع أنواع الحبوب التي كانوا يزرعونها ولا نوع الألياف التي كانوا يغزلونها، وأما زيتهم فكان زيت خروع مستخرج من النباتات البرية.

ومن المرجح أن البداريين وصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام في قرى ثابتة منظمة وأنهم لم يكونوا نصف زراع أو نصف رحل كبعض الجماعات الحالية التي تزرع الأرض ثم تتجول بأغنامها على أطراف الصحراء ولا تعود للوادي إلا لكي تحني المحصول، فلا شك أن وادي النيل الخصيب الغزير الانتاج أغرى البداريين بالاستقرار التام ماداموا قد عرفوا اختراع الزراعة.

ولقد كان للبداريين قطعانهم من الماشية والأغنام والماعز . ولما كانت الأغنام والماعز ليستا من الحيوانات الوطنية بشمال افريقية ، إذ ليس لها أجداد برية في هذا الجزء من العالم ، فلا بد أنها استئنست في الجهات التي كان فيها — وما يزال بها — أنواع برية من هذه الحيوانات أي في غرب آسيا . وربما كان أقدم جنس من الأغنام عرف في شمال أفريقيا قصير الذيل ذا المعرفة ، وموطنه الأصلي بلاد فارس ومازال يوجد حتى الوقت الحالى في وسط افريقية . والجنس الثانى من الأغنام — وهو أحدث هجرة إلى أفريقيا — ذو أقدام طويلة ، وموطنه الأصلي الجزء الشرقى من غرب آسيا . وتدل رسوم الأغنام على الأواني الفخارية بمحضرة نقادة — التي سنعرفها فيما بعد — على أن الجنس الثانى هو الذى كان موجوداً بمصر في عصر نقادة ، ولكن لا يوجد ما يدل على أنه وجد قبل ذلك .

وقد قلنا أن صناعة الصوان بالبدارى محلية بدليل أنها كلها من الحصى السطحى الموجود بالمنطقة ، ومثل هذا يمكن أن يقال على معظم الصناعات البدارية . وأما العاج الذى استعمله البداريون في صناعتهم فقد كان من الفيلة المحلية في الغالب وإن كان من الجائز أن يكون مستورداً من الجنوب . أما النحاس والتركواز فلا يعرف المكان الذى جلبهما منه البداريون فربما كان من الصحراء الشرقية أو شبه جزيرة سيناء أو هما معا . وأما الأصداف فهي من النيل والبحر الأحمر ولم يستعملوا أصداف البحر الأبيض .

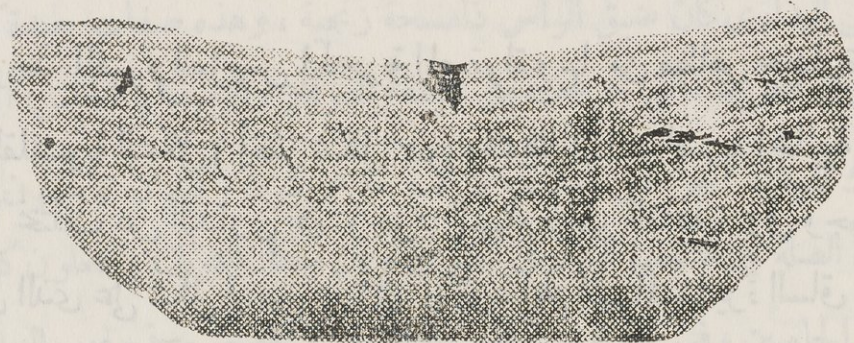
يتبين لنا من هذا الوصف أن البداريين من الناحية الثقافية لم يكونوا أرقى من القفصيين الصيادين فحسب ، بل كانوا أرقى من أية جماعة من جماعات العصر الحجري الحديث في أوروبا . إذ كانوا يعيشون في قرى منظمة يزرعون الحبوب ويرعون الحيوانات المستأنسة ، هذا بخلاف صيد البر وصيد النهر . وكان يلبسون ملابس مصنوعة من الألياف النباتية أو من جلود الحيوانات . وكانوا مهرة في صقل الحجارة وفي الغزل والنسيج وفي صناعة الاسبته والأواني وفي نحت الخشب والعظم

والعاج . أى أنهم كانوا مهرة فى كل الصناعات التى ندخلها تحت اسم « العصر الحجرى الحديث » .

وقد وجدت بينهم وبين سكان ساحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء علاقات تجارية فاستمدوا من الأول الاصداف لصنع العقود ، ومن الاخيرين الملاشيت لطلاء العين .

حضارة الفيوم

فى نفس الوقت الذى انحدر فيه البداريون إلى منطقتهم فاستوطنوها بل ربما قبل ذلك وصلت جماعة أخرى شبيهة بالشعب البدارى إلى شواطئ بحيرة الفيوم فاستقرت عليها . وكانت البحيرة فى هذا الوقت تملأ المنخفض إلى ارتفاع ستين متراً فوق مستوى البحيرة الحالى . وكان شعب الفيوم يزرع الحبوب كالشعير ويرعى القطعان كالثيران ، هذا فضلاً عن الحرف القديمة كصيد السمك وصيد الحيوانات .



شكل (٥١) سبت من الفيوم

وكانوا يخزنون حبوبهم فى مخازن خاصة . وقد عرفوا صناعة الأسبته (أنظر شكل ٥١) كما كانوا يعرفون معظم الفنون التى رأيناها فى البدارى فيما عدا النحاس والخرز وجلبوا بواسطة التجارة الأصداف من البحرين الأبيض والأحمر . ولا نجد هنا بعض المظاهر الهامة التى رأيناها فى البدارى مثل الأواني الفخارية الجميلة ، ومثل

السنانير ومثل العاج المشغول ومعظم الحلى. ولكن يلاحظ أنه لم تكتشف مقابر بالفيوم ، وربما يؤدي كشف المقابر إلى ظهور أشياء جديدة .



(شكل ٥٢ سهم قلنسوى الشكل ومنشار من الفيوم)

وتوجد بالفيوم الفؤوس الحجرية المصقولة وبها من مظاهر حضارة البدارى السهام القلنسوية الشكل (أنظر شكل ٥٢) والشظايا ذات الضربة الجانبية والحرارة ولكنها تختلف عن البدارى فى وجود السهام ذات القاعدة وفى وجود رأس الدبوس الذى على شكل قرص ، وفى وجود الحراب المستديرة الساق التى تخرج منها شوكتها . أما الأنية الفخارية بالفيوم فهى من نوع غير متقن الصنع ، فعبجيتها رديئة وحرقتها غير جيد .

ويدل توزيع الآلات الصوانية على أن شعبا شديدا بشعب الفيوم والبدارى كان يعيش فى الواحات والمجارى المائية الصحراوية وينتشر فى القسم الجنوبي من مصر من وادى النيل حتى الواحة الخارجة وفى قسمها الشمالى من حلوان حتى سيوة . وتدل المناطق التى وجدت فيها هذه الآلات على أن سكانها اختاروا مناطق صالحة للزراعة وصيد

الأسماك . ويظهر أن هذه المناطق هي المنبع الذي استمد منه جنوب تونس والجزائر حضارته في العصر الحجري الحديث . ففي هذه المحطات الغربية نجد بعض مظاهر حضارة الفيوم ممثلة مثل السهام القلنسوية الشكل . وتظهر هذه الآلات الفيومية كعناصر شاذة وسط مظاهر الحضارة الجتولية (الليبية) ذات الأسلحة الحجرية القزمية الصرفة .

يقول السير فلنדרز پترى أن البداريين واقربائهم الفيوميين أتوا من جهات القوقاز ، ويقول أنهم فرع من العائلة التي هاجرت إلى أوروبا وأسست بها الحضارة السولترية ، مستندا في ذلك إلى التشابه الموجود في الصناعة الصوانية بين الحضارتين . ولكن الحقيقة أن هذا التشابه سطحي لا يؤدي إلى هذا الرأي الخطير ، ثم أننا لم نجد حضارة سولترية في آسيا أو القوقاز . والأقرب من هذا أن نقول أن أوراق الصفصاف البدارية مستعارة من السيكية الأفريقية . وقد قيل في تأييد النظرية القوقازية أن بعض أسماء الأماكن القوقازية والأرمينية وجدت في كتاب من سوريا إلى مصر . ولكن تقوم عقبة كبيرة في سبيل هذه النظرية وهي أن الجنس البداري كان ضيق الرأس ذامسحة زنجية ، وهذه صفات بعيدة كل البعد عن الروس العريضة التي خرجت من منطقة القوقاز وارمينيا (الجنس الآلي) .

هناك لفيف آخر من العلماء يتلف من برنتون وكتون تومسون وينكر وجودون الصلة بين الشعب البداري الفيومي وبين سكان النوبة ، ويجعلون كل هؤلاء شعبة من الحاميين ، فهم شعبة من المجموعة القفصية تخصصت في وادي النيل .

أما وجود الصفات الزنجية في الهياكل البدارية فقد أدى إلى ظهور نظرية غريبة مضمونها أن جنس زنجيا لم تتمكن منه الصفات الزنجية تمام التمكن - لأنه كان سابقا في الزمن للجنس الزنجي الحقيقي - انتشر شمالا حتى البرتغال وشمال إيطاليا في أواخر البليستوسين وأوائل العصر الجيولوجي الحديث . ويستشهد أصحاب هذه النظرية بهيكل إنسان جريمالدي في Mentone وأكوام الأصداف عند مصب التاجة

بأسبانيا والتماثيل ذات العجز الضخم التي ترجع للعصر الحجري القديم في فرنسا وشمال إيطاليا والنمسا وروسيا . ومثل هذه التماثيل وجدت في العصر الحجري الحديث في مالطة وكريت وتراقية (ويلاحظ أن العجز الضخم معتبر من علامات الجمال عند المرأة في شعب الهوتنتوت .) . وفي هذه الأجزاء من أوروبا نجد أقدم أنواع الفخار الأسود ذي الخطوط الذي على شكل القرعة ، وقد وجدت مثل هذه الأواني في البداري وظلت موجودة في بلاد النوبة وهي تتفق اتفاقا غريبا مع أقدم أواني الطونة .

ويمكن القول أن هذه الظواهر الأثروبولوجية والثقافية ترجع إلى مخلفات جنس أوروبي قديم انتشرت فروعه شمالا وجنوبا بسبب الجفاف الذي حل بدياره . وهذا يفسر التشابه الموجود بين أفريقيا وجنوب أوروبا .

وعلى أي حال لم تفد الحضارة المصرية القديمة إلى هذه البلاد من الخارج ، بل هي أصيلة في وادي النيل . أما أجداد البداريين فليدسوا الجيتوليين الصيادين الذين كانوا يسكنون صحراء ليبيا بل هم جماعة كانوا في المستوى الثقافي للهد ندوة أي أنهم نصف رحل أو نصف مستقرين . ثم انتشرت الحضارة البدارية بعد ذلك فاثرت في الصيادين الجيتوليين ووصل تأثيرها إلى بلاد أطلس ثم عبرت مضيق جبل طارق على أن تزايد الجفاف أدى إلى انتقال بعض العناصر الجيتولية من الغرب ووصولها إلى وادي النيل . وقد نتج من اختلاط هذه العناصر الجديدة مع البداريين قيام الفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات تلك الفترة التي تعرف مظاهر حياتها من المحطات الأثرية العديدة الممتدة على طول الوادي من البداري شمالا إلى النوبة السفلى جنوبا .

حضارة العمرى

(أو حضارة حلوان الأولى)

تحيط حافة الهضبة الغربية بمدينة حلوان من الشرق . ولقد كانت هذه الحافة عبارة عن شاطئ النهر في عصر البليوسين ، وقد حفر النهر حينذاك خلال صخور الحجر الجيري الأيوسينية وادياً متسعاً لا يشغل في الوقت الحالى من هذا الوادى إلا قاعه . وتوجد ثغرة كبيرة في هذه الحافة في منتصف المسافة بين حلوان والمعصرة ، هذه الثغرة عبارة عن مصب وادى حوف أحد الوديان العديدة الجافة حالياً والتي كانت في الماضى تجري بالمياه حتى تصب في النيل كما كانت تقطع الهضبة إلى أجزاء متفرقة .

وتقع محلة العمرى بالضبط عند الطرف الجنوبي للخليج وعند قاعدة بروز صخرى في حافة الهضبة يسمى رأس الحوف على بعد ثلاثة كيلوا مترات شمال مدينة حلوان وعند نهاية سكة حديد المحاجر .

وقد دل فحص المحلة على أن مساكن القوم أو أكوأخهم التي يربو عددها على المئات مبعثرة فوق هضبة صحراوية تمتد من الجنوب للشمال نحو وادى صغير محفور في رواسب الخليج القديم ، وهو موقع ملائم من عدة وجوه فهو يجعل القوم فى مأمن من خطر السيول التي كانت كثيرة الحدوث في تلك الفترة الوفيرة الأمطار كما يجعلهم على حذر من عدوهم - إنسانا كان أو حيوانا - بإشرافهم من تلك الربوة العالية على الجهات المحيطة بهم .

وتنتهى الهضبة من الجانب الجنوبي المواجه لحلوان بقطع رأسى لا يزيد عمقه عن متر نتج عنه حفرة واسعة الصحن قليلة العمق ، جدرانها من حصى الهضبة الأصفر . ويغلب على الظن أن هذه الحفرة نتجت حديثاً عن الأعمال الخاصة بمد سكة حديد المحاجر . وقد وجدت الحفرة ممتلئة بالطين الأسود المختلط بالشقف

والعظم المكسور أو المحروق ، وبشظايا الصوان المتأثر بالنار كثير أ أو قليلا . ويرى بوقيه لا يميز أن هذه الحفرة عبارة عن موقد يتوسط أحد مساكن القوم القديمة وأن المسكن ذو شكل مستدير على مثال الكثير من مساكن فجر التاريخ .

وجميع مواقع القوم الأخرى عبارة عن حفر صغيرة مستديرة يملأها الشقف وشظايا الصوان . وقد خرب الكثير من هذه الحفر بفعل السباخين أو الباحثين عن السكنوز في المناطق الأثرية .

ومساكن القوم مجمعة فوق سطح مهد خصيصا لذلك ونقى مما فيه حصى ، ويظهر الفدق واضحاً بين لون هذا السطح الفاتح الممهد بيد الإنسان ولون السطح الداكن المجاور له الذى مهدته العوامل الطبيعية من جوية وغيرها . وقد وجدت جميع المواقع مجمعة فوق هذا السطح الممهد فيما عدا موقد أو اثنين ، ويعتبر بوقيه لا يميز هذه الحالة تنظيماً بدائياً لتخطيط المدن في هذا العصر المبكر . ويمكن تتبع حدود القرية في خط متعرج يضم في داخله جميع المساكن المتطرفة عن قلب القرية .

ويوجد حولي محيط هذه القطعة من الأرض الممهدة التي كانت تشغلها المساكن قديماً - فيما عدا الجانب الجنوبي الذى غيرت من معالمه المحاجر - شريط من الأرض لم تشغله المساكن وإنما تغطيه شظايا الصوان التي لا حصر لها . وكذلك يكثُر بهذا المكان النوى وهو كتل الصوان الأصلية التي فصلت عنها هذه الشظايا كما تكثُر المطارق التي استخدمت في فصل الشظايا عن النواة . ويرى بوقيه أن هذا هو المصنع الرئيسى بهذه القرية حيث كانت تصنع فيه الأسلحة من فؤوس وسكاكين ورؤوس سهام وغير ذلك . وقد دل فحص الأسلحة التي جمعت من هذا المصنع على أنها ترجع لمرحلة قديمة من مراحل العصر الحجري الحديث .

وكذلك جمعت من منطقة السكنى قطع كثيرة من الأواني الفخارية المكسرة ويدل بعض هذا الشقف أنه كان لقدور كبيرة . كما وجد رحي من الحجر الرملى كان يستخدم لطحن الحبوب . وكذلك عثر على عظام حيوانات كثيرة بعضها مكسور

والبعض الآخر محروق ، وعلى صدفة بحرية وأسلحة من الصوان مشطوفة ، وإحدى هذه الأسلحة ذو أسنان ، هذا بخلاف الشظايا الأخرى الكثيرة والنوى العديد وقطعة من مطرقة حجرية . والعثور على هذه الأدوات داخل المساكن يدل على أن صناعة الآلات الصوانية كانت تجرى داخل الكواخ أيضا فضلا عن المصنع العام للقرية .

ولما كان سطح المواعد والمسافات الفاصلة بينها مغطاة بهذه القطع العديدة من الشقف ومن الأسلحة الصوانية ، هذا بالإضافة إلى أحجار الرحي ، فيمكن من مجموع ذلك تكوين صورة عن محتويات المسكن أو أثاثه . وأما شكل المسكن فقد كان في الغالب مستديراً يتوسطه الموقد وكان للمسكن باب أو أكثر ثم كوة في أعلاه لتصرف دخان الموقد . وفي الغالب كانت تبنى الكواخ من جذوع الأشجار تتخللها فروعها ثم تغطي بالطين .

ويوجد دربان يؤديان من القرية إلى جبانتهما يؤكد بوثيقه قدمهما ويرجح أنهما مهذا خصيصا لتيسير الانتقال بين مساكن الأحياء ومساكن الموتى .

وإلى الشمال من القرية يوجد تل على شاطئ الوادي الأيمن به كثير من شظايا الصوان ثم من الشقف والعظم المحروق ورماد المساكن الأسود وربما تمثل هذه الآثار ضاحية من ضواحي القرية أو تمثل مخلفات المطبخ Kjekkenmodding أو مكانا للعبادة تقدم فيه الضحايا . وبما يعزز الغرض الأخير وجود طريق يؤدي من هذا التل إلى مجموعة من المقابر .

أما عن صناعة القوم الحجرية فأغلبها من الصوان . وتوجد فيها الشظايا والأسلحة المختلفة مختلطة بالنوى وهي كتل الصوان الأصلية التي منها فصلت الشظايا ثم المطارق وهي كتل مستديرة من الحجر استخدمت في فصل الشظية عن النواة أو كتلة الصوان الأصلية . وكانت هذه المطارق من حجر الصوان ومن الخشب المتحجر المنتشر في هذه المنطقة . ومن ضمن آلاتهم كذلك المسكاشط ذات الأشكال المختلفة

التي كانت تستخدم في اعداد جلود الحيوانات لللبس أو للأغراض الأخرى . وقد وجدت أيضا أسلحة عديدة على هيئة مثلث متساوي الضلعين ربما كانت تستخدم رموس حراب . وهي تستعيد بوجهيها المشكلين بعناية الطريقة السولتزية في صناعة الأسلحة . وقد استخدمت نفس الطريقة في اعداد نوع آخر من الأسلحة هي السكاكين العريضة المسطحة الوجه المشغولة من الوجهين وذات جانب أكثر تقوسا من الآخر . وربما كانت هذه السكاكين باكورة صناعة « سكاكين الضحية » التي ستعرف في عصر ما قبل الأسرات .

وبما تمتاز به محلة العمرى - شأن كل محلة أخرى من العصر الحجري الحديث - السهام والفؤوس المصقولة . ومن بين السهام ما يشبه سهام الفيوم ذات القاعدة التي على شكل هلال . وأما الفؤوس فالقليل منها ما صقل صقلا كليا ومعظمها لم يصقل إلا عند حدها القاطع ثم في جزء من السطح ، والجزء الأكبر من هذه الفؤوس كان معدا للصقل ولكن ذلك لم يتم .

وأما عن صناعة القوم الفخارية فهي تسترعى الأنظار لأول وهلة بحالاتها البدائية . فعجنتها غير مصنوعة بإتقان كما أن تشكيلها غير منتظم وحرقتها غير جيدة . ولم تجمع من المساكن إلا قطع من شقف هذه الأنية ومن ثم لا يمكن الحكم على شكلها حكما صحيحا . على أنه يمكن القول أن بعضها ذو أحجام صغيرة وسمك قليل ، وذو شكل يضاوى وقاعدة مسطحة . وأن البعض الآخر ذو أحجام كبيرة وجدران سميكة ، ربما كانت قدور للطبخ مستديرة الحافة أو مواجير عميقة كبيرة الحجم .

وأما عن مقابر القوم فإن المجموعة الأولى من هذه المقابر تقع على بعد مئات من الأمتار شمال شرق قرية الأحياء ، وفي وادى صغير متصل بخليج وادى حوف . ولقد كانت السيول تطفئ على هذه المنطقة بكثرة فتخلفت عنها طبقة سميكة من الرواسب التي أرسبت في عصر سابق لاستخدام هذا المكان للدفن بدليل الآلات الحجرية التي جلبتها هذه السيول والتي ترجع للعصر الحجري القديم الأسفل . فلما انقطع

تدفق هذه السيول بسبب الجفاف الذي ساد البلاد اتخذ أصحاب حضارة العمرى من مدرجات هذا الوادى مدافن لموتاهم . وأول جزء فحس من الجبانة كان عبارة أكمة قليلة الارتفاع ملئت بكتل من الحجر الجيري من كل المقاسات، القيت في هذه الحفرة الواسعة — التي يبلغ قطرها سبعة أمتار — بدون أى نظام معين ، وترك منتصف الحفرة خاليا من الحجارة . وفى هذا الجزء الخالى كانت توضع الهياكل البشرية التي لم يعثر لها على أثر بسبب لصوص الآثار الذين ينبشون المقابر بحثاً عن الكنوز . ولا شك أنهم — على حد تعبير بوكيه لا پيير — فجعوا لما شاهدوه من فقر هذه المقبرة بعد المجهود الذى بذلوه فى فتحها .

أما طريقة الدفن فقد لوحظ عليها أن الميت كان يوضع فى المقبرة منثنياً بمعنى أن ركبتيه تكونان قريبتين من ذقنه كالجالس القرفصاء . ولم يكن أصحاب حضارة العمرى يعنون بوضع الرأس فى إتجاه معين ، وكانت توضع مع الميت أنية فخارية أو أكثر بقصد التزود للحياة الآخرة .

وكذلك تدل المقابر على تباين الناس فى الثروة فى ذلك الوقت المبكر ، فبعض المقابر عبارة عن حفرة بسيطة بها قطعة من الحجر فوق أرض المقبرة ، والبعض الآخر عبارة عن مدفن أعد بعناية ، ووجد كذلك مدفن لطفل معه آنية فخارية وليس على سطح المقبرة أية علامة تدل عليها . وقد وجد بمنطقة المقابر آثار مواقد مما يشير إلى وجود طقوس دينية خاصة بالميت .

وكذلك وجدت دوائر صغيرة من الحجر منتظمة قليلا أو كثيرا ، بعضها بجوار مقابر معينة والبعض الآخر ليس له علاقة بالمقابر ، وربما كانت لهذه الدوائر أيضاً علاقة بتقديم التقدمة والعطايا إلى الميت ، ومن الجائز كذلك أن لها علاقة بمراسيم الدفن .

وقد وجد بالقرب من مجموعة أخرى من المقابر — على مدرجات وادى يقع إلى الشمال الشرقى من المجموعة السابقة — مساحة دائرية الشكل من الأرض، مهدت بعناية ووسطحت بدقة ونقيت مما بها من حجر، ولكن بها قطع من الأواني الفخارية

المكسرة (شقف) وبعض الأسلحة الصوانية من نفس الأنواع التي توجد بالقرية وربما لهذه الأرض دلالة دينية خاصة فلعلها مكان عبادة أو مكان لتخليد ذكرى الميت أو لغير ذلك من الأغراض .

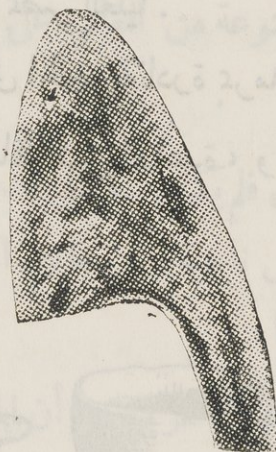
وخلاصة القول في محلة العمرى أنها قرية من العصر الحجري الحديث ليس بها من الآثار ما يدل على أنها أحدث من هذا العصر غير أن المكان لم يفحص بدقة ، ولم تجر فيه الحفائر بطريقة علمية منظمة ، وسيدى التقدير الصحيح لمنزلة هذه الحضارة من فجر التاريخ المصرى معلقاً ، كما سيدى ترتيبها الزمنى بالنسبة لساائر الحضارات المصرية في هذا العصر مشكوكاً فيه إلى أن يتم حفر المكان بعناية .

حضارة مرمدة بنى سلامة

وجدت هذه الحضارة في مرمدة بنى سلامة . وهذه البلدة أفضل مكان تتمثل فيه هذه الحضارة كما أنها أحسن مكان بحث . وكذلك وجدت هذه الحضارة على الحافة الشمالية للفيوم وخصوصاً في منطقة قصر الصاغة وهى ما يسمى حضارة فيوم ب . أما حضارة فيوم ا فقد سبق الكلام عليها . كما وجدت هذه الحضارة في منطقة العمرى شمال حلوان وقد سبق الكلام عليها كذلك . ولقد كان المرمديون زراعا يزرعون القمح ويربون الثيران والأغنام والخنازير والكلاب وربما الماعز أيضاً . وتكثر هنا تربية الخنازير بينما لم يكن هذا الحيوان منتشراً في مصر العليا في ذلك الوقت . كما كان المرمديون يقومون ببعض الصيد فى البر والنهر ، كما كانوا يصطادون فرس الماء وال Beaver والحيوان الأخير انقرض من مصر منذ مدة وكان يعيش فى المستنقعات ويقطع على الأسماك .

صناعة الصوان : كان الشطف ذو الوجهين سائداً سيادة تامة فى مرمدة كما هو الحال فى الحضارات القديمة بمصر العليا : وقد عرف المرمديون كذلك صقل

الصوان والسكن بقلعة . وأهم الآلات الصوانية بمرمودة المشاجل الحجرية التي تصنع بوضع أسنان من الحجارة في يد خشبية . كما وجدت بمرمودة المكاشط والسكاكين والسهم القلنسوية الشكل ، وحافاتهما إما مدببة أو مربعة (أنظر شكل ٥٣) وتندر



شكل (٥٣) سهم قلنسوى الشكل من مرمودة

فيها السهم ذات القاعدة . كما تكثر بمرمودة الفؤوس وهي على نوعين : نوع مصنوع من الصوان بتهذيبه وصقله ، ونوع مصنوع من الحصى من أنواع مختلفة من الحجارة . وأحيانا لا يقتصر الصقل على الحافات بل يشمل سطح الآلة كله . وشكل هذه الفؤوس يميل للإستدارة ، وهي من مجموعة الفؤوس الإسطوانية (أنظر شكل ٥٤)



شكل (٥٤) آلة عظمية (على اليمين) وفاس حجرية (على اليسار) من مرمودة

صناعة الفخار : تختلف صناعة الفخار بمرمودة اختلافا تاما عن صناعة مصر العليا ، فالأواني ذات الحافة السوداء نادرة جدا ، وكذلك الأواني المصقولة السوداء والجرأ نادرة . وأواني مرمودة ذات لون كدر أو رمادي باهت ذى بقع سواداء .

ومن اوانها السكثيرة البيضاوية والمخروطية وكذلك التوأمية والملاعق (انظر شكل ٥٥) وحجم الاواني غير كبير فلا نجد بها اوانى يزيد ارتفاعها عن نصف متر ، ولكن بها مواجير كبيرة . وبما يستلقت النظر هنا كثرة الاواني ذات القواعد الحلقية ، بينما هذا النوع نادر بمصر العليا .

الاواني الحجرية : الاواني الحجرية نادرة بمرممة ، ولكن بعضها جيد الصنع ، واهم اشكالها ما كان متسع الحافة ضيق القاعدة ، والحجارة المستعملة هي البازلت والجرانيت .



شكل (٥٥) أواني فخارية من مرممة

على اليمين ملعقة . في الوسط جفنة . على اليسار آنية توأمية أو مزدوجة تشبه الملاحة .

الآلات العظمية : وجدت بمرممة حراب وسنانير وابر ومشاقب كلها مصنوعة من العظم .

ادوات الزينة : ادوات الزينة تكاد تقتصر على بعض خرز من العظم وخواتم واساور من العظم كذلك واصداف مثقوبة . ويلاحظ انه لم يكتشف النحاس مطلقا بحضارة مرممة وهذا مهم للغاية لانه يحدد لنا تاريخ هذه الحضارة ويجعلنا نضعها في اوائل العصر الحجري الحديث بمصر .

المساكن : أهم أنواعها مساكن بيضاوية مبنية من الطين كالأشكال التي تبني بالطين في القرى في الوقت الحاضر . وكان ارتفاع الجدران حوالى متر واحد . ويظهر أنه لم يكن لها سقف وكان طولها حوالى متر أو مترين ولكن بعضها كان حوالى أربعة أمتار . أما المنازل الطويلة فكانت تستخدم للسكن وأما الصغيرة فلا يعرف الغرض

منها . وكذلك وجدت في مرمدة المساكن المقامة على أعمدة وشكلها في هذه الحالة مستدير .

مخازن الغلال : كانت تخزن الغلال في أسبته كبيرة يصل قطرها أحيانا ثلاثة أمتار وهذه الأسبته كانت مصنوعة من الغاب على مثال أسبته الفيوم الموضحة في شكل ٥١ .

أما في الفيوم والعمرى فلم يكتشف مثل هذه المساكن مما يبعث على الظن أنه يوجد اختلاف بين مرمدة من ناحية وبين هاتين الحضارتين من ناحية أخرى في نوع الحضارة ودرجتها وزمنها .

وتمتاز حضارة مرمدة بظاهرة غريبة هي أن المقابر توجد غالبا داخل المساكن وهذه عادة غير مصرية ولم تعرف إلا في هذا المكان . وكانت تدفن الهياكل في الشكل المنثني على هيئة الجالس القرفصاء ، وكانت الرأس توجه عادة نحو الجنوب . وتدل مساكن مرمدة بنى سلامة وكذلك الحضارة المعاصرة لها في الفيوم ، على أن اتساع هذه القرى كان كبيرا ، وهذه ظاهرة من ظاهرات قرى الدلتا على وجه العموم أما في الصعيد فمساحة القرية كانت أصغر بكثير .

وتمتاز حضارة الفيوم بظاهرة غريبة هي أن مخازن الغلال المصنوعة من الغاب لم تكن توضع بالقرب من المساكن بل في مكان خاص بعيد عن القرية ، ونجدها مركزة في مكان واحد مما يبعث على الظن بوجود نوع من الاشتراكية عند هذه الجماعات .

وأما الفن فقد كان فقيرا في هذه الحضارة وقد وجد تماثيل لأنثى مصنوعة من الفخار .

الفصل السابع

حضارات الوجه القبلي

في عصر ما قبل الأسرات

كانت مصر في العصرين الحجريين القديم والحديث في مستوى حضارى يعادل المستوى الذى كان عليه كثير من بلدان العالم المعمور حينذاك ، ولسكنها بعد ذلك تنفرد بالتفوق الحضارى وتتميز بالتخصص الثقافى ، وبذلك تمهد للحضارة العظيمة التى ستظهر في عصر الأسرات . ولهذا نضع مصر في هذه الفترة في مرحلة حضارية خاصة يطلق عليها « عصر ما قبل الأسرات » فلم يعد تعبير العصر الحجري الحديث يلائم هذه الحضارة الجديدة التى يكثر فيها استعمال المعادن وترقى فيها الصناعة الفخارية والحجرية والعظمية وتتأصل فيها المعتقدات الدينية وتظهر فيها الرسوم التى ستصبح حروف الكتابة فيما بعد .

كما لم يعد من الملائم للباحث أن يتناول مصر بالدراسة كوحدة في هذا العصر لأنها في الواقع لم تكن كذلك ، فأن الحدود السياسية قامت منذ هذه الفترة بين الدلتا والصعيد ، وسار كل منهما في تياره الحضارى الخاص الذى تمليه عليه بيئته الطبيعية وعلاقته بجيرانه . والبيئة الطبيعية والجيران مختلفان في كل من الدلتا والصعيد ولهذا اختلفت مظاهر الحضارة في كل منهما ، بل اختلفت الأمزجة ووجدت الخصومة السياسية ، وحاول كل منهما قهر خصمه واخضاعه لنفوذه . وأدرك الزعماء في كل من شطرى الوادى ألا غنى لأحد الشطرين عن الآخر ، ولكن كلا منهما يريد الأمرة لنفسه ولا يقبل الاتحاد إلا تحت زعامته . فأغار أهل الدلتا على الصعيد معتزين بقوتهم وتفوقهم المادى والثقافى وتمسكوا من توحيد البلاد تحت إمرة

حاكم واحد من أهل الدلتا. إلا أن هذه الوحدة لم تلبث أن فصم عراها، وانقسمت البلاد من جديد إلى قسمين — وادى ودلتا — وقضت في هذا الانقسام فترة أخرى من الوقت قام بعدها أهل الصعيد منادين بوحدة شطرى الوادى تحت حكمهم وتمسكوا من ذلك بزعامه الملك مينا أول ملك لمصر الموحدة.

ولهذا سنخصص هذا الفصل لدراسة عصر ما قبل الأسرات فى الصعيد ثم نتبعه بفصل آخر ندرس فيه نفس العصر بالدلتا.

ولقد كشف الأثريون عن ثلاث حضارات بالصعيد ترجع لعصر ما قبل الأسرات هى « العمرة وجرزة وسمانية ». وفى بعض الأحيان تعتبر هذه الحضارات ثلاث مراحل حضارية متتابعة لحضارة واحدة أطلق عليها پترى اسم حضارة نقادة نسبة إلى بلدة نقادة التى أخرجت تربتها بعض آثار هذا العصر.

ولقد قسم پترى الأوانى الفخارية التى تمثل هذه الحضارات الثلاثة — بحسب شكلها ودرجة إتقان صنعها — إلى ٦٩ قسماً متتابعاً يمثل كل قسم منها مرحلة حضارية خاصة — ومن ثم يمثل مرحلة زمنية خاصة — تبدأ بالمرحلة رقم ٣١ وتنتهى بالمرحلة رقم ٩٩. وجعل توزيعها بين الحضارات كالآتى:

حضارة العمرة تبدأ بالمرحلة ٣١ وتنتهى بالمرحلة ٣٨

» جرزة » » ٣٩ » » ٦٠

» سمانية » » ٦١ » » ٩٩

وأما الأرقام السابقة للمرحلة ٣١ فقد تركها پترى للأنواع السابقة فى الزمن لحضارة نقادة. واعتبر پترى حضارة العمرة ممثلة للفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات وأطلق عليها اسم حضارة نقادة الأولى، كما اعتبر حضارة جرزة ممثلة للفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات وأطلق عليها اسم حضارة نقادة الثانية. وأما حضارة سمانية فتمثل نهاية عصر ما قبل الأسرات والأسرتين الأولى والثانية وتخصص الأرقام من ٦١ إلى ٧٠ لنهاية عصر ما قبل الأسرات، والأرقام من ٧١

إلى ٩٩ للأسرتين الأولى والثانية . ويطلق على هذه السلسلة كلها تاريخ پترى
التتابعى (Sequence dating) .

وستتناول فيما يلى كل حضارة على حدة :

أولا : حضارة العمرة

حضارة العمرة أو « حضارة نقادة الأولى » نسبة إلى بلدة العمرة بالصعيد
جنوب أبيدس (العراة المدفونة) بقليل . وتدل آثار هذه الحضارة على أنها
أحدث من حضارة البدارى وعلى أنها تطور محلى من حضارات مصر السابقة مع
بعض المؤثرات الخارجية من الغرب . وقد قال بعض الباحثين أن هذه الحضارة
وفدت إلى مصر مع شعب جديد دخل مصر من الجنوب ، ولكن هذا قول منقوض
من أساسه لأن المسحة الزنجية التى كانت ظاهرة بين المصريين فى حضارة البدارى
تختفى فى حضارة العمرة ويعلى ذلك بكثرة اختلاط المصريين بالليبيين فى غربهم
وهم من دم حامى . وقد لوحظ فى الهامة تخريب فى الطبقة الفاصلة بين حضارة
البدارى وحضارة العمرة مما يبعث على الظن بأن هذا التخريب من فعل غزوة خارجية
ولكن هذا غير ضرورى ، فقد يكون هذا التخريب ناشئا من المنازعات المحلية
بين القبائل المتجاورة . ولعل الأقرب إلى الصواب أن نقول بأن هذه الحضارة
نتيجة تطور محلى من الحضارات السابقة بالإضافة إلى عناصر حضارية جديدة وفدت
مع مهاجرين جدد من الغرب وليس من الجنوب كما يريد بعض الباحثين أن يقول .
ولعل تدرج الصحراء نحو الجفاف دفع ببعض الجماعات الحامية إلى وادى النيل
من الصحراء الغربية وربما من الصحراء الشرقية كذلك فغذى سكان الوادى القدماء
بدماء جديدة أخفت ما كان فيهم من مسحة زنجية أيام البداريين .

على أن صلات المصريين بالجنوب لم تنقطع فى هذه الفترة ، ولكنها اقتضرت
على الصلات الثقافية والروحية ، ولم تتعداها إلى الصلات الجنسية ، اللهم إلا إذا
كانت بلاد النوبة والسودان قد تخلصتا من العناصر الزنجية فى هذه الفترة وأصبحت

الغالبية فيها للحاميين . أما صلات المصريين بالجنوب فيعززها أن المصريين في العصر التاريخي كانوا يشيرون دائماً الى أن أصلهم من الجنوب . ويعززها كذلك أنه في العصر التاريخي كانت تغير على مصر شعوب من الجنوب ذات حضارة شبيهة بحضارة مصر في عصر ما قبل الأسرات . وإذا كانت قد اتخذت الاحتياطات في العصر التاريخي لصده هذه الاغارات ، فإن مثل هذه الاحتياطات لم تكن موجودة في فجر التاريخ لأن البلاد لم تسكن قد وجدت بعد ولم تسكن لها حكومة منظمة تعنى بحراسة الحدود . وقد دلت حفائر الأستاذ يونكر ببلاد النوبة على أن حضارات الصعيد الثلاثة في عصر ما قبل الأسرات ممثلة في بلاد النوبة مما يدل على أنه لم تسكن هناك فواصل ثقافية أو سياسية بين الصعيد وبلاد النوبة في ذلك الوقت . ولذا نظرنا إلى صناعة الآلات الصوانية نجد أن مميزات حضارية واحدة كانت تسود في هذه الفترة وادى النيل والفيوم والصحراء الغربية وبلاد النوبة

وحضارة العمرة إذاً عبارة عن تطور في نفس الاتجاه الذي سارت فيه حضارة البدارى . وقد أمكن معرفة الصفات الجنسية لأهل هذه الحضارة من هياكلهم البشرية وتمائيلهم الصغيرة التي خلفوها في المقابر ، فقد عرفنا من هياكلهم أن طول قامتهم كان حوالى ١٦٠ سم وأنهم كانوا نحاف الجسم أصحاب رأس ضيقة وتقاطيع دقيقة ، ويقرب شكلهم من شكل جماعات البيجا في شرق السودان . وأما التماثيل فتصور انسان هذا العصر حليق الرأس واللحية ذا أنف بارز أشم وجهة عالية . وكان النساء يخلقن رءوسهن ثم يلبسن شعرأ مستعاراً . والقوام النحيل هو الغالب بينهم ، ولكن يظهر عند بعضهن تضخم الأرداف . ويمكن القول أن هذه الجماعة من بقايا الجنس الأوروبى الأفريقى ذى المسحة الزنجية ولكن أخذت تزداد فيهم نسبة الدماء الحامية بسبب موجات الحاميين التى أخذت تفد بكثرة إلى أفريقيا من بلاد العرب عن طريق بوغاز باب المندب

وقد جاءت معظم معلوماتنا عن هذه الحضارة من حفائر پترى في نقادة وديو سپوليس پارفا ثم بدرجة أقل من حفائره في قفط . وكذلك أخرجت حفائر دي مورجان الأقدم من حفائر پترى مادة من نفس الحضارة من بلدة طوخ سميت

باسم حضارة طوخ . وقد أخرجت حفائر نقادة محتويات ٢٢٠٠ مقبرة وقد حفر كريبيل في جبانة بلدة البلاص في نفس الوقت الذي كان فيه پترى يحفر في نقادة فأخرج من البلاص محتويات ٩٠٠ مقبرة . والآثار التي كشفت من نقادة والبلاص شديدة الغزارة ، على أن نقادة أهم المدينتين ، وهي التي ستعرف فيما بعد باسم « نوبت » مدينة الآله ست . وقد أقيم بهذه المدينة معبد للآله ست في العصر التاريخي عند فم أحد الوديان الذي يفد من الصحراء وينتهي عند هذه البلدة ، ومن الجائز أن هذا المعبد التاريخي سبق بمعبد لنفس الآله ونفس العبادة في فجر التاريخ . وعلى بعد قليل من المدينة في الاتجاه الجنوبي الغربي وعلى سهل آخذ في الارتفاع تمتد جبانة نقادة العظيمة التي ظلت أجيالا طويلة مدفنا للهوتى من أهل مدينة نوبت وإلى الشمال من نقادة تقع البلاص حيث كانت تقوم مدينة أخرى تتبع هذه الحضارة . والآثار المستخرجة منها أقل بكثير من المستخرجة من نقادة ، فيينا يتحدث پترى عن تلال الانقراض بالمدينة الجنوبية نجد الطبقة الأثرية بالمدينة الشمالية لايزيد عمقها عن قدم واحد . ويعتقد كريبيل أن مساكنها كانت تبنى من فروع الأشجار كما لاحظ أن مدافن الأطفال توجد داخل المساكن . وقد وجد بالمدينة الجنوبية افرين من الطوب ظنه پترى سور المدينة ، ويعرف شكل أسوار مدن فجر التاريخ من قطعة من الفخار وجدت في مقبرة ببلدة الأبعادية ظهر فيها سور المدينة ومن خلفه المحاربون .

وفيما يختص بصناعة الآلات الصوتية نجد في حضارة نقادة الأولى عددا كبيرا من النماذج المعروفة في الفيوم وكذلك عددا من الفؤوس المعروفة في أرمنت (انظر شكل ٥٦) وقد قال پترى أن الفؤوس الصوتية كانت أهم آلة عند شعب نقادة وكذلك قال حزين عن فؤوس أرمنت الصوتية ما قاله پترى عن فؤوس نقادة من أنها أهم آلة عند هذا الشعب . ولسكن يظهر أن فؤوس أرمنت تتبع حضارة نقادة الثانية أكثر من تبعيتها لحضارة نقادة الأولى . وتكثر في هذه الحضارة صناعة الآلات ذات الأسنان كالمناشير والمناجل ، كما توجد بها النصال والسهام . وكانت

السهم أما قلنسوية الشكل أى ذات قاعدة مقعرة وأما مثلثة الشكل أى ذات مقبض. ومن الأسلحة التى تشتهر بها هذه الحضارة تلك التى تشبه ذيل السمكة بحيث يمكن تثبيتها فى مقبض من الخشب أو العاج . وكذلك توجد بها السكاكين التى تشبه شكل



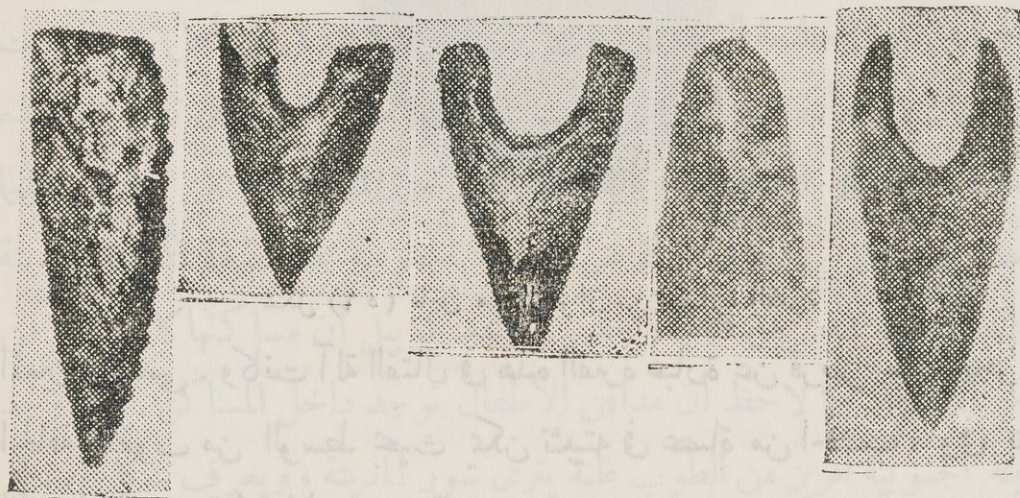
شكل (٥٦) فاس من الصوان من حضارة العمرة

المعين الهندسى . وكانت آلة القتال فى هذه الفترة عبارة عن قرص من الحجر حاد الحافة مثقوب من الوسط بحيث يمكن تثبيته فى عصاة من الخشب ، وفى بعض الأحيان تكون قطعة الحجر مدببة .

ومن الآلات الصوانية بحضارة نقادة الأولى التى تشبه آلات الفيوم الفؤوس الصوانية (انظر شكل ٥٧) والسهم المثلثة الشكل المجنحة (القلنسوية) . والأسلحة التى على شكل ورق الشجر ثم الآلات المسننة وكلها مشطوفة من الوجهين بنفس الطريقة التى كانت متبعة فيما مضى فى حضارة الفيوم .

وقد ثبت أن جميع آلات حضارة نقادة الأولى مشطوفة من الوجهين . ويلاحظ أنه لا تتوفر فى منطقة نقادة مادة خام من الصوان لعمل الأسلحة الكبيرة فلا بد من التسليم بأن هذه الأسلحة لم تصنع من الصوان المحلى أى من الحصى الذى يمكن التقاطه من الصحراء المجاورة ، بل كانت تصنع فى مكان بعيد حيث توجد

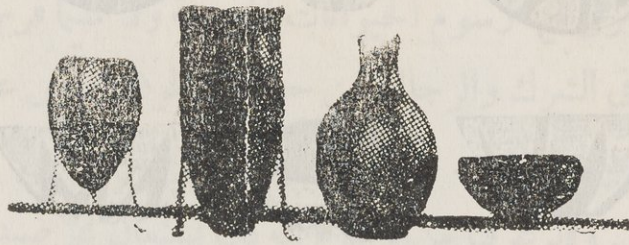
كتل الصوان الكبيرة كمروق في صخور الحجرى الجبرى ، ثم تورد كأسلحة مصنوعة إلى أهل نقادة . وهذا أفضل من القول بأن أهل نقادة كانوا يستوردون كتل الصوان الخام ويحولونها إلى أسلحة في منطقتهم ، لأن هذا يكلفهم كثيرا من الجهد بسبب ثقل كتل الصوان وصعوبة استيراد كميات كبيرة منها ، والأرجح أنهم كانوا يستوردون الآلات تامة الصنع فهي أخف في الحمل . ولهذا الأمر أهميته العظيمة لأن معناه قيام حرف ثلاثة هي التعدين والصناعة والتجارة . وكانت المصانع



شكل (٥٧) أسلحة صوانية مختلفة من حضارة العمرة من اليمن . منشار . سهان قلنسويا الشكل فاس . سهم قلنسوى الشكل

تقوم بجوار المحاجر حيث تشكل كتل الصوان إلى الآلات المطلوبة ثم تصدر إلى المدن المختلفة . وتدل دقة الآلات وتشابها على أنها نتاج عمال أخصائيين في هذه الصناعة قاموا بعملها بقصد التجارة . ولقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة في حياة المصريين ، فالصناعة تحتاج إلى أسواق وتتطلب الانتشار خارج الحدود المحلية . كما أن الصناعة مصدر ثراء لطبقة خاصة ترفعهم فوق مستوى طبقة الزراع والرعاة . كما أن تصريف المصنوعات يتطلب نوعا من التنظيم السياسى يتعدى الحدود المحلية

لمنطقة المصانع . وسنرى فيما بعد أن نشأة الدويلات الصغيرة في مصر تعزى في الأصل إلى الحاجة إلى تنظيم الارتفاع بماء النيل وتنظيم الوسائل لاتقاء فيضاناته الخطيرة ، ولكن هذه الخطوة لم تأت إلا بعد أن جفت الصحراء جفافاً شديداً وأصبح اعتماد السكان على النهر اعتماداً كلياً وهو أمر لم يحدث إلا في حضارة نقادة الثانية . وأما في فترة نقادة الأولى فكانت الأمطار مازالت تسقط وكانت تخوم الوادي الصحراوي حالياً مازالت عامرة بالأشجار والحشائش . ولهذا يمكن القول أنه إذا ظهر نوع من التنظيم السياسي في حضارة نقادة الأولى فإن مرجعه إلى ظهور الحرف الثلاثة السابقة - التعدين والصناعة والتجارة - والحاجة إلى تنظيم النقل وتأمين التجارة وتبادل المنفعة .



شكل (٥٨) أواني ذات قمة سوداء من حضارة العمرة

وأما الأواني الفخارية في هذه الحضارة فيمكن تصنيفها كما يأتي :

- ١ - الأواني ذات القمة السوداء Black-Topped
- ٢ - الأواني الحمراء المصقولة Red-polished
- ٣ - الأواني السوداء ذات الخطوط المحفورة Black-incised
- ٤ - الأواني الحمراء ذات الخطوط المرسومة البيضاء white cross-lined

والنوع الأول هو أكثرها وجوداً وهو يشبه أجود أنواع البداري في أكسدة قاعدته نتيجة لطلائها بمادة حديدية ، ولكنه غير مموج كأواني البداري . (انظر شكل ٥٨) وكذلك هذا النوع من أواني العمرة أقل من أواني البداري في دقة الصنع

وفي درجة الذوق الفني . وأشكال هذا النوع متعددة فمنه ما يشبه القوارير و الجفان ومنه الاقداح ذات القاعدة والأواني المزدوجة (التوأمية) . وكذلك كان النوع الثاني من أواني العمرة — وهي الأواني الحمراء — كثير التداول في هذه الفترة . أما النوع الثالث فهو من الأواني الرئيسية ببلاد النوبة وهو قريب الشبه بالاقداح البدارية وهو تقليد لصناعة الأسبته . (انظر شكل ٥٩)



شكل (٥٩) أواني سوداء ذات نقوش بيضاء

غير أن أبرز أواني العمرة النوع الرابع أي الأواني الحمراء المنقوشة برسوم بيضاء . وواضح من اسمها أن سطح الأواني أحمر وأن النقوش التي عليها باللون الأبيض . وأما شكل هذه النقوش فنوعان النوع الأول عبارة عن مجرد خطوط مستقيمة ربما كانت تقليداً لصناعة الأسبته بل يمكن القول أن الأواني نفسها تقليد للأسبته . والنوع الثاني عبارة عن صور بشرية وصور حيوانات ربما كان لغرض السحر ، وقد حاول الرسام بث الحياة فيها ولكنه لم يفلح . وتظهر هذه الأواني بين الرقمين ٣١ و ٣٥ من تاريخ پترى المتتابع ، على أن الرسوم التي عليها لها مقدمات قبل ذلك إذ وجدت رسوم أقل منها اتقانا على الأواني الحمراء والأواني ذات القمة السوداء (النوعان الأول والثاني من أواني هذه الحضارة) وتعطينا صور الحيوانات

التي على هذه الأواني — كالقيلة وفرس الماء والزراف والأغنام البرية والعقارب —
فكرة عن الحياة الحيوانية بوادي النيل في هذه الفترة .
ومعظم أواني حضارة العمرة عبارة عن تطور للأواني البدارية فيما عدا
النوع الرابع الذي ظهر حوالى التاريخ المتتابع رقم ٣١ فهو نوع جديد . وقد
أطلق عليه پترى اسم الأواني ذات الخطوط البيضاء White cross — lined
وهذه أولى الأواني الفخارية المنقوشة المعروفة خارج آسيا ووسطها ذولون أحمر
مصقول ، والرسوم التي عليه هندسية في معظمها على مثال الأواني الآسيوية القديمة
على أنه توجد على بعض الأواني رسوم تدل على مصريتها كرسوم الرجال والحيوانات
التي تحمل الطابع المصرى فى الفن ، فقد قلنا أن هذه الرسوم خالية من الحياة والحركة
وأن الفنان حاول أن يبعث فيها الحياة فلم يفلح . كما أن الرسوم المنقولة عن الطبيعة
مصرية صرفة ، نرى فيها رسوم الحيوانات المصرية ولا سيما فرس الماء الذى يصور
فى حالة وقوعه فى الشرك والرجال من حوله يحاولون القبض عليه أو يكرر رسمه
فى دوائر حول محيط الآنية . وأكثر الحيوانات ظهوراً على الأواني فرس الماء
والغزال والوعل . وقد عرفنا من الرسوم أنه كان يستعان على صيد الغزلان والوعول
بالكلاب التى يظهر أنها كانت تربي لهذا الغرض ؛ فقد وجد على إحدى الأواني
رسم رجل يقود أربعة كلاب بواسطة حبال مثبتة فى أطواق رقابها . ويقال أن
أحداها كلب صيد لبي من فصيلة مازالت تستخدمها القبائل الحامية بوسط أفريقية
وقد وجد على آنية أخرى رسم حيوان قال عنه العالم الأثرى « شارف » فى
مبدأ الأمر أنه يمثل الحيوان الذى سيتخذ فيما بعد رمزاً للاله ست أله الشر عند
قدماء المصريين . غير أن شكل الرأس والفم ثم الأذان المدببة المستقيمة شككت
« شارف » فى صحة هذا الفرض ، ثم لاحظ أخيراً أن ذيل الحيوان غير مرفوع كما
هى العادة فى تمثيل الآلهة ست فى العصر التاريخى ، ولذلك عدل نهائياً عن رأيه وقال
أن هذا الرسم يمثل جحشاً عادياً ، فأذا صح هذا الفرض الأخير تكون هذه أول
صورة لجحش فى الفن المصرى .

ووجد على احدى أواني هذه الحضارة المسكتشفة بجبانة نقادة رسم بارز قال عنه جان كاپارت أنه عبارة عن رأس رجل معلقة على حامل يمثل جسم هذا الرجل ، وأما الخطان البارزان اللذان يمتدان من قمة الحامل فقال انهما الذراعان ، وأما الخطان الآخران اللذان يمتدان من اسفل الحامل فيمثلان الرجلين . وتتفق الباحثة الأثرية « باوم جارتل » مع كاپارت في أن الرأس رأس رجل ولكنها ترى أن ما قال عنه كاپارت أنه يمثل الذراعين ما هو إلا قرنا بقرة ، وأن ما رآه كاپارت ممثلاً للرجلين ما هو إلا الشدين ، وأن الصورة بهذا التفسير الجديد تشير إلى بدأ عبادة حاتحور ألهة الأخصاب التي أصبحت ترسم فيما بعد في شكل بقرة كما أصبحت تلقب بألهة الذهب « نوبت » وهو الاسم الذي سيطلق على بلدة نقادة في العصر التاريخي .

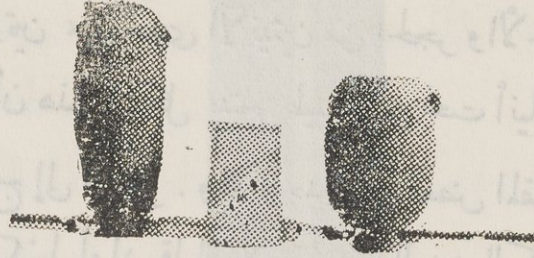
وكذلك وجد على آنتين اكتشفتا من ديوسبوليس پارفا في بلدتي الأبعادية وهو رسمان يمثلان هذه الألهة ويتبعان التاريخ التتابعى رقم ٣٤ أى يتبعان حضارة نقادة الأولى . ولا يختلف الرسمان كثيراً عن الرسم الموجود على آنية نقادة مما يؤيد تفسير بارم جارتل لهذا الرسم ويعزز القول بأن عبادة البقرة حاتحور ألهة الأخصاب قامت في هذا المكان منذ هذه الحضارة .

ومن الأشياء الغريبة التي وجدت في نقادة قطعة من آنية عليها رسم تاج الوجه البحرى وهذا يشير للخصومة السياسية بين الدلتا والصعيد

ويكثر في هذه الحضارة تمييز الأواني الفخارية بعلامات خاصة هي عبارة عن خدوش في سطح الفخار ، ومثال ذلك أنه وجد في احدى مقابر نقادة ست أواني سوداء القمة كلها ذات علامة مميزة .

وقد قيل في تفسير هذه العلامات أنها تدل على الملكية . غير أنه من ضمن العلامات التي كانت تميز بها الأواني في هذه الفترة صور الحيوانات ، فمن الجائز أن هذه الصور كانت بدأ اختراع الحروف الهجائية أو كانت بقصد تصوير بعض الآلهة

ولا سيما الآلهة ست ومين ونيت . وقد وجد بين علامات الفخار ما يمثل الفيلة والأغنام والأشجار . وربما ترجع عبادة الشجرة لهذه الحضارة . وقد كانت العلامة المميزة في إحدى الحالات عبارة عن رسم سفينة .



شكل (٦٠) أواني من البازلت والمرمر من العمرة وتتركز الأواني ذات الخطوط البيضاء المحفورة في حضارة نقادة الأولى . وتشبه هذه الأواني الأقداح البدائية في طريقة تزيينها ولكنها تختلف عنها في شكلها العام وفي طريقة عمل الرسوم .



شكل (٦١) اناء اسطوانى من المرمر المصرى من حضارة العمرة وكذلك صنعت الأواني من الحجارة ولكنها كانت نادرة . وأهم أشكالها أقداح طويلة بيضاوية الشكل ذات قاعدة ومقبضين بارزين تحت الحافة مباشرة (انظر شكل ٦٠) ومن ضمن الأواني الحجرية كذلك أواني اسطوانية الشكل ذات جوانب محدبة قليلا وحافة مائلة . (انظر شكل ٦١)

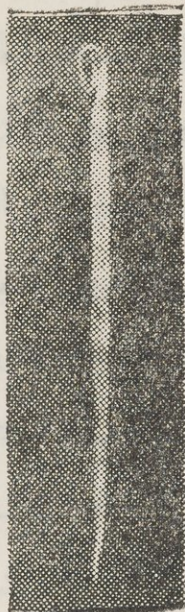
وكانت كل هذه الأواني تصنع من الصخور الدقيقة الحبيبات كالبازلت والالباستر وكانت بعض الأواني تصنع من قشر بيض النعام ومن العاج ، ولقد وجد أيرتون ولوت Ayrton & Loat في مقبرة بالمحاسنة آنيتين اسطوانيتي الشكل وذات حافتين بارزتين ، واحدى الآنيتين من الحجر والأخرى من العاج . وقد قالا بناء على ذلك أن هذا الشكل ينتج طبيعياً من نحت أنياب العاج إلى أواني ثم نقل الشكل من العاج إلى الحجر . وقد وجدت في بعض المقابر أواني بازلتية ذات قاعدة صغيرة ، ولكنها أواني قليلة لا تقارن بالعدد الكبير الذى سيوجد في حضارة نقادة الثانية . وتعتبر الأواني البازلتية على قلتها من العلامات المميزة لحضارة العمرة فقد ظهرت بقلّة فيها ثم كثرت في الحضارة التالية لها ، على مثال الأواني المزينة برسوم فهي تظهر في العمرة وتكثر في الحضارة التالية لها .

ومن الأشياء الممتعة في هذه الحضارة المصنوعات العاجية كالأمشاط ودبابيس الشعر ، وكانت تمثل على المصنوعات العاجية بعض الحيوانات والطيور كالنعامة والسكرتوت . ومن بين هذه الصور صورة من المحاسنة على قطعة من العاج يقال عنها أنها أقدم تصوير للحيوان ست ولكنه من غير ذيل . وتضاف هذه الصورة إلى الأدلة الأخرى لتعزيز الرأى القائل بأن عبادة ست وجدت منذ هذه الحضارة .

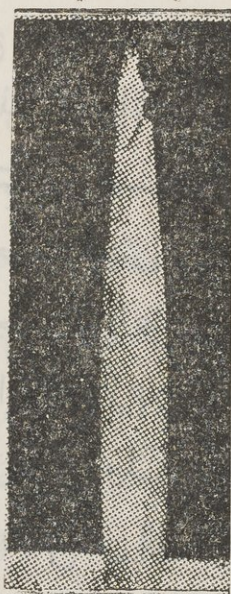
ولقد كان المعدن مازال نادراً في هذه الحضارة فقد اقتصر على دبابيس من النحاس (شكل ٦٢) لا يعرف الغرض من صنعها لأن الملابس المصرية في ذلك الوقت لم تكن تحتاج إلى دبابيس لتثبيتها . والدبوس الموضح في الشكل ذوعقدة في أعلاه ناشئة من ثنى طرفه الأعلى وهو من النوع المعروف في أوائل العصر التاريخي والتماثيل البشرية قليلة جداً في هذه الحضارة سواء كانت مصنوعة من العاج أو الطين . نذكر منها تماثلاً من العاج لرجل ذى لحية وتمثالين من الطين وجدا في مقبرة ببلدة هو ومثلها في مقبرة بالأبعادية . (انظر شكل ٦٣)

وقد وجد بهذه الحضارة كثير من القطع الحجرية التى على شكل قرص ذى ثقب فى

وسطه والتي يقال عنها أنها كانت تتركب على عصي وتستخدم آلة للقتال . ولما كان



شكل (٦٢) دبوس من النحاس من حضارة العمرة
بعض هذه الأقراص مخطأً ومنتمطاً فقد قال پترى أن هذه الأقراص كانت



شكل (٦٣) تمثال من العاج من العمرة
بقصد اللعب . وقد أيد هذا ما كشفه أمرى في مقبرة حمكا بسقارة إذ وجد عدداً
من هذه الأقراص مزينا برسوم ربما بقصد اللعب أو السحر .

ومما يضعف الرأى القائل بأنها أداة قتال أن ثقبها ضيقة في بعض الأحيان بحيث لا تتسع لعصاة قوية يمكن أن تنفع في القتال . ويمكن القول أن بعض هذه الأقراص الحجرية كان آلة القتال وأن البعض الآخر كان لغرض آخر غير معروف وقد قالت كيتون تمسون عن أحد الأقراص الحجرية المكتشفة بحضارة الفيوم «أ» أنه ربما كان عصاة لحفر الأرض .

ولقد كان أصحاب حضارة العمرة أو أصحاب حضارة نقادة الأولى أو القسم الأول من عصر ما قبل الأسرات على اختلاف في النسمية بين الكتاب ، كان هؤلاء كالبدايين يعيشون في جماعات مستقرة في قرى منظمة ويقتاتون من حاصلاتهم الزراعية والرعية أو من صيد البر والنهر . وتدل رسوم الرجال والحيوانات على أوانهم الفخارية على أن الصيد كان مازال أحد الموارد الهامة في اقتصادياتهم ، ولو أن هذه الأواني من أثاث المقابر ، وأثاث المقابر يصور عادة مرحلة مبكرة عن المرحلة الحضارية التي كان يعيش فيها بالفعل أصحاب هذه المقابر . وكذلك يظهر من رسوماتهم على هذه الأواني - تلك الرسومات التي تمثل بعض الحيوانات المكروهة كالتماسيح والعقارب - على أنهم كانوا أصحاب معتقدات طوطمية . ولقد أصبح بعض هذه الحيوانات فيما بعد علامات للقبائل وشارات للمعبررات . ويمكن أن نستنتج من هذا أن الفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات كانت فترة بطون طوطمية تعيش في قرى مستقلة على مثال معيشة الدنكا الحاليين في أعلى النيل . ولم يوجد دليل على وجود ملوك أو أمراء لأن المقابر التي كشفت من هذا العصر متساوية الثروة ، لم يلاحظ على أحداها التميز في الغنى بحيث يمكن القول أنها مقبرة أمير أو حاكم . ولكن يظهر أن طبقة العبيد كانت موجودة تدل عليهم تماثيل حملة المياه ومعظمهم من النساء ، كما أن طبقة أسرى الحرب كانت موجودة أذ صورهم أهل هذه الحضارة في تماثيل ذات أيدي موثوقة من الخلف . كما أن نظام الملكية كان موجوداً بدليل العلامات المميزة على الأواني ، وقد لوحظ أن الأواني الموجودة في قبر واحد تحمل علامة واحدة .

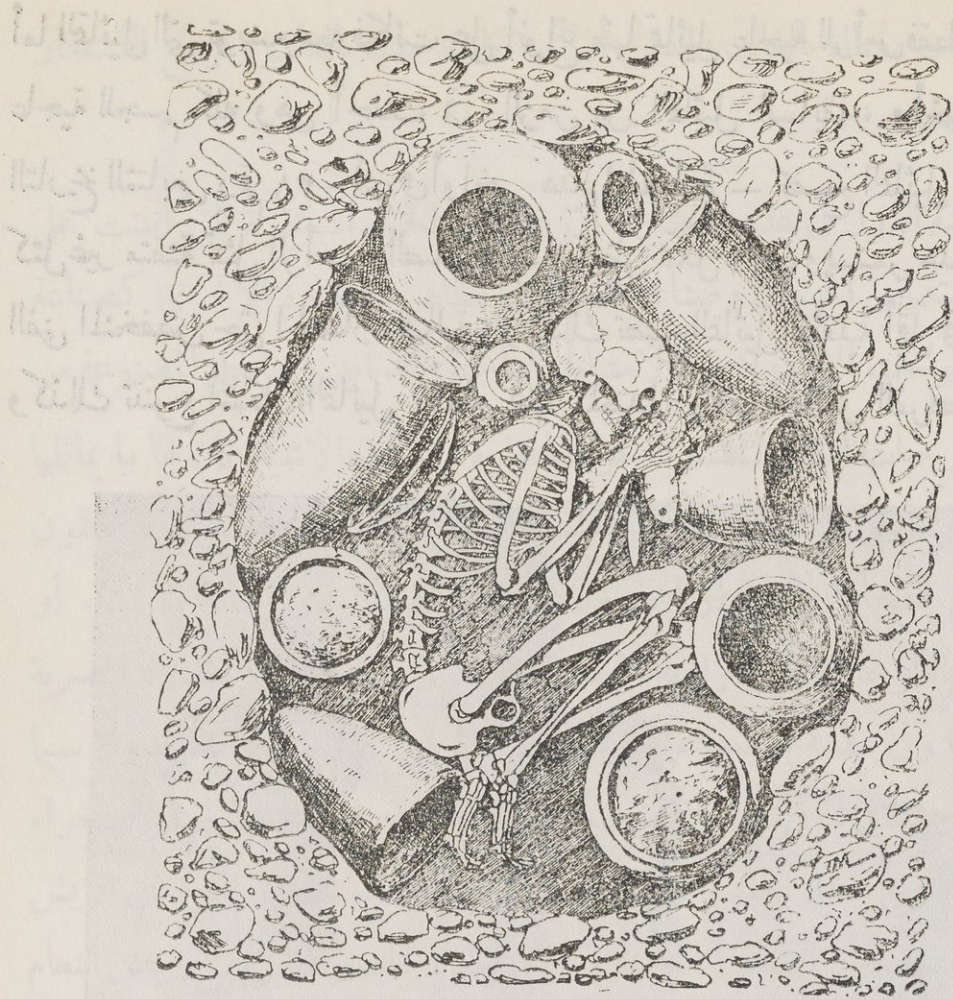
وقد ازدهرت في هذه الحضارة معظم الصناعات التي رأيناها في البدارى ولكن
تقل هنا الفؤوس الحجرية المعصولة ، والسبب في هذا انقراض الأشجار التي تحتاج
لاستخدام هذه الآلة ، ويكثر عوضا عنها استخدام النحاس ولا سيما في صنع الخراب.
ولقد كثرت العلاقات الخارجية في هذه الفترة وازداد انتظامها ، ففضلا عن
استيراد النحاس والملاكيث من سيناء والذهب من النوبة استوردوا حجارا لبسيديان
Obsidian واللازورد Lapis Lazuli من غرب آسيا والأشجار المخروطية من سوريا
والسنبادج Emery من جزيرة ناكسوس إحدى جزر بحر أيجه . وقد صنع
المصريون من أجل ذلك قوارب من أوراق البردى بكل قارب غرفتان مربعتان
في الوسط ، ويحرك القارب سبعة أو ثمانية أزواج من المجاذيف ، وكان ماسك
الدفة يقف في مؤخرة السفينة مستظلا بستار من أغصان الأشجار . ويعتقد بترى
أن هذه القوارب كانت مزودة بشراع لأن الملاحه بدونها متعذرة ضد تيار النهر .
وقد انتقلت مع هذه التجارة الحضارة المصرية إلى غرب آسيا وشرق البحر الأبيض
المتوسط وجنوبه الشرقي ، ومن الجائز أن الحروف الهجائية انتقلت مع التجار
كذلك .

ويتضح تقدم معلومات المصريين الدينية في الفترة الأولى من عصر ما قبل
الأسرات من طقوسهم الجنائزية . فإن دفن الميت في رمال الصحراء الجافة بعيداً
عن طمي النيل يدعو إلى الظن بأنهم اعتقدوا في حياة أخرى يُبعث فيها الميت .
وكانت توضع مع الميت تماثيل صغيرة للنساء وخدم يحملون أواني الماء على رؤوسهم
وذلك لخدمة الميت في سفره الطويل في العالم الآخر . وكان يوضع مع الميت كذلك
ممتلكاته الثمينة كالحلى ، فقد وجد في إحدى مقابر نقادة ثلاثة أنياب من العاج مزينة
بخطوط محفورة وبكل منها ثقب لتعليقه في الرقبة . ويظهر أنهم كانوا يدفنون
الكلب حياً مع صاحبه لكي يحرسه في الحياة الأخرى . وأما ممتلكات الرجل
الأخرى كالماشية فكانوا يستعيضون عنها بتماثيل من الطين .
وقد كانت العبادات متعددة والآلهة متعددة كذلك ، فكانوا يعبدون الحيوان

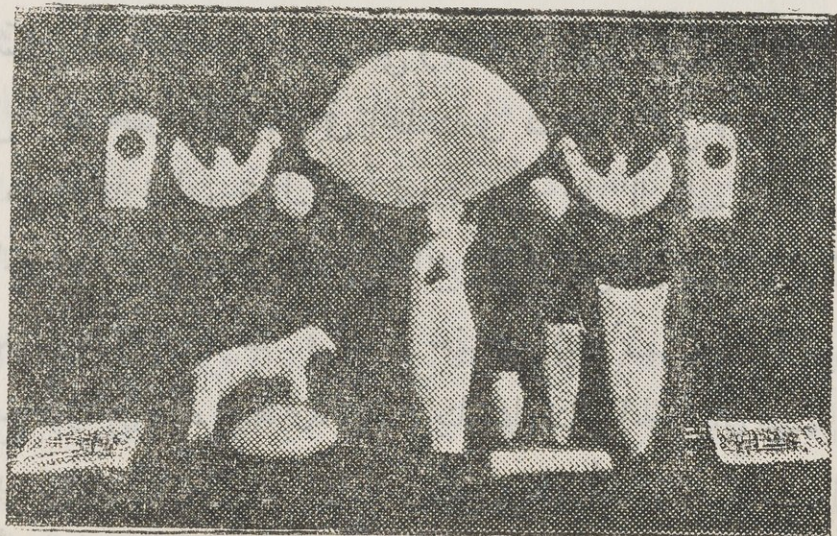
والشجر . ومن معبوداتهم الممتعة آلهة الأخصاب لصلتها بنفس العباداة في العصر التاريخي . وقد قلنا أن رسمها وجد على آنية بنقادة وعلى عدة أواني في ديوسبوليس بارفا . وقد استمر تصوير هذه الآلهة التي لقبت فيما بعد « بالأم الآلهة » في شكل بقرة على أواني الدولتين الفرعونيتين الوسطى والحديثة . ومن الجائز أن عبادة الحيوان ست عرفت أيضاً منذ هذه الفترة ، وكذلك الآلهة مين . وكذلك وجد بنقادة تمثال من العظم للصقر حورس فمن الجائز أن عبادة الصقر عرفت أيضاً منذ هذه الفترة .

وقد عرف أهل العمرة أدوات الزينة وألوانها المختلفة فكان الملاكيث يستخدم لطلاء العين بعد أن يصحن على لوحات اردوازية مشكلة على هيئة الحيوان أو في شكل المعين الهندسي . وكذلك عرفوا الوشم ، فكان الجسم يوشم بعدة رسوم ، كما كانوا يزينون الشعر بمشط من العاج طويل الأسنان شبيه بالأمشاط البدارية ، وربما استخدموا الدبابيس العاجية بالإضافة إلى الدبابيس النحاسية . وكذلك كانوا يلبسون العقود المصنوعة من قشر بيض النعام والأصداف البحرية والمرجان والحجارة المختلفة مثل الكورنيليان Cornelian وحجر الطلق Steatite واللوزورد Lapis Lazuli وكانت تثبت في العقود دلايات تمثل الحيوانات والطيور والأسماك ، وربما كانت هذه عبارة عن شارات طوطمية أو حلي سحرية تقي حاملها من الحسد والمرض والارواح الشريرة وكانوا يحلون أذرعهم بأساور من الأصداف والعاج . وإذا كانت التماثيل تدل على نوع الملابس فإن الرجال كانوا عرايا إلا من نطاق بسيط يستر العورة وكانوا يثبتون الريش في شعرهم وينتعلون صندلا ، وأما النساء فكان يلبسن مئزاً من الكتان وشعراً مستعاراً .

وكانت مقابرهم عبارة عن حفر بيضاوية قليلة العمق يوضع فيها الجسم في شكل مقرفص (انظر شكل ٦٤) وفي بعض الأحيان كان يوضع أكثر من ميت في حفرة واحدة . وكان الميت يزود بأسلحة وحلي وطعام لحياته المستقبلية . (انظر شكل ٦٥)



شكل (٦٤) مقبرة من العمرة يرى فيها الهيكل البشرى وحوله مجموعة من الهدايا التي دفنت معه
جانب من المساحة الطبيعية



شكل (٦٥) مجموعة أثرية وجدت في احدى مقابر دير سبوليس بارفا

أما التماثيل التي توضع معه فكانت على أنواع منها تماثيل عاجية للرأس فقط ثم تماثيل عاجية للجسم كله وهي أحدث في الزمن من التماثيل السابقة ، وأخيراً حوالى التاريخ المتتابع رقم ٣٨- أى في أواخر هذه الحضارة - تصبح التماثيل عبارة عن كتل غير متقنة تمثل الرأس والصدر فقط (انظر شكل ٦٦) ويستمر هذا المستوى الفني المنخفض حتى الحضارة التالية ، وكذلك تصبح التماثيل الطفلية أقل في إتقانها . وكذلك تتنوع أشكال التماثيل بالمقابر فمنها المحتدل ومنها الجالس القرفصاء .



شكل (٦٦) مجموعة أثرية وجدت في إحدى مقابر ديوسبوليس بارفا

أما شكل المساكن فلا يعرف على وجه الدقة إذ لم تكتشف آثار تحدد لنا هذا الشكل . فقد حفر جارسناج في المحاسنة في منطقة سكنى قريبة في مستواها الحضارى من حضارة العمرة ولكنه لم يجد مساكن بمعنى الكلمة أو أكواخ وإنما وجد حواجز ضد الرياح مفتوحة من الجانبين لا يمكن أن تكون مسكناً دائماً ويرجح أنها كانت مأوى مؤقتاً . وكذلك حفرت كيتن تمسون في الهامية منطقة سكنى ترجع لأواخر هذه الحضارة وقالت بناء على نتائج الحفر أن البناء بالطوب لم يكن قد عرف وكل ما وجد دوائر من الطين يظن أنها كانت قواعد المساكن وتوجد آثار الغاب والقش مطبوعة على هذا الطين مما يبعث على الظن بأن هذه

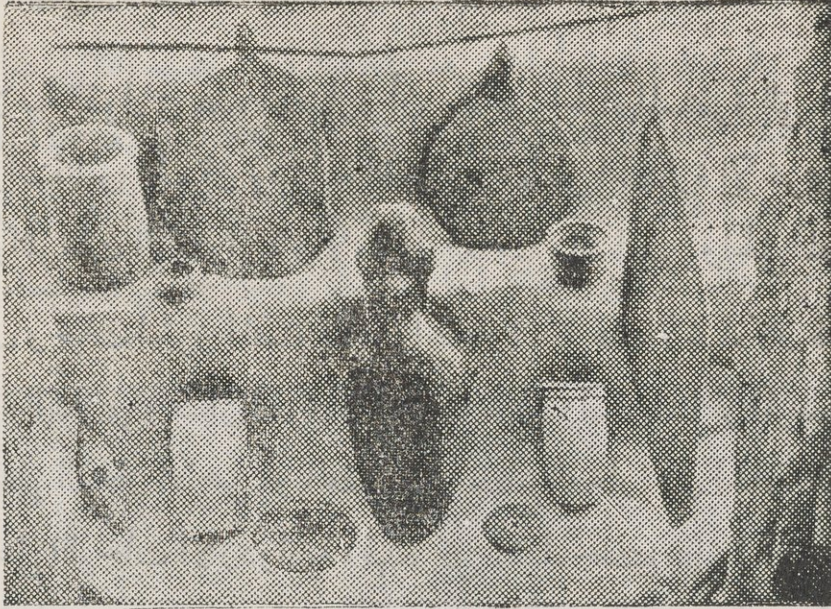
الجدران كانت مغطاة بالغاب والقش أو أنها كانت مبنية بالغاب وفروع الأشجار ثم طليت بالطين .

وخلاصة القول في هذه الحضارة أن مظاهر الحياة المستقرة التي انبثت على الزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار ثم مظاهر الحضارة الأخرى كصناعة الصوان واللوحات الإردوازية والأمشاط العاجية والدبابيس والحلى المصنوعة من الأصداف وحبوات الخرز المصنوعة من الحجارة ، كل هذه الأشياء كان لها ما يماثلها في حضارة البدارى ويمكن القول أنها مشتقة منها . ولكن المناظر المرسومة باللون الأبيض على الفخار الأحمر أو المحفورة في سطح الفخار ذى الحافة السوداء أو المنقوشة على اللوحات الإردوازية ، فهذه كل أشياء جددت على الحضارة المصرية وتدل في نفسها وفي عقلية صانعيها على قرابتها الوثيقة من النقوش القفصية ولا سيما النقوش الموجودة في شرق اسبانيا . ويوجد أيضاً تشابه بين فن هذه الحضارة وفن الصحراء الغربية إذ تظهر على فخار العمرة ذى الخطوط البيضاء رسوم غطاء الرأس ذى الريش المعروف على صخور الصحراء الغربية ، كما أن العقود المصنوعة من قشر بيض النعام عبارة عن تطور لهذه الصناعة المعروفة من الحضارة القفصية بشمال افريقية .

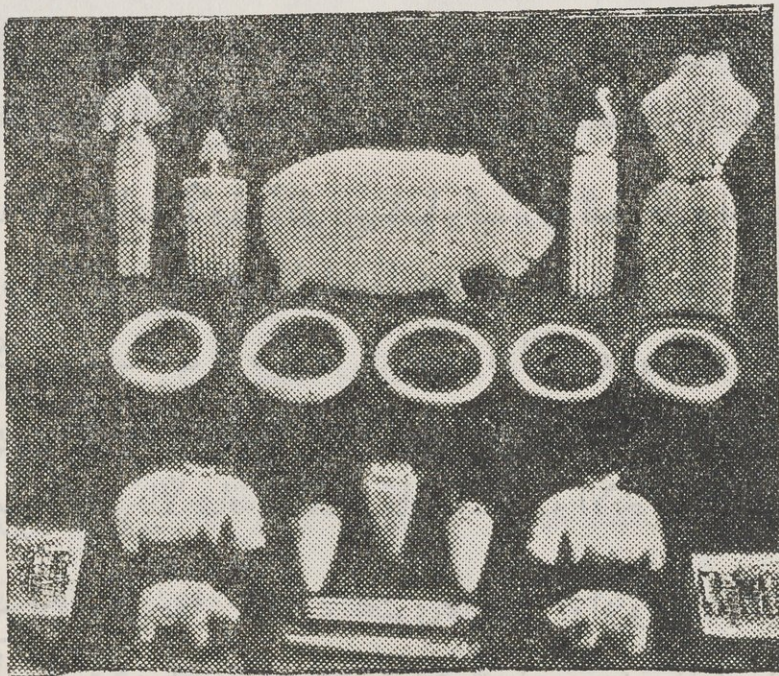
وبمقارنة آثار نقادة الأولى بآثار دير تاسا والبدارى نتمين أن وادى النيل أصبح في فترة نقادة الأولى أكثر عمراناً بحيث تعددت المدن على جانبيه ، وأكثر ثراء بحيث كثرت ممتلكات الأفراد من أسلحة وأواني وغيرها ، فبينما المقابر ذات التاريخ التسابعى ٣٠ ، ٣١ لا تنضم إلا آنية فخارية واحدة نجد أن المقابر الأحدث يضم كل منها مجموعة من الأواني بالإضافة إلى الممتلكات الشخصية الأخرى . (انظر ٦٧ ، ب)

وصحيح أن بعض مقابر البدارى تحتوى على عدة أواني وعلى ممتلكات شخصية أخرى إلا أنه لا يمكن أن تقارن محتوياتها بمحتويات بعض المقابر الكبرى في نقادة أو ديو سبوليس يارفا . وكذلك يتضح من هذه المقارنة أن التقدم الحضارى في نقادة الأولى لا يقتصر على الصوان ، بل أن أشكال الأواني الفخارية تعددت

فوجدت الأواني الرفيعة والقوارير وأواني الحزن الطويلة . هذا بخلاف الأواني



شكل (١٦٧) مجموعة أثرية وجدت في احدى مقابر ديوسبوليس بارفا
ذات الأشكال القديمة كالجفان والأطباق . ومن المسلم به أن المادة الفخارية لم



شكل (١٦٧ب) مجموعة أثرية وجدت في احدى مقابر ديوسبوليس بارفا
تصبح في رقة فخار البدارى ونعومته ، وليكن يجب أن نذكر أن الأواني الحجرية

قد حلت في حضارة نقادة الأولى محل الأواني الفخارية الرقيقة الجميلة المعروفة من عصر البدارى . وقد سبق أن ذكرنا أنه من المشكوك فيه أن يكون البداريون قد عرفوا تشكيل الأواني الحجرية لأنه لم يكتشف شيء من هذه الأواني في مقابرهم ذات التاريخ المحقق . وأما الآنية الحجرية المكسورة التي وجدت في مقبرة بدارية في مستجدة فأنها لا تؤكد معرفة البداريين بهذه الصناعة لأن محتويات المقبرة مضطربة ثم أن الآنية الحجرية التي وجدت بها — كما لاحظ ذلك برنتون — من نوع وجد في المعادى أى أنه يعاصر حضارة نقادة الثانية . وأما أهل حضارة نقادة الأولى فمن الثابت أنهم صنعوا الأواني الحجرية ولا سيما الأواني المرمية اسطوانية الشكل ذات الحافة التي تشبه حافة الأواني البدارية المصنوعة من العاج .

وكذلك يتبين لنا مما سبق أن حضارة العمرة تتبع خط الحضارة الذي بدأ يتأصل في مصر منذ حضارتى دير تاسا والبدارى ولكنها تلقت عناصر حضارية جديدة من ليبيا انتقلت إلى مصر ووجدت جنباً إلى جنب مع العناصر المتخلفة من الحضارات السابقة . ولا بد من القول أن الرعاة الحاميين الذين كانوا يعيشون فيما يسمى الآن بالصحراء أغاروا على وادى النيل الخصيب واختلطوا بالزراع البداريين فإن هذا يفسر لنا اختفاء المسحة الزنجية من وادى النيل فى ذلك الوقت .

على أنه يمكن التوفيق بين رأى القائل بالتأثير الجنوبي فى الحضارة المصرية والرأى القائل بالتأثير الغربى وذلك أن صناعة صوانية متشابهة كانت سائدة فى الصحراء الليبية وفى الفيوم وفى مرمدة بغرب الدلتا كما كانت الثقافة الحامية سائدة فى الصحراء الشرقية . فأذا قلنا بوجود غزوات جنوبية فمعنى هذا أن الغزوات الجنوبية كانت فى هذه الفترة من الحاميين ولم تكن تنحصر فى وادى النيل بل كانت تنتشر كذلك فى الصحراوات على جانبيه . ولقد كانت الصحراء الليبية مقاماً طيباً فى فجر التاريخ فالمطر كان لا يزال وفيراً والمراعى كانت كثيرة والقطعان عديدة . وهذه هى الصورة التى أعطانا أياها المصريون عن هذه الصحراء فى لوحة اردوازية - نشرها شتيندرف - تصور هذه الصحراء اقليماً غنياً بالأشجار والحيوانات المستأنسة ،

وعلى اللوحة العلامة الهيروغليفية الدالة على إقليم ليبيا . فمن هذا الاقليم وفدت جماعة من الحاميين جاوزت مرحلة الحضارة القفصية فغزت المصريين بدماء جديدة ومدت حضارتهم بعناصر جديدة وجدت في الوادي بيئة ملائمة للازدهار .

ثانيا : حضارة جرزة

أو

حضارة نقادة الثانية .

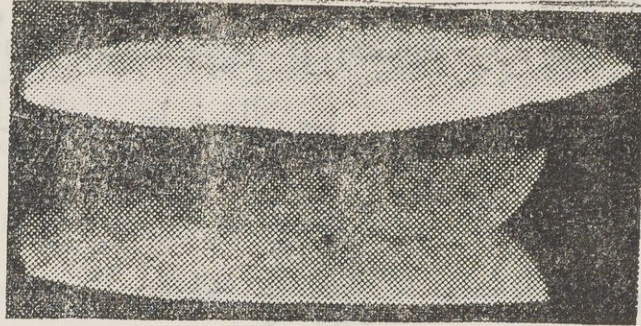
تختلف هذه الحضارة عن الحضارة السابقة من ناحيتين . أولا : الغنى والتفوق الفني . ثانيا : التغير الفجائي في نماذج الآلات والأواني والملابس . ولقد حدثت طفرة في هذه الاشياء كلها تجعل صلتها ضعيفة بالحضارة السابقة . غير أنه يمكن القول عن الناحية الأولى وهي الغنى والتفوق الفني أن حضارة جرزة متطورة عن حضارة العمرة وأن هذا الغنى والتفوق نتجا عن ازدياد الثروة وزيادة رقي الصناعات وأهل الفن وتمكن الآراء الدينية والاجتماعية من عقول الناس . وأما الناحية الثانية وهي التغير الفجائي في نماذج الآلات والأواني والملابس فإن أغلب الأثريين يرجعونها إلى تغير جنسي أو سياسى أى تغير في جنس الشعب أو في طبقته الحاكمة وفى هذه الحالة لابد من التسليم بوفود هجرة جديدة إلى وادي النيل .

وفىما يختص بالآلات الحجرية نجد لها حقيقة تدل على التغير الفجائي فى هذه الحضارة فتظهر فيها آلة القتال التى على شكل السكترى وتختفى التى على شكل قرص ولا تظهر إلا بقلّة كشيء من الطقوس الدينية . كما تكثر الأسلحة المدببة القاعدة وتقل الأسلحة التى على شكل ذيل السمكة . وتكثر كذلك الحناجر الصوانية وتقل السهام ذات القاعدة المقعرة . وعلى العموم نجد فى حضارة جرزة أن صناعة الأسلحة الراقية

تحل محل الصناعة القديمة ذات الوجهين Bifacial Technique

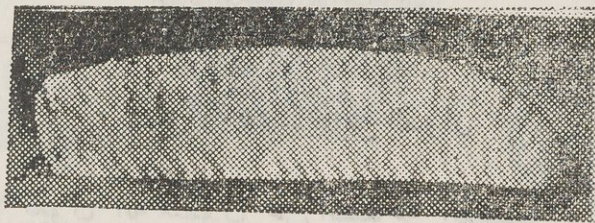
وليس معنى هذا أن الصناعة القديمة هجرت كلية بل أنها تستمر فى أغراض

الطقوس الدينية حتى عصر الأسرات نفسه ، وأما في أغراض الحياة اليومية فإن صناعة الأسلحة أصبحت هي السائدة (انظر شكل ٦٨) وقد أصبح من الأمور



شكل (٦٨) سلاح من الصوان ذو قاعدة مقعرة وآخر ذو قاعدة مدببة

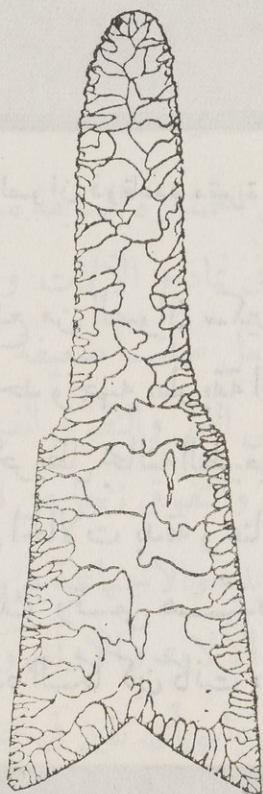
المألوفة في هذه الحضارة أن يصنع من الصوان سكين جميل ذو سلاح ، طوله ثمان أو تسع بوصات ومشغول من أحد وجهيه بطريقة التشظية الغير عميقة المعروفة في الصناعة الفيومية بينما الوجه الآخر يظل بحالته الطبيعية التي فصل بها من نواة الصوان. وتصنع هذه السكاكين في بعض الحالات بدقة وعناية شديدين بحيث يصبح حدها رقيقاً جداً ثم يشطف بعد ذلك وتسمى هذه الطريقة بالتشظية المتموجة (انظر شكل ٦٩) ويظهر أن هذه السكاكين كانت بقصد الزينة فقط وكانت تصنع



شكل (٦٩) سكين من الصوان من حضارة جرزة

في مصانع خاصة بقرب مناجم الصوان لأنه لم تكتشف بالمقابر أو بالقرب منها أية نواة تصلح لعمل مثل هذا السكين الكبير . وأما آلات الاستعمال اليومي كالمناجل والمناشير وغيرها فمن الجائز أنها كانت تصنع في المنازل من الحصى المحلي . ويلاحظ أن الآلات الصوانية تزيد زيادة كبيرة في حضارة جرزة ، فنجد فيها عشرات

السكاكين المشطوفة بعض الشيء أو الغير مشطوفة على الاطلاق (انظر شكل ٧٠) وكذلك المناجل ذات الظهور الحشنة والمكاشط والمحتات وغير ذلك . ولعل السكاكين والمناجل اكثر الآلات عدداً . ولقد تغير شكل السهم في هذه الحضارة شأنه في ذلك شأن الآلات الأخرى . ففي حضارة جرزة يظهر لأول مرة في مصر السهم ذو الطرف الشبيه بطرف الازميل .

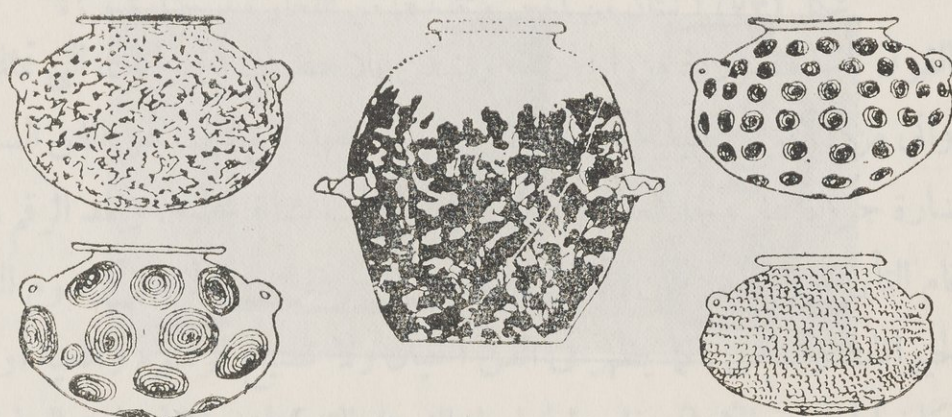


شكل (٧٠) سكين من الصوان

وهناك رأى يقول أنه منقول عن الصناعة القفصية وأن عنصر الليبيين أو الحاميين هم الذين أدخلوه إلى مصر ، وتعارض باوم جارتل هذا الرأي بحجة أنه لم يوجد في مصر في المدن الأثرية السابقة لهذه الحضارة . وقد رأينا أن العنصر الحامي جلب إلى مصر في حضارة نقادة الأولى الصناعة الصوانية ذات الوجهين وهي صناعة مختلفة عن صناعة هذه الأسهم . ولما كانت الصناعة الناطوفية (نسبة إلى غار الناطوف بفلسطين) وكذلك الصناعة العراقية عبارة عن صناعة

أسلحة ولا سيما السهم ذو الطرف الشبيه بطرف الازميل - فهو من آلات العراق المشهورة في هذه الفترة - فلماذا كان الأرجح أن يقال أن ثقافة أهل نقادة الثانية جاءت من الشرق وليس الغرب .

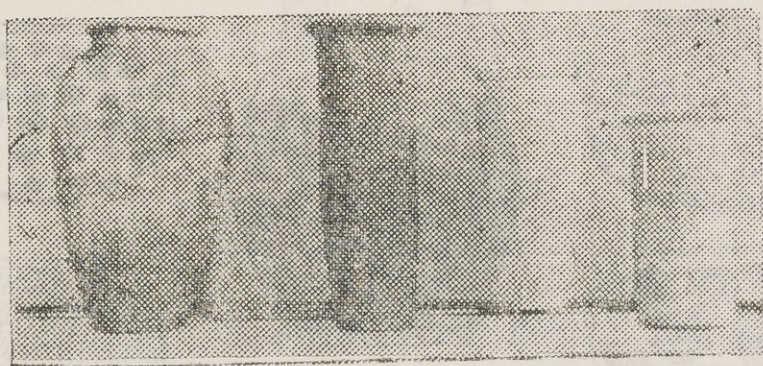
وأما فيما يختص بالفؤوس الحجرية المصنوعة من الشظايا فليس من الثابت قطعاً أنها تتبع حضارة نقادة الثانية ولو أن هذا هو الأرجح . وقد سبق أن أشرنا إلى أنها أهم آلة في أرمنت ولكن هذا لا يعني أنها لم تعرف من قبل وتوضع آثار أرمنت في التاريخ المتتابع بين رقي ٣٥، ٧٢ أو ٨٨ على الأكثر وتقسّم الطبقات التي وجدت فيها هذه الآثار من حيث التدرج الحضاري والزمني إلى ثلاث طبقات ، توضع الطبقة السفلى منها (وتسمى أرمنت ٣) بين رقي ٣٥، ٣٨ أو ٤٢ على الأكثر أي أن هذه الطبقة تعاصر أواخر نقادة الأولى وأوائل نقادة الثانية، وقد وجد في هذه الطبقة أربعة فؤوس صوانية أحدها مصنوعة بطريقة الطحن وأما الثلاثة الباقية فمشظاة . ووجد في الطبقة الوسطى (وتسمى أرمنت ٢) اثنتا عشر فأساً كلها مشظاة .



شكل (٧١) اواني فخارية مزينة برسوم وهي تقليد للأواني الحجرية في شكلها ورسومها

كما وجد في الطبقة العليا (وتسمى أرمنت ١) ثلاثون فأساً كلها مشظاة . ومعنى هذا أن الفؤوس المصنوعة من الشظايا يتبع أغلبها الفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات (حضارة جرزة أو حضارة نقادة الثانية) بل وما بعد ذلك . ويتبين من هذا أن كلا من نقادة الأولى والثانية يتبع صناعة صوانية مختلفة تمام الاختلاف عن الأخرى .

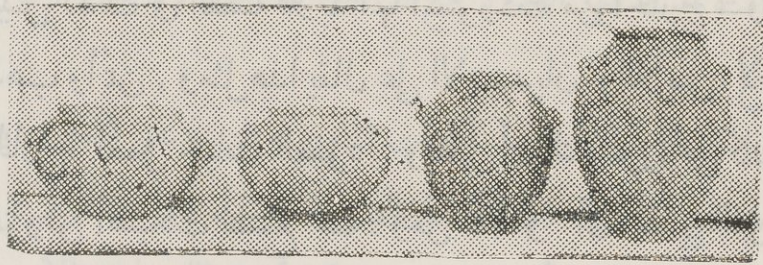
وكذلك تعرضت صناعة الأواني الفخارية إلى تطور كبير في هذه الحضارة فقد أصبحت تصنع من الطفل بدلا من طمي النيل وأصبحت تزين برسوم كثيرة حتى ليطلق على شعب نقادة الثانية اسم « الشعب ذو الفخار المزين » (انظر شكل ٧١) ولعل أهم ما في هذه الصناعة الأواني ذات المقابض المموجة (انظر شكل ٧٢) وقد بنى بترى تأريخه المتتابع على تطور شكل هذه الأواني. ولكن توجه في الوقت الحالى انتقادات كثيرة إلى هذا التأريخ ، فهو لا يتفق مع الأواني التى أخرجها بترى نفسه، كما أن بعض الأواني التى بنى تأريخه عليها مشتراة أو مستوردة من الخارج ولا سيما من فلسطين كما يدل على ذلك بعض الرسوم التى عليها . وعلى أى حال لابد من أن تضم الأواني المكتشفة فى جهات أخرى من مصر ولا سيما من منطقة المعادى ، ثم يعاد النظر فى تأريخ بترى لتعديله على هذه الأسس . ولقد تغيرت الأواني المنزلية تغيراً كلياً فى هذه الحضارة مما يتخذ دليلاً على التغير الجنسى . فمع أن الأواني ذات الحافة السوداء والأواني الحمراء وجدت فى هذه الحضارة ألا أنه لم تظهر منها أشكال جديدة.



(شكل ٧٢) أواني ذات مقابض مموجة من حضارة جرزة

وأما الأواني ذات الخطوط البيضاء فقد اختفت وحل محلها كآنية رئيسية فى هذه الحضارة النوع الباهت اللون ذو الرسوم الحمراء . وتعتبر هذه « الأواني المزينة برسوم » صناعة مختلفة من الوجهة الفنية عن صناعة الأواني الحمراء أو الأواني ذات الحافة السوداء . وكذلك تعتبر هذه الصناعة الجديدة تقليداً للصناعة الحجرية، وأما الصناعة

القديمة فتعتبر تقليداً لصناعة الأسبته أو الجلود. (انظر شكل ٧٣) وتعتبر الرسوم الموجودة على أقدم أواني حضارة جرزة تقليداً للشكل الطبيعي للصخور الغليظة الحبيبات أو تقليداً لكسوة القش التي توضع فيها هذه الأواني. وقد وجد بالفعل في بعض المقابر بعض الأواني الحجرية التي يتفق شكلها تماماً مع شكل الأواني الفخارية التي عملت تقليداً لها. وفيما عدا ذلك تمتاز هذه الحضارة بوجود الأواني ذات المقابض المموجة التي كان تدهور صنعها أولى الأسس التي قام عليها تأريخ پتري التتابعي. وكذلك توجد في هذه الحضارة أواني أخرى متعددة الأشكال، منها نوع أحمر ذو قاعدة مدببة ومنها أواني ذات بزبوز ربما كانت مستوردة من الخارج. ومنها أواني على هيئة الحيوانات وقد أراد بعض الباحثين الاستناد إلى الأواني التي على هيئة الحيوانات



شكل (٧٣) آيتان من الحجر وتقليدهما من الفخار من حضارة جرزة في القول بأنها مستوردة من الخارج، ولكن يلاحظ أن الحيوانات التي تمثلها هذه الأواني من الأنواع النيلية كفرس الماء ثم أن فنها لا يختلف عن الفن السائد في حضارة جرزة على وجه العموم مما يرجح أنها ذات نشأة محلية. وبعد الرقم ٤٥ من أرقام التأريخ التتابعي تزين الأواني برسوم مأخوذة من الطبيعة كرسوم النباتات والحيوانات والسفن. كما يظهر في الفن الخيال ولا تصبح الرسوم واقعية أو بدائية كما كان الحال في الأواني ذات الخطوط البيضاء التي تمتاز بها الحضارة السابقة. ويظهر التطور في حضارة جرزة كذلك في عمل التماثيل إذ يبطل عملها من الطين بعد الرقم ٤٣ من تأريخ پتري كما يبطل نحتها من العاج بعد الرقم ٤٥. ويحل محل التماثيل الأواني المصنوعة من الطين أو الحجارة فقد أصبحت تشكل في هيئة الحيوانات كما أن ناحت العاج انصرف إلى صناعة التماثيل والمعالق من هذه المادة. وكذلك ارتقت في هذه الحضارة صناعة الأواني الحجرية فاستعملت أنواع

عديدة من الحجارة الجميلة مثل الديوريت والسماق والبرشيا الجراء والاردواز ، وبعض هذه الحجارة شديد الصلابة . وفيما عدا الأواني القديمة الإسطوانية الشكل نجد في هذه الحضارة أشكالا متعددة من الأواني الحجرية مثل الأواني ذات المقابض والأطباق والأواني التي على هيئة الحيوانات ، ومعظم هذه الأنواع لم يعرف من قبل . وكذلك يزداد استخدام المعادن في هذه الحضارة ، فلم يعد استخدامها قاصراً على صناعة الدبابيس بل أصبحت تستخدم في كل أنواع الآلات والحلي . ومن أبرز هذه الآلات المعدنية الأزميل . ولم يقتصر الأمر في المعادن على النحاس بل عرف الذهب والفضة . وإذا كان الذهب والنحاس يوجدان في البيئة المصرية فإن الأمر ليس كذلك في الفضة فلا بد أنها استوردت من الخارج ، ولذلك كانت أندر من الذهب وأثمن . ومثل هذا يقال على الابسيديان واللاپس لازولى اللذين جلبا من الخارج لعمل حبات العقود . ويظهر أن النحاس المحلي كان من الوفرة بحيث أن الفؤوس أصبحت تصنع منه . ومن الجائز أن هذه الفؤوس كانت تستخدم في قطع الأشجار أو كانت أداة من أدوات القتال . وقد وجدت كأس من الفضة في قرية البلاص .

ويظهر أنه ظهر في حضارة جرزة تقسيم العمل والتخصص المهني بدليل المهارة الكبيرة والدقة العظيمة اللتين ظهرتتا في بعض الصناعات مثل صناعة الزجاج وثقب أشد الحجارة صلابة وغير ذلك . وبالطبع زادت التجارة في هذه الحضارة ، ففضلا عن المواد الأجنبية الموجودة في مقابر العمرة نجد في مقابر جرزة الفضة والرصاص والجمشت (الكوارتز البنفسجي) والفيروز . ولقد أصبحت الزراعة قوام الحياة الاقتصادية وتضاءل شأن الصيد كما يدل على ذلك اختفاء أسلحة الصيد من المقابر وقد أخذت بعض القرى في هذه الفترة تتضخم وبذلك سارت في طريقها نحو التحول إلى المدن التي ستصبح في العصر التاريخي عواصم الأقسام الإدارية أو المديریات . ويرى معظم العلماء أن رايات الأقسام التي ستظهر في العصر التاريخي ما هي إلا

الشارات الطوطمية التي تمثل معبود الاقليم أو حاميه . ولقد أصبح شراع كل سفينة يحمل علامة الاقليم الذي يتبعه ، ومعنى هذا أن القبائل الطوطمية التي ظهرت في حضارة العمرة استقرت في اقاليم خاصة في حضارة جرزة ، وهذه الاقاليم هي التي سنها في العصر التاريخي . على أن بعض هذه القبائل يختفي نتيجة لاندماجه في قبائل أخرى .

ولا يعرف شئ يذكر عن شكل بيوت نقادة الثانية ، لأن الجهات التي حفرت من مناطق هذه الحضارة لم تظهر فيها أشكال المساكن . ففي أرمنت - وهي أحدث مكان حفر من حضارة نقادة الثانية - لم تظهر آثار المساكن ولا حتى آثار المواقد والحفر التي كانت تثبت فيها القدور مع أن هذا كله من علامات القرى المصرية التي من فجر التاريخ .

ولا تقل التغيرات التي طرأت على أدوات الملبس والزينة عن التغيرات التي طرأت على الصناعة فيختفي المشط ذو الأسنان الطويلة اختفاء تاما بعد الرقم ٤٢ من تأريخ پترى ويحل محله المشط ذو الأسنان القصيرة كما تختفي اللوحات الارذوازية ذات الشكل البيضاوي بعد الرقم ٤٠ وتبقى اللوحات التي على شكل حيوانات .

وكذلك يتغير شكل المقابر فبعد أن كانت دائرية أو بيضاوية في نقادة الأولى أصبحت مستطيلة في نقادة الثانية أو على الأقل أصبحت عبارة عن حفرة ذات خطوط مستقيمة استخدم الطوب في تخطيطها . ويقع هذا التطور بعد الرقم ٣٥ من التأريخ المتتابع ، ثم بعد الرقم ٤٠ يوجد بالمقابر رف لوضع التقدّمات والعطايا التي كان يزداد عددها باستمرار حتى أصبحت هذه الهدايا الجنائزية تملأ الحفرة كلها وأصبح الميت يوضع في تجويف يحفر خصيصا للجثة . وفي بعض الحالات كان الميت يحاط بغطاء خشبي أشبه بالتابوت أو يوضع في كفن من الأغصان . ولمقابر هذا العصر دلالة اجتماعية ففيها نرى تزايد الثروة النفوذ عند فئات خاصة من الناس كما يدل على ذلك تمييز بعض المقابر عن البعض الآخر .

وفيما يختص بالحياة الروحية عرفنا عند الكلام على حضارة نقادة الأولى أن

أهلها كانوا يقدرسون الحيوانات والأشجار وكانوا يعبدون ألهة الأخصاب التي استمرت عبادتها حتى الدولة الحديثة ، وكذلك أشرنا إلى أنه من الجائز أنهم عرفوا عبادة الألهين ست ومين . فإذا انتقلنا إلى حضارة نقادة الثانية نجد أنه أصبح من الأمور المألوفة عند أهلها تزيين الفخار الذي يوضع مع الميت برسوم سفن تحمل عدداً من الألهة من بينها الآله مين . ومعنى هذا أنهم يختلفون عن أهل نقادة الأولى في المعبود الدال على الأخصاب فأهل نقودة الأولى عبدوه في شكل أنثى وأما أهل نقادة الثانية فعبدوه في شكل ذكر . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الآله ست لا يظهر رسمه في مقابر حضارة نقادة الثانية .

وقد أقيم للآله مين فيما بعد معبد في بلده قفط ، ويظهر أن فكرة إقامة معابد للآلهة ترجع إلى حضارة نقادة الثانية . وإذا أخذنا بالرأى الذي سنناقشه فيما بعد القائل بأن أهل هذه الحضارة جاءوا بطريق وادى الحمامات فإن قفط تكون أول مكان يقابلهم في وادى النيل .

وقد وجد رسم الآلهة نيت على إحدى القدور وهي ألهة الدرع والسهمين المتقاطعين . ويقال أن أصل هذه الآلهة لبي وأن عبادتها انتقلت أولاً إلى سايس بالدلتا . غير أن سهمهما شبيه بأسهم نقادة الثانية أى أن طرفه كطرف الأزميل وهذا يرجح أصلها المصرى . وعلى أى حال فإن هذا يظهر مدى الصلة بين الدلتا وبين أهل نقادة الثانية .

ولقد كانت الآلهة نيت من الأهمية حتى أن ملكتين من ملكات الأسرة الأولى سميتا باسمها وهما « نيت حتب » زوجه الملك نارمر ثم « مر نيت » أى محبوبة نيت أم الملك دن . وكذلك نجد أن معظم أسماء النساء المحفورة على لوحات من فجر الأسرات والمكتشفة في مقابر أبيدوس تحمل اسم هذه الآلهة .

ولعل أهم آله يظهر في حضارة نقادة الثانية هو الآله الصقر « حورس » الذى وجد مرسوماً على بعض الأواني . وهو يمثل رابضاً على قمر في شكل هلال . وقد

استمرت له هذه الهيئة حتى الأسرة الأولى مما يدل على أنه كان في الأصل أله القمر. وكذلك وجدت له تماثيل صغيرة في المقابر من بينها تمثال من العاج وجد في نوبت. ولما كان الصقر أله ملوك الأسرة الأولى فيمكن أن نستنتج من ذلك أن هؤلاء الملوك منحدرون من أصحاب حضارة نقادة الثانية لأنه من غير المعقول أن يتخذ هؤلاء الملوك ألهاء غير أله موطنهم الأصلي. ويظهر أن مدينة هيرا كونيو ليس كانت ذات منزلة عظيمة في ذلك الوقت. وربما تشير قصة الحرب بين حورس وست إلى اغارة أهل نقادة الثانية الذين يعبدون حورس على بلدة نوبت التي تعبد ست.

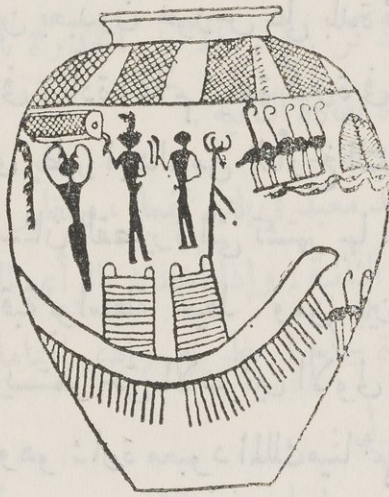
ولقد كان حجر التماثيل سبباً في زيادة التماث في زيادة كبيرة في هذه الحضارة. ومن هذه التماثم الرجل ذو اللحية الذي يظهر ابتداء من التاريخ المتأخر ٤٠ ويظهر رسمه على الأمشاط العاجية ذات الأسنان القصيرة التي تشتهر بها هذه الحضارة. كما يظهر في الدلائل التي تتدل من الرقبة بواسطة خيط. ومن بين التماثم رأس الثور الذي يظهر ابتداء من الرقم ٤٦ ويستمر حتى الأسرتين الأولى والثانية. وقد استدل من اتخاذ تماثم على شكل الصقر وهو شارة معبود الملك مينا ثم البقرة التي عبدت في العصر التاريخي باسم حاتور وغير ذلك من الحيوانات على أن هذه الشارات الطوطمية تحولت بالفعل في هذه الحضارة إلى آلهة محلية ولكن لم تكتشف حتى الآن معابد أو مذابح فكل المعلومات مستمدة من المقابر. ولقد أصبح اتجاه وجه الميت غير ثابت.

كما أن دفن أكثر من ميت في حفرة واحدة لم يعد موجوداً كما أن الكلاب لم تعد تدفن مع أصحابها، وكذلك ندر وضع الأساحة مع الميت وربما تعمدوا تحطيم الأواني والحلي والآلات عند وضعها مع الميت.

ويمكن القول بصفة عامة أن الناس في هذه الحضارة لم يحافظوا فقط على المستوى الحضاري الذي وصل إليه العمريون بل أضافوا إليه آراء جديدة فرفعوا من هذا المستوى.

لأنعرف المصدر الذي جاء منه أهل حضارة نقادة الثانية، ولا الطريق الذي سلكوه في هجرتهم إلى مصر. والمكان الوحيد خارج وادي النيل الذي توجد

فيه الرسوم التي تحمل طابعهم — مثل رسوم السفن على الفخار (انظر شكل ٧٤) ومثل قوارب البحر الأحمر المرسومة على المقبض العاجي للسكين المشهور المكتشف في جبل العرق — هو وادي الحمامات . ولهذا يقول وينكر الذي نشر هذه الرسوم الصخرية أن أهل نقادة الثانية جاءوا من الدلتا وساروا بحذاء ساحل البحر الأحمر حتى القصير ثم اتخذوا طريق وادي الحمامات إلى وادي النيل عند ثنية قنا ، أي أن وينكر أخذ برأى شارف في هذه النقطة .



شكل (٧٤) آنية فخارية عليها رسم قارب

ومما يعزز حجى هذه الاقوام بطريق وادي الحمامات أن معظم مخلفاتهم تقع عند تلاقي هذا الوادي بالنيل حيث تقع قفط ونوبت وديوسبوليس بارفا ومن الجائز أنهم خرجوا من الدلتا مطرودين لأنهم اتخذوا طريق الصحراء ولم يتخذوا طريق الوادي الأقل طولاً والاكثر أمناً فلما استقر لهم الامر بالصعيد فكروا في استعادة أرضهم المفقودة بالدلتا فأغاروا عليها وبذلك تم توحيد البلاد . ولكن من ضمن مراكز هذه الحضارة الرئيسية الحراقه وجرزه وابوصير الملق وكاها عند مدخل منخفض الفيوم بل أن مركزاً من مراكز هؤلاء الاقوام وجد في الفيوم نفسها . وإلى الشمال من ذلك توجد المعادى حيث استقرت بها قبل حضارة نقادة الثانية بقليل جماعة تقترب في مستواها الثقافي من أهل النقادة وتتصل بشبه جزيرة سيناء حيث جلب منها النحاس والفيروز كما تتصل بفلسطين حيث جلبت منها الاواني ذات

المقايض المموجة فهل يمكن القول أن أهل المعادى أنفسهم هم الذين هاجروا بطريق الصحراء الشرقية ثم بطريق وادى الحمامات فأسسوا حضارة نقادة الثانية بالصعيد. ربما حدث هذا لعدة أمور منها أن حضارة المعادى أقدم من حضارة نقادة ومنها أن الاوانى التى ذات المقايض المموجة تظهر بقله فى المعادى يستحيل معها القول أنها صناعة محلية ولا بد من القول أنها مستوردة من الخارج ثم نجد بعد ذلك أن هذا النوع من الاوانى ينتشر انتشارا كبيرا فى حضارة نقادة الثانية حتى تصبح هى الآنية الاولى مما يدل على أنها أصبحت صناعة محلية ، ومنها أيضاً أنه تظهر بالطبقات الاثرية بالمعادى آثار تخريب وتكسير وحرائق مما يرجح حدوث قتال بهذا المكان أرغم القوم على مغادرة ديارهم إلى الصعيد بطريق الصحراء حيث أسسوا حضارة نقادة الثانية ، ومنها كذلك أن الاوانى المزينة برسوم تظهر بقله فى المعادى رغم رقى مستواها الحضارى ثم تصبح وفيرة فى نقادته الثانية مما يمكن معه الفرض بأن حضارة المعادى كانت مرحلة تمهيدية لحضارة نقادة الثانية وأن أهل المعادى هم الذين أسسوا نقادة الثانية .

ولقد كان هناك مركز رئيسى لهذه الحضارة عند مدخل الفيوم كان معاصراً للمركز الآخر لنفس الحضارة بين أيدوس وهيرا كونيوليس . وكان يصل بين المركزين وادى النهر . ومن الجائز أن تأسس المركز الجنوبي سابق فى الزمن لتأسيس المركز الشمالى وأن الجماعة التى وصلت بطريقة وادى الحمامات إلى ثنية النيل استقر جزء منها بمنطقة الثنية بينما واصل الجزء الباقى سيره شمالاً إلى أن حط رحاله عند مدخل الفيوم حيث أسس حضارة جرزة . ويميل بعض الأثريين إلى تقسيم حضارة الصعيد فى عصر ما قبل الأسرات إلى مرحلتين حضارة العمرة فى الجنوب أو حضارة نقادة الاولى ثم حضارة جرزة فى الشمال أو حضارة نقادة الثانية غير أن الآثار المكتشفة من هذه المناطق متداخلة فى بعضها بحيث لا تتمشى مع هذا التقسيم . وربما كان الأفضل اعتبارها مراحل متدرجة لحضارة واحدة بصرف النظر عن

(1) Caton - Thompson & Gardner , The Desert Fayum , . p, 9 .

المكان الذي كشفت منه الآثار ، لأن ما كشف من هذه الآثار لا يكون إلا جزءاً ضئيلاً من الثروة الأثرية التي يخفيها باطن الأرض ، ومن ثم كان فرض تقاسيم ونظريات بناء على هذا الجزء الضئيل الذي كشف أمر لا يستقيم مع المنطق ولقد ظهر الختم الأسطواني في مقبرة من التاريخ المتأخر رقم ٤٦ وهو من نوع الأختام المكتشفة في العراق . ويبنى المؤرخون على هذا التشابه نتائج خطيرة تتلخص فيما يلي :

أولاً : أن هذه الأختام ظهرت في مصر والعراق في وقت واحد .

ثانياً . أنها ظهرت في العراق مع الكتابة السومرية في حين أنها ظهرت في مصر في فترة سابقة لظهور الكتابة مما يبعث على الظن أن هذه الأختام منقولة من العراق .

ثالثاً : هناك تشابه في طريقة ظهور الكتابة في كل من البلدين وذلك أنها تظهر فجأة بدون سابق تدرج مما يدل على أن عبقرها اخترعها ثم نشرها دفعة واحدة .
رابعاً : بعض الحروف الهيروغليقية مأخوذة عن اللغة السامية مثل حرف الدال الذي يعبر عنه في الحروف الهيروغليقية برسم اليد .

خامساً : كان أهل حضارة نقادة الثانية يتكلمون لغة سامية على نقيض أهل نقادة الأولى الذين كانوا يتكلمون لغة حامية . وبذلك تكون مصر في حضارة نقادة الثانية قد سارت في تيار مختلف عن باقي أجزاء شمال أفريقيا الذي ظل ذا ثقافة قفصية وحامية .

ولكن بعض الباحثين يرى أن اللغات الحامية والسامية من أصل واحد وأنها تفرعا عن هذا الأصل منذ فجر التاريخ ، وأن مصر منذ مبدأ الأمر كانت من الشعبة اللغوية السامية .

ويرى بعض العلماء أن العناصر الجديدة التي تميز حضارة مصر العليا في الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات (جرزة) اشتقت من الشمال أو من الشمال

الشرقي ومن المرجح أن أصحاب هذه الابتكارات كانوا على اتصال بأعلى النيل مدة من الزمن قبل الرقم ٣٩ من تأريخ پترى لأن الفخار المزين برسوم وجد متفرقا في مصر العليا قبل هذا التاريخ ويعزو پترى هذه العناصر الجديدة إلى الصحراء الشرقية حيث الظروف الطبيعية تساعد على صنع الأواني من الحجارة وما يؤيد ذلك أن من الجزية التي كانت تقدم للفراعنة الأول أواني شبيهة بأواني حضارة جرزة مما يدل على أصلها الأجنبي . ويربط بعض العلماء بين الأواني ذات الأيدي المموجة وبين أواني فلسطين وسوريا أي أن الصلات الآسيوية واضحة في هذه الحضارة . فالمميزات التي اختصت بها هذه الحضارة مثل رأس الحربة التي على شكل الكمثرى والأواني التي على شكل حيوانات والأواني ذات البروز . . . الخ كل هذه المميزات عبارة عن مظاهر حضارية تنتشر فوق منطقة واسعة تمتد خلال غرب آسيا حتى كيش على نهر دجلة وسوسا، فعلى الأقل يمكن إرجاع أحد أصول حضارة جرزة إلى التربة الآسيوية . وتتفق مع هذا القصص الدائرة حول أوزيريس كما يتفق معه رأى ينكر القائل بحدوث اتحاد بين الوجهين البحري والقبلي (الاتحاد الأول) تحت سلطة ملوك شرق الدلتا قبل عصر الاتحاد الثاني الذي سيتم تحت سلطة ملوك طيبة وأولهم الملك مينا .

ولكن إذا كانت حضارة جرزة ترجع ثقافيا إلى غرب آسيا فإن منطقة تخصصها النهائية كانت في غرب الدلتا وليس في شرقها ففي غرب الدلتا يوجد التهنو الليبيون ويوجد الموطن الأصلي لحضارة الزيتون كما يقول نيوبرى وتوجد رواسب النطرون التي يمكن استخدامه في صناعة الزجاج ولقد بين نيوبرى أن ١٦٦ قاربا من القوارب المرسومة على الفخار وعددها ٢٨٨ تحمل شارة قسم الحربة الغربية الذي كان موضعه في العصر التاريخي عند مصب الفرع الكانوبي ثم ٨٠ أخرى تحمل شارات أقسام غرب الدلتا الأخرى ثم بعض القوارب الباقية تحمل علامة السمكة وهذه العلامة وإن كانت قد اختفت في مصر التاريخية إلا أنها وجدت على قوارب بحر ايجة . كما لاحظ نيوبرى

أيضاً أن ميناء مصر الرئيسى كان فى غرب الدلتا فى ذلك الوقت فى قسم الحربة الغربية .
ومعنى هذا أن غرب الدلتا كان واسطة الاتصال بين مصر وكريت وربما بين مصر
وسوريا عن طريق البحر وقد وجد فى احدى مقابر جرزة تيممة من النوع
الشائع فى كريت وسوريا .

وعلى هذا يمكن القول أن حضارة جرزة أو حضارة القسم الأوسط من عصر
ما قبل الأسرات نشأت فى الدلتا وأن انتشارها إلى الصعيد يدل على النفوذ الثقافى
لأهل الشمال وهنا يتساءل العلماء هل إدخال هذه الحضارة إلى الجنوب وظهور قوة
غرب الدلتا كما يتضح من القوارب المرسومة على الفخار التى تظهر فى الصعيد بعد
الرقم ٤٥ يدل على السيطرة السياسيه لأهل الشمال على أهل الجنوب كما ترويه قصة
أتباع حورس (شمسو حور) ؟ وهل السفن التى عليها علامة الحربة هى سفن أهل
غرب الدلتا الذين أغاروا على الجنوب يتبعون حورس ؟ وهل لتقدم هذه الحضارة
نحو الجنوب علاقة بتوغل العناصر السامية فى المجموعة اللغوية الحامية الأصل ؟
وهل انتشر فى هذا الوقت تقويم ممفيس وهليوبوليس وكتابة الدلتا فى جميع أنحاء
مصر ؟ وهل يمكن القول أن دورة الشعري اليمانية الأولى Sothic Cycle سنة ٤٢٣٦
ق . م تتفق على وجه التقريب مع الرقم ٤٥ من تاريخ بترى ؟ يميل بعض العلماء
إلى الاجابة على هذه الأسئلة بالاجاب ولكن البعض الآخر مثل بترى يرى رأيا
مخالفا فيقول أن قبيلة حورس أتت من الجنوب وليس من الشمال ويرى علماء
آخرون أن غزو أتباع حورس لمصر العليا لم يحدث إلا بعد نهاية حضارة جرزة
أى بعد الرقم ٦٣ من تاريخ بترى وقبل عهد ميناء بقليل (أى بعد الرقم ٧٠)

وهناك رأى آخر هو أن الحضارات المصرية نشأت وتطورت فى وادى النيل
نفسه وأن كل الابتكارات الثقافية من نتاج عقول المصريين وهذا لا ينفى دخول
عناصر جنسية جديدة إلى وادى النيل أثناء قيام هذه الحضارات فلا شك أن أصحاب
حضارة جرزة كانت لهم صلة بأهل آسيا ولكن لا يوجد ما يدل على أن هذه
الحضارة منقولة عن آسيا بل قد يكون العكس هو الصحيح وهو أن النماذج العراقية

الشبيهة بالنماذج المصرية تفسر بوجود تيار حضارى خارج من مصر نفسها .
ولقد كانت ظروف وادى النيل مساعدة على قيام الزراعة المنظمة ، فزراعة
الزيتون ابتكرت فى غرب الدلتا . كما كانت ظروف النهر نفسه مساعدة على قيام
الملاحة وكان الشعب المصرى فى عصر ما قبل الأسرات يصنع القوارب ويقال أن
هذا الشعب هو أول مبتكر لها . كما ابتكرت الكتابة فى هذا الوادى واتخذت حروفها
من مناظر الصيد القديمة ، ولما ازداد رقى المصريين وجدوا أنهم لا يستطيعون العيشة
فى عزلة وازدادت مطالبهم فنظروا إلى العالم الخارجى لاستكمال ما ينقصهم من أدوات
كالخشب (بعد عصر البدارى) والملاكيث والبهارات وتدل المواد الاجنبية فى
القبور المصرية التى من هذا العصر على أن علاقات المصريين التجارية بلغت فارس
وأرمينيا وشمال سوريا وعلى هذا وجدت الفرصة أمام سكان هضبة ايران وآسيا
الصغرى وجزيرة كريت لتعلم ما ابتكره المصريون من صناعة . وبالطبع نقل
المصريون شيئاً من حضارة هذه البلاد فان الفترة الاخيرة من عصر ما قبل الأسرات
(السمانية) وفترة الاسرتين الأولى والثانية (Protodynastic) تمتاز بظهور أشياء
فنية فى وادى النيل نادرة ومتفرقة فى حين أن هذه الأشياء تعتبر الانواع الوطنية
السائدة فى العراق . وهذا يدل على أنها منقولة عن هذه الجهة .

ثالثاً : حضارة سمايةنة

تنسب هذه الحضارة إلى بلدة سمايةنة بالقرب من بلدتي الأبعادية وهو بمرکز
نجم حمادي ، وتعتبر فترة انتقال بين عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات إذ
أن بعض مظاهرها الأثرية تمتد حتى الأسرتين الأولى والثانية . وتمتاز الفترة الواقعة
بين رقي ٦٣ ، ٧٦ من تاريخ بترى التتابعي بتحول القرى إلى مدن وبظهور الملوك
المقدسین وباتحاد القبائل المتنافرة تحت سلطة واحدة . ولم يبق من آثار مدن هذا
العهد شيء ولذلك نستمد معلوماتنا من المقابر فهي التي دلت على ظهور الطبقة الحاكمة
وعلى تطور الفن والصناعة وعلى انتهاء الحروب المهلكة بين القبائل وعلى نمو
الثروة بين أفراد الشعب عامة وتركزها عند بعض الفئات خاصة كما دلت على العلاقات
الثقافية بين مصر من ناحية وبين أقطار غرب آسيا من ناحية أخرى .

ويظهر ازدياد الثروة في تطور الفنون الصناعية إذ ازداد استخدام النحاس في صناعة
الأسلحة والآلات بل الأواني أيضاً (انظر شكل ٧٥) . وكذلك صنعت الأسلحة مقابض
من الخشب نتيجة لاستيراد الأخشاب الصالحة لهذا الغرض من سوريا . كما وجدت الحراب
المصنوعة من النحاس (انظر شكل ٧٦) وأما السنارة المصنوعة من النحاس فلا تظهر
في الصعيد إلا في الأسرة الأولى ، بينما وجدت في حضارة المعادي السنانير النحاسية
رغم أنها أقدم من حضارة سمايةنة . وتعليل هذا أن موقع المعادي بالقرب من شبه
جزيره سيناء وعند رأس طريق يصل شبه الجزيرة بالنيل يسر لأهلها استيراد المعادن
— ومن بينها النحاس — من سيناء فاستخدموها في أغراض مختلفة في وقت مبكر
عن حضارات الصعيد .

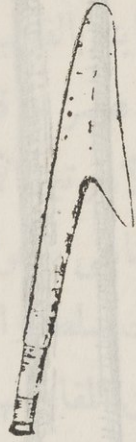
ولكن استخدام المعادن لم يقض على صناعة الصوان ، حتى أوائل عصر
الأسرات كان النحاس قليلاً رغم شيوع استعماله ، وكانت الآلات تصنع من الحجارة
ولا سيما الآلات الضخمة اللازمة لأعمال البناء والزراعة . وقد جمعت من المدن

المصرية القديمة مئآت الفؤوس الحجرية المصنوعة من نواة الصوان كما جمع عدد كبير



شكل (٧٥) يبين ازميلا من النحاس من حضارة صماينة
(من مقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو)

من أسنان المناجل والأسلحة والمكاشط المستديرة وغير ذلك من الشظايا (انظر أشكال ٧٧ و ٧٨ و ٧٩). ومع أن هذه الآلات متقنة الصنع إلا أنهم لم تصل درجة انقار الآلات



شكل (٧٦) يبين حربة من النحاس من حضارة سميانة

الحجرية في القسم الأوسط من عصر ما قبل الأسرات. وقد وجدت في الأسرتين الأولى



شكل (٧٧) فأس من الصوان من حضارة سميانة

والثانية أنواع أخرى من الآلات الصوانية المتقنة الصنع مثل الأزميل وآلة الضرب التي على شكل الكثرى والسهم والدرع وعصاة الرماية.

وكذلك تضاءلت صناعة الفخار من الناحية الفنية، وربما ظهرت الآلة الخاصة بصناعة الأواني الفخارية في هذه الفترة. ويختفي فن طلاء الفخار بالألوان ابتداء

من الرقم ٦٠ من التاريخ التسابعي ، ولا نجد غير الأواني الحمراء والسمراء . ونجد الصناع يفضلون صناعة الأواني ذات القاعدة المدببة والحافة البارزة ، وتحتق الأواني ذات المقابض . على أنه تظهر بعض الأنواع الجديدة منها نوع يظهر حوالى الرقم



شكل (٧٨) أزميل من الصوان من حضارة سماينة

٧٠ من التاريخ التسابعي وهو ذو قاعدة انبوية الشكل مجوفة وذو جوانب مشقوبة ثقوبا مثلثة الشكل ، وقد وجدت بالعراق أواني شبيهة بهذه تماما .



شكل (٧٩) سلاح من الصوان من حضارة سماينة

ويعلل انحطاط صناعة الفخار في هذه الفترة بتعليمين : أولا . احتلت الأواني الحجرية والمعدنية محل الأواني الفخارية على مائدة القرابين بالمقابر . ثانيا . أدى ظهور حياة المدن إلى تحول الفخار من عمل فني إلى صناعة تجارية تعنى بكثرة الإنتاج دون الذوق والاتقان .

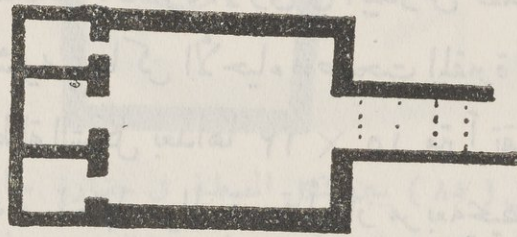
وكذلك تنحط صناعة الأواني الحجرية فنجدها متشابهة غير متعددة الأشكال وتحتفي الأواني المتنوعة الجميلة التي ظهرت في حضارة جرزة . ونجد المادة المستعملة قاصرة في معظمها على الألباستر والبازلت ، ولا نجد بالمقابر الملكية التي ترجع لهذه الفترة إلا أواني قليلة من الأبيديان (الزجاج الطبيعي) والبلورات الصخرية . وأعم أشكال الأواني في هذه الحضارة الاسطوانية الطويلة ثم المواجير المسطحة ذات المقابض والخافات وهي شبيهة بمواجير حضارة جرزة . على أنه يظهر نوع هام بين الأواني الحجرية في هذه الفترة هو الأواني التوأمية المحفورة في قطعة واحدة من الحجر . ولهذه الأواني أيضاً نظائر عراقية .

فيما عدا الطين والحجر كانت تصنع أواني قليلة من الزجاج الطبيعي والمعادن . ومن ضمن الأواني المعدنية الأطباق والأقداح والكؤوس . وأحد هذه الكؤوس مكون من قطعتين منفصلتين — جسم الكأس وقاعدته — تربط بينهما حلقة معدنية وقد ارتقت بعض الصناعات والفنون في هذه الفترة منها فن النجارة إذا أصبحت تصنع من الخشب أرائك ذات أرجل على شكل حوافر الثيران ، وقد استخدمت هذه الأرائك أسرة للهوتي بعد الرقم ٦٦ من التاريخ التساعي .

أما أدوات الزينة والتماثيل فنما اللوحات الأردوازية التي على شكل حيوان ومنها الخرز الحلزوني المصنوع من الحجارة المختلفة والمطلي بالذهب في بعض الأحيان . وتظهر الدلايات والتماثيل وقطع اللعب في أشكال حيوانات جديدة كالأسد والقرد والضفدعة والعقرب والحمام وكل هذه الأشكال لها ما يقابلها في العراق كذلك . وقد وجدت حلقة في أبو صير الملق على شكل جمل .

وتظهر الاسطوانات كتماثيل بعد الرقم ٦٥ ثم استخدمت في الأسرة الأولى كأختام للتصديق على الوثائق ووجدت عليها نصوص هيروغليفية أذ أنه منذ هذا التاريخ أصبح الكتابة شائعة . وأصول هذه الكتابة نيلية وقد وجدت هذه الأصول لأول مرة على مقابض السكاكين العاجية التي ترجع لآخر الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات .

وقد دل فحص المقابر على أن قبور الفقراء ظلت خلال هذه الفترة على ما كانت عليه في الفترة السابقة. وأما قبور الأغنياء فقد ازدادت العناية بها فأصبحت تحفر إلى عمق كبير خلال الطبقة الرملية بل خلال الطبقة الصخرية التي تحتها. وكان لابد في هذه الحالة من عمل درج يؤدي إلى المقبرة لكي ينزل بواسطته حملة النعش وحملة القرايين، كما كان لابد من عمل سقف يقوم فوق عمد. وقد قلنا أنه في حضارة جرزة كان يعمل تجويف في جانب المقبرة لوضع الهدايا والتقدمات فإذا ما انتقلنا إلى حضارة سماينة نجد هذا التجويف تزداد مساحته ثم يفصل عن حفرة الدفن بحاجز من الأغصان ثم يتحول أخيراً إلى حجرة مستقلة ويبنى الحاجز بالطوب (أنظر شكل ٨٠).



شكل (٨٠) يبين شكل المقبرة في حضارة سماينة

وفي أوائل حضارة سماينة — أي حوالي الرقم ٦٣ من التأريخ المتتابعي — كانت مقابر الأثرياء تطل بالطين وتخطط بالطوب ومن أمثلة هذه المقابر مقبرة وجدت في هيراكونبوليس طولها أربعة أمتار ونصف وعرضها متران وارتفاعها مترو ونصف وهي مقسمة إلى حجرتين متساويتين بواسطة حائط. وقد طليت جدرانها بالطين أولاً ثم بدهان أصفر لكي تنقش عليه بعض النقوش. وبالفعل رسم الفنان على هذه الجدران بالألوان الحمراء والسوداء والبيضاء مناظر تمثل الصيد والرقص والقتال وغير ذلك من المناظر التي يوجد ما يشبهها على الأواني الفخارية. وتعتبر هذه المناظر بدأ الرسوم الجنائزية التي سنراها في العصر التاريخي، وهي في الوقت نفسه مأخوذة عن الرسوم التي رأيناها على الفخار.

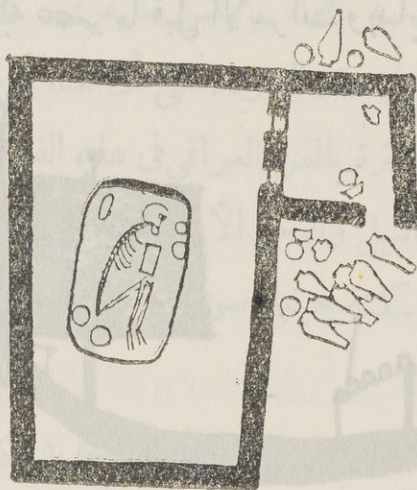
ولمقابر هذا العصر دلالة اجتماعية ففيها نرى تزايد الثروة والنفوذ عند فئات خاصة من الناس . فلا شك أن صاحب مقبرة هيراكونبوليس كان رئيس قبيلة ، وبذلك نرى الطريق أصبح ممهداً لظهور الملك الذي سيوحد الوجهين القبلي والبحري . وبعد الرقم ٧٧ تظهر مجموعة أخرى من المقابر تعلو فيها مباني المقبرة فوق سطح الأرض وتخصص غرفة للعبادة وتقديم القرابين .

ثم أصبحت حجرة الدفن في مقابر الأسرة الأولى عبارة عن بئر عميق تبني فوقه حجرة بالطوب تملأ عادة بالرمل ، وإلى الغرب من هذه الحجرة تبني حجرة أخرى صغيرة متصلة بالسابقة بفتحتين منخفضتين ، وتملأ الحجرة بالأواني وتستخدم كمذبح أو مزار .

وأما في المقابر الملكية بالأسرة الأولى في أيبندوس فقد بذلت محاولة لبناء مدفن تحت الأرض شبيهة بمساكن الأحياء فأصبحت المقبرة عبارة عن حفرة كبيرة مخططة بالطوب مستطيلة الشكل بعدها 12×15 متراً تقوم في وسطها حجرة الدفن ثم صالة خشبية مساحتها حوالي تسعة أمتار مربعة يحيط بها عدد من الحجرات الصغيرة التي تستخدم كمخازن ، ثم يحاط كل البناء بصنوف من المقابر الصغيرة تستخدم لدفن أعضاء الحاشية . ثم في نهاية الأسرة الأولى أضيف إلى بناء المقبرة دهلز مدرج يؤدي إلى حجرة الدفن ، وفي بعض الحالات كانت أرضية الحجرة تكسى بالجرانيت . ولا شك أنهم قصدوا جعل بعض هذه المقابر أثراً يخلد ذكرى الميت كما في طرخان مثلاً . ويطلق علماء الآثار على هذا الشكل الأخير الذي اتخذته المقبرة في الأسرتين الأولى والثانية اسم مصطبة لشبهه بمصاطب الفلاحين . إذ أصبحت المقبرة عبارة عن بناء ضخم مستطيل من الطوب الأخضر بداخله عدة حجرات صغيرة ، وتحت الحجرة الوسطى توجد حفرة الدفن محفورة في الأرض إلى عمق كبير (انظر شكل ٨١)

والجدار الخارجي للبناء لم يكن مستقيماً بل كان ذا تجاوزيف منتظمة . وقد استخدمت هذه التجاويف كمذابح جنائزية . ثم في الأسرة الثالثة نجد المصطبة تبني

بالحجر وتزداد مساحة الحجرات الداخلية ، وأخيراً نجد الملك زوسر أحد ملوك هذه الأسرة يبنى مقبرة من عدة مصاطب فوق بعضها هي المعروفة بإسم الهرم المدرج في صقارة . ويستخلص من هذا أن الآثار الجنائزية المصرية عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات منذ الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات حتى الأسرة الثالثة ، وأن التطور كان تدريجياً من الحفرة البسيطة حتى الهرم المدرج .



شكل (٨١) يبين شكل المصطبة في حضارة سهاينة

وقد تطلبت حضارة المدن التي ظهرت في هذا العصر زيادة العلاقات التجارية وانتظامها مع العالم الخارجى . فجلب النحاس من سيناء والذهب من النوبة وخشب الأرز من بيلوس والزجاج الطبيعى من غرب آسيا . وقد استنتج من حفائر أجريت في بيلوس على وجود علاقات متينة بين مصر وشمال سوريا منذ بدأ الأسرات فلا بد أن مقدمات هذه العلاقات بدأت في عصر ما قبل الأسرات . كما ثبت وجود حركة تجارية مصرية مع البحر الأحمر من آثار وجدت في مقبرة في رأس سامادى على خط عرض ٢٥ شمالاً ، وترجع هذه المقبرة إلى عصر ما قبل الأسرات وقد وجد بها أوانى ولوحات اردوازية من أواخر هذا العصر . هذا بالإضافة إلى الأصداف البحرية التي تدل كثرتها على انتظام التجارة مع ساحل البحر الأحمر . ويدل وجود أصداف هذا البحر في كريت في فترة معاصرة لأواخر عصر ما قبل الأسرات على أن هذه الأصداف انتقلت إلى الجزيرة عن طريق مصر .

والصلة بين مصر والعرق ينبغي أن تدرس في ضوء العلاقات التجارية . وتوضح هذه الصلة من أن بعض الشارات التي استعملت استعمالاً مؤقتاً في بداية عصر الأسرات المصرية تكون عناصر دائمة في مدينة بلاد النهرين . (العراق) . على أنه لا يوجد من بين هذه الشارات ما يمكن وصفه بأنه بابيلوني صرف وذلك لأنها مصرت حين استعمالها ، فهذه الشارات العراقية إنما تزين أشياء مصرية . وقد شملت العلاقات المصرية العراقية عصر ما قبل الأسرات وبداية الأسرات .



شكل (٨٢) يبين سفينة أجنبية مرسومة على إحدى اواني حضارة سماينة

ففي بدء حضارة سماينة حوالى التاريخ التتابعى ٦٣ نجد مجموعة كاملة من الرسوم الأجنبية ممثلة على أثرين مصريين . الأثر الأول يدسكين من العاج وجد في جبل العرق ، والأثر الثانى مقبرة هيرا كنپوليس التى سبقت الإشارة إليها . وموقع الأثرين يسترعيان الانتباه فهما يقعان بالقرب من نهاية طريق هام للقوافل يصل النيل بالبحر الأحمر . وعلى كلا الأثرين نجد صورة قارب يختلف تمام الاختلاف عن القوارب المصرية المرسومة على الأواني الفخارية . فالقارب الأجنبى يمتاز بمقدمة طويلة ومؤخرة عالية وهما صفتان لا تتوفران فى القارب المصرى المصنوع من عيدان البردى . وكذلك تظهر صورة القارب الأجنبى فى مصر على آيتين من الفخار وعلى بعض آثار الأسرة الأولى (أنظر شكل ٨٢) . ولا يمكن القول أن هذا القارب متطور عن قوارب البردى المصرية ، والأرجح أن يقال أنه منقول عن

قوارب بلاد النهرين وبالفعل توجد قوارب شبيهة بهذه على بعض أواني سومر من الألف الثالثة قبل الميلاد . وأما السكين المكتشفة في جبل العرق فعملها صورة كلب يختلف عن كلاب الصيد المصرية ويشبه السكلاب البابيلونية . وكذلك وجد على متبعض السكين وعلى نقوش المقبرة مجموعة من الصور تمثل بطلا يصارع أسدين وهذه الفكرة غريبة عن الفن المصري ولكنها شائعة في الفن البابيلوني . يضاف إلى هذا أن البطل ذو حية كاملة ولباس سومري . كل هذا يدل على تأثير الفن العراقي في الفن المصري في هذه الفترة . على أن هذا لا يعنى أن الصورة كلها عراقية وإنما هي صورة مصريه متأثرة بالفن العراقي في هذه الفترة . فالبطل أقرب إلى أبطال الصحراء الفاصلة بين النيل والبحر الأحمر منه إلى بطل من بابل أو سومر أو جاجيميش أو علام . ولكنه حينما صوره الفنان المصري كان متأثرا بأفكار وآراء عراقية .

وكذلك تظهر في هذه الفترة تماثيل حيوانات جديدة كالأسود والقروود والضفادع والعقارب وكلها من الأنواع الشائعة في بلاد النهرين . بل أن المصريين كانوا في هذه الفترة يصورون الأسد في تماثيلهم ذا مخالب مفتوحة بنفس الطريقة التي كانت متبعة في سوسه وبابل وقد هجرت هذه الطريقة في مصر بعد ذلك .

هذه هي أوجه الشبه بين الفن المصري وفن بلاد النهرين في الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات . وقد استمر بعضها في الأسرة الأولى ومثال ذلك رأس صولجان تمثل الاحتفال بعيد « سد » لأول الفراعنة ، فإن شكلها غريب في مصر ومألوف في بابل . وكذلك بعض الأنية المحفور عليها بعض الرسومات التي تعتبر من الأشياء الشائعة في وادي الدجلة والفرات عامة وفي سومر خاصة بينما لم تكن معروفة من قبل في وادي النيل . وكذلك تعتبر من الأواني الآسيوية ذات القواعد الأنبوبية الشكل التي سبق ذكرها فقد وجدت بكثرة في أقدم الطبقات الأثرية في آشور وفارا وغيرهما من بلاد النهرين ثم في حضارة سوسا الثانية وهي في كل هذه الجهات مزينة بالخطوط المحفورة المثلثة الشكل كما في مصر .

وكذلك تعطى أهمية كبيرة لبعض الظواهر المعمارية في المقابر الملكية والمصاطب القديمة في اثبات العلاقة بين مصر وبلاد النهرين في أوائل عصر الأسرات . فالجدران ذات الفجوات لها ما يماثلها في بابل بل أنها بقيت بالعراق حتى اليوم . ويلاحظ أن الجدران ذات الفجوات تقليد لصنفوف من الأعمدة الخشبية كان يثبت فيها بين كل عمود وآخر باب خفيف ، وكذلك يلاحظ أن رسوم الفجوات في مقبرة حسبي في سقارة ثم قراميد مقبرة زوسر الجديدة تدل على أنه في بعض الحالات كانت تملأ الفجوات بين الأعمدة بحصير من الغاب يحمل الطابع السورى . وهذا التشابه بين البناء بالطوب في كل من مصر والعراق يدل على أنه إن لم يكن أحدهما تقليد للآخر فأنهما على الأقل قاما على أسس معمارية مشتركة .

والتشابه كبير بين المقابر المصرية القديمة ومقابر بلاد النهرين بحيث لا يمكن إرجاع هذا التشابه إلى الصدفة . ففي مقابر الملك مينا وخلفائه توجد محاولة على نطاق ضيق لتقليد قاعة الملك تحت بئر الدفن . وقد وجد مثل هذا في مقابر أور . وكذلك دفنت حاشية الملك مينا حوله في ملاحق لمقبرته وكذلك في أور كانت كل حاشية الملك تذبج وتدفن معه . وكذلك يوجد شبه بين دفن الجحشين وسائقها في مم مصطبة طرخان وبين دفن سائق الحمار في مقابر كيش وأور ولا يمكن أن يكون هذا التشابه في التقاليد الجنائزية راجعا إلى الصدفة وحدها .

وكذلك الاسطوانات التي استخدمت كأختام في الأسرة الأولى رغم أن الكتابة عليها في جميع الأحوال مصرية صرفة ألا أنها تحمل وجوه شبه بينها وبين الاسطوانات البابلية بل أنها ظلت تستخدم في المكان الأخير بعد أن بطل استخدامها في مصر بمدة طويلة . ثم أن الحروف الهيروغليفية نفسها رغم أن عناصرها نيلية صرفة إلا أنها تحمل بعض الصفات البابلية .

كل هذا يدل على أن مصر وسومر في عهد أقدم ملوكهما كانتا على اتصال مباشر أو غير مباشر ولكنه منتظم . أما نوع هذا الاتصال فمختلف فيه . فهناك لفيف من الكتاب مثل پترى ودى مورجان يرى أن شعبة جنسية من سومر غزت مصر

فأوجدت الكتابة وصناعة المعادن والذوق الفنى والنحت على الحجر وصناعة النجارة الراقية ومجلة الفخار وجعل المقبرة تذكاراً ثرياً يخلد ذكرى صاحبه . وهناك لفيف آخر يرى أن الأمر لم يتعد العلاقات التجارية بين وادى النيل من ناحية وبين وادى الدجلة والفرات من ناحية أخرى وأنه ليس من الضروري أن يكون التجار سومريين بل كان هناك وسطاء تجاريون بين مصر وسومر ربما كانوا سكان ماجان الوارد ذكرهم فى النصوص السومرية كشعب مخاطر يركب البحار . وهناك رأى ثالث وسط بين الرأيين السابقين وهو أنه كان هناك مركز ثقافى متوسط بين سومر ومصر غدى هاتين الجهتين بالعناصر الثقافية المشابهة .

والذين يريدون تفسير هذه الصلات على أساس جنسى يجدون ما يؤيد رأيهم ولو تأييداً ظاهرياً . فلهذا كل البشرية بمثابة ملوك الأسرة الأولى ولو أنها من جنس السكان فى عصر ما قبل الأسرات - أى ذات رؤس طويلة - ألا أن رؤسهم أعرض وهيكلهم أقوى من سكان عصر ما قبل الأسرات وكذلك يظهر بالمقابر الملكية ابتداء من الأسرة الثالثة عنصر عريض الرأس من الجنس الذى يسميه علماء الأجناس « أرميني » يضاف الى هذا أن اللوحات الارذوازية فى أوائل الأسرات تصور عدة اجناس بن اتباع ميناء وبين أعدائه . وقد ميز بترى ستة انواع جنسية على هذه اللوحات .

وكذلك الذين يريدون تفسير هذه الصلات على أساس ثقافى يجدون ما يؤيد رأيهم فإن العنصر الجنسى الذى يعتبره بترى مؤسس الأسرات قد يكون « اتباع أله الصحراء الشرقية » الذين كانوا على اتصال ثقافى عن طريق البحر الأحمر بسكان بلاد النهرين .

ومن الأهمية بمكان أن نعين الى أى حد كانت مصر سلبية فى علاقتها الثقافية ببلاد النهرين كما أنه من الأهمية بمكان أن نعرف أى القطرين كان أسبق فى حضارته، فإن الحضارة الأسبقى هى التى أعطت عناصرها التى جاءت بعدها سواء كان عن طريق نزوح جنسية أو اتصال ثقافى . وفى الحق أن البحوث الأثرية لم تتقدم فى

جهات الشرق الأخرى بالدرجة التي تقدمت بها في مصر ، ومن ثم يكون الجزم بأن مصر نقلت حضارتها في أواخر عصر ما قبل الأسرات وفي أوائلها عن العراق لا يستند على أسس أثرية واضحة . ويجب أن ندخل عامل البيئة في حسابنا فهي التي تمكن الشعب من التفوق الحضارى في بعض النواحي بينما تضعفه في نواحي أخرى .

وإذا كان في الوقت الحاضر لا يستطيع كل الدول أن تكون صناعية لأن بيئة بعضها فقيرة في المعادن ، فكذلك في الماضي لا يمكن أن يتخذ تأخر مصر عن سومر في الأسرتين الأولى والثانية في بعض العناصر الحضارية - مثل الصناعات المعدنية وصناعة المركبات ذات العجلات - دليلاً على أن مصر نقلت حضارتها التي بهرت بها العالم عن سومر . أما بعد الأسرة الثانية فلا جدال في تفوق الحضارة المصرية عن أى حضارة معاصرة لها في نواحي العالم المختلفة . فالعمارة ونحت الحجر في عهد الملك زوسر بالأسرة الثالثة يفوقان العمارة والنحت ببلاد النهرين ، وكذلك الصناعة المعدنية في الأشياء المكتشفة بمقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو لا تقل عن الصناعات المعدنية في سومر التي كانت أكثر تفوقاً من مثيلاتها في مصر في الأسرتين الأولى والثانية . وإذا كان السومريون قد اخترعوا الفؤوس لحفر آبار الدفن فكذلك المصريون اخترعوا فؤوساً لحفر آبار مدافنهم .

على أن الذين يرون أن مصر نقلت حضارتها في أواخر عصر ما قبل الأسرات وفي بداية الأسرات من بلاد النهرين يتناسون أن الحضارة المصرية لم تبدأ في سنة ٣٢٠٠ ق.م وهو التاريخ الذي يعتبره المؤرخون بدأ العصر التاريخي والأسرة الفرعونية الأولى وإنما ترجع الحضارة المصرية إلى مئات الآلاف من السنين قبل هذا التاريخ وكانت بشهادة آثارها ممتراً لحضارة عريقة ذات مستوى ثقافي لم تصله أية دولة أخرى في آسيا أو أوروبا . ولا شك أن طبيعة هذه الحضارة الراقية التي بدأت سنة ٣٢٠٠ ق.م تتطلب استعداداً سابقاً وتنظيماً اجتماعياً وتجارب تستغرق آلاف السنين بحيث يمكنها أن تظهر مثل هذه الحضارة . ولم تكن الحضارة البابيلونية المعاصرة لتحتاج إلى مثل هذا الاستعداد السابق الطويل لأنها كانت حضارة فجأة يغلب عليها الطابع

التجارى ، ولهذا كانت مصر قد قطعت شوطا طويلا فى ميدان الحضارة فى الوقت الذى لم تكن قد ظهرت فيه فى بلاد النهرين حضارة على الإطلاق .

وإذا كان المقصود بالحضارة سيطرة الإنسان على فنون الحياة المختلفة فلا نستطيع أن ننكر حضارة السومريين ومن جاء بعدهم ولا حضارة أصحاب الأوانى الفخارية الحمراء فى بابلونيا وسوسا . غير أنه يبقى بعد ذلك إثبات أصالة هذه العناصر الحضارية ببلاد النهرين وإثبات عراقة الشعوب التى قامت على اكتافها هذه الحضارة وهو مالا يتفق مع الأسس الجغرافية والعوامل المناخية المسلم بها فى الوقت الحاضر فمن المعروف أن مصر نجت من المناخ القاسى الذى ساد بعض جهات العالم فى العصور الجليدية كما نجت من الفيضانات المدمرة التى كانت تتلو هذه العصور نتيجة لذوبان الجليد . وأما بلاد غرب آسيا وبلاد النهرين — دجلة والفرات — فلم تنج من البرد القارس فى العصور الجليدية ولا من الفيضانات العاتية فى الفترات الدفيئة التالية لهذه العصور وذلك لأنها كانت تقع عند الحافة الجنوبية للغطاء الجليدى الأرمينى ومن ثم كانت منطقة آشور غير صالحة لإقامة حضارة زاهية فى العصور الجليدية بسبب البرد القارس ولا فى الفترات الدفيئة التى تخللتها بسبب الفيضانات الناجمة عن ذوبان الثلوج . هكذا كان الحال فى بلاد النهرين فى فترة نشأة الحضارة البشرية ، وأما مصر فقد حماها البحر الأبيض المتوسط من قسوة الجليد الأوروبى الذى زحف فى العصور الجليدية من أقصى شمال القارة حتى اتصل بالجليد المستقر فوق جبال الألب ، وبهذا وجدت بمصر بيئة صالحة لازدهار الحضارة لم تتوفر للجهات القريبة منها فى غرب آسيا ، ولهذا استطاع الإنسان فى مصر أن يسيطر على فنون الحياة المختلفة ونضرب مثالا لذلك بأسلحته الصوانية المموجة السطح التى لم تصل إلى مستواها الصناعية الصوانية فى أى جهة أخرى من جهات العالم فى عصر من العصور .

وقد بذلت محاولات لإثبات أسبقية بلاد النهرين على مصر فى ميدان التعدين غير أن النصوص المصرية تتحدث عن استغلال مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء

منذ عهد فراعنة الأسرة الأولى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق. م وربما كان هذا أقدم استغلال منظم للمناجم فى العالم . وإذا تركنا التعدين وانتقلنا إلى العمارة والهندسة والطب والفن والعلم والنحت والنضوج الاجتماعى نجد أن غرب آسيا لا يصل إلى مستوى مصر فى هذه الأشياء بل لا يقترب من هذا المستوى . وإذا اتخذت الهندسة والجراحة مقياسا للتفوق الحضارى وكذلك إذا اتخذت الاهرامات مقياسا لتنظيم الاجتماعى والادارى فإن غرب آسيا لم يقترب من هذا المستوى ألا بعد مصر بألفى عام .

ويرى بعض علماء الأجناس أن شعبة من الجنس الحامى السامى استقرت فى شمال أفريقية والصحراء الكبرى قبل سنة ١٠٠٠٠ قبل الميلاد حيث تم تكوينها وتخصصها الحضارى ، ثم خرجت هجرة من هذه الشعبة فى الفترة الواقعة بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق. م إلى الشرق فنشرت حضارتها فى وادى النيل وغرب آسيا حتى بلاد النهرين ، ومعنى هذا أن حضارة بابيلونيا ومصر إنما نشأت فى الأصل فى شمال أفريقية والصحراء الكبرى . وفيما يختص بالحضارة البابيلونية نجد أنها قامت على أكتاف ثلاثة أجناس : الساميون والسومريون ثم أهل الآنية الفخارية الحمراء التى وجدت فى الأبيض وأور وغيرهما من بلاد النهرين . وحوالى سنة ٣٥٠٠ ق. م وربما قبل ذلك حوالى سنة ٤٠٠٠ ق. م اندفع السومريون خلال الخليج الفارسى من الجنوب حتى وصلوا جنوب بابيلونيا وتوغلوا على هيئة أسفين بين العنصرين الآخرين .

وحينما دخل السومريون بابيلونيا كانوا ذا حضارة عالية فكانوا يعرفون الزراعة كما كانوا حوالى سنة ٣٥٠٠ ق. م يعرفون صناعة أشياء جميلة من الذهب والفضة ولا جدال فى أنهم فى هذه الناحية بلغوا درجة كبيرة من التفوق الحضارى . كما كانوا يعرفون الكتابة ويعرفون من فنون المعمار عمل الأقواس والقباب كما اخترعوا عجلة الفخار والعربة ذات العجلات . ولكن ينبغى ألا ننسى أن السومريين وفدوا من الخارج بهذه الفنون إلى بلاد النهرين فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد عرفت

بعض هذه الفنون كصناعة الذهب والفضة ولم يكن من الضروري أن تعرف البعض الآخر كالأقواس والقباب المعمارية لأن لكل بيئة مطالبها الخاصة ، والحضارة الأصلية هي التي تندمج مع ظروف البيئة المحلية . على أن الكشف الأثرى لم ينته بمصر بعد وما زالت التربة المصرية تخفي آثارا من كل العصور ومن كل الأسرات ، ويوم أن تخرج هذه التربة كل ما في بطنها سنجد أن الحضارة المصرية من التنوع في فنونها ومن التفوق في مستواها ومن القدم في زمنها ومن العراقة في أصلها بحيث لا تفوقها حضارة أخرى في العالم في هذه النواحي كلها .

وإذا أردنا دليلا على ذلك فلننظر إلى معلوماتنا عن بداية عصر الأسرات قبل كشف مستر فيرث لآثار الملك زوسر بسقارة وقبل كشف الدكتور رينز لمقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو ثم لنقارنها بمعلوماتنا بعد هذه الكشف . ففي سقارة كشف فيرث عن المعبد الملحق بهرم زوسر وقد تجلت في هذا المعبد روعة الفن والعمارة حتى وصف الملك زوسر من أجلها بأنه أسطورة من الأساطير لأن مصر وصلت في عهده إلى القمة في فنون العمارة المختلفة مع أنها كانت وما زالت في بداية عصر الأسرات . وكذلك من مقبرة حتب حيرس أخرج رينز أدوات الحياة اليومية الدقيقة وأثاث المنزل والجواهر والملابس وأدوات الزينة المختلفة مما يدل على أن مصر في بداية الأسرة الرابعة كانت على مستوى عال في الصناعات المختلفة .

وإذا انتقلنا إلى بابلونيا في نفس الفترة نجد أن الاكتشافات الحديثة تشهد لمدينتها بالرقى سواء أكانت مدينة الساميين أو مدينة السومريين غير أنها تقف وراء مصر بكثير من الناحية الفنية . والسبب في هذا أن أهلها القدماء كانوا من رجال الأعمال وكانوا أصحاب تجارة عالمية تغنيهم الشؤون المالية أكثر مما يغنيهم الذوق أو الفن شأن رجال المال والأعمال في كل عصر وفي كل أمة . وصحيح أن المقابر الملكية وغير الملكية التي كشفها مستر وولي في أور توحى بأن البابليين نبغوا في صناعة الذهب والفضة ونقش الأصداف من عهد قديم إذ أن هذه المقابر ترجع لفجر تاريخهم أكثر من رجوعها للعصر التاريخي لأن النصوص التي بها لم تكن قد تطورت

التطور الكامل الذي سيظهر في الخط المسماري في عهد سارجون مؤسس أول امبراطورية بابيلونية سنة ٢٧٠٠ ق. م. وتوضع هذه الحضارة في عصر « ما قبل السومريين » وتعزى إلى جنس « ما قبل السومريين ». ولقد جاء السومريون فيما بعد وأطلقوا على أنفسهم اسم « الجنس ذو الرأس السوداء » مما يشير إلى وجود جنس أشقر في تلك البلاد في ذلك الوقت . ومما يؤيد هذا أن السومريين يصورون أنفسهم عراض الرأس في حين أن معظم الجماجم التي ترجع إلى العصر السابق لهم من النوع الطويل . ولقد أسست الأسرة الأولى في أور سنة ٣١٠٠ ق. م. وتدل مقابر أور كذلك على التجارة العالمية وعلى النشاط في استغلال المناجم فقد وجد في مقابرهم الذهب والفضة واللايس لازولي والنحاس . فأما الذهب فقد جلبوه من الجهات المطلة على الخليج الفارسي وأما الفضة فلا بد أنها جلبت من جبال طوروس . ولكن كل هذه الأشياء تدل على نشاطهم التجاري أكثر من دلالتها على التفوق في ميدان الفن والصناعة .

ويتضح من هذا أن السومريين لم يكونوا من أهل بلاد النهرين وإنما تزحوا إليها من منطقة نائية بحضارة راقية جمعوا عناصرها من الجهات المختلفة التي اتصلوا بها في معاملاتهم التجارية ولعل هذا يفسر التشابه بين بعض مميزات الحضارة المصرية وحضارة بلاد النهرين . ولقد بدأ عصر الأسرات في أور بعد عصر الأسرات في مصر بفترة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون ، كما أن المعلومات الأثرية الحالية لا تدل على أن هذه البلاد مرت في فجر أسرات طويل الأمد كفجر الأسرات في مصر .

الفصل السابع

حضارات الوجه البحرى

فى عصر ما قبل الأسرات

لم تباشر الحفائر فى الوجه البحرى بنفس النشاط والمثابرة اللتين بوشرت بهما فى الوجه القبلى حتى سنة ١٩٣٠ لم تكن قد كشفت بالدلتا أو على جانبها أية حضارة من عصر ما قبل الأسرات إلى أن كانت حفائر الجامعة المصرية فى المعادى سنة ١٩٣١ وحفائر دى بونو فى حلوان سنة ١٩٤٥ . وقد يبدو غريبا فى الوقت الحالى أن نتحدث عن حلوان والمعادى كمدن بالوجه البحرى فى حين أن رأس الدلتا يبعد نحو الشمال أكثر من أربعين كيلوا مترا عن المدينة الأولى وأكثر من ثلاثين كيلو مترا عن المدينة الثانية . غير أن الأمر لم يكن كذلك فى عصر ما قبل الأسرات وفى بداية عصر الأسرات بل كانت قمة الدلتا فى منطقة سقارة وحلوان الحاليتين حتى أن المصريين فى بداية العصر التاريخى اعتبروا منفيس (البدرشين وميت رهينة وسقارة) أولى مديريات الوجه البحرى . وتقع حلوان على الشاطئ الأيمن للنيل تجاه منفيس ومن ثم ليس هناك شك فى تبعيتها للوجه البحرى فى ذلك العهد . وتقع المعادى شمال حلوان وهى بذلك كانت تقع فى الوجه البحرى الصميم فى عصر ما قبل الأسرات وفى بداية الأسرات .

ولا ينتظر أن تجود الدلتا بالكثير من آثار عصر ما قبل الأسرات لعدة أسباب منها أن طمي النيل غطى الكثير من هذه الآثار بسبب انخفاض الأرض ووقوعها على مستوى أقل من مستوى فيضاناته العالية ومنها أن كثيرا من المدن الحديثة قامت على انقاض المدن الاثرية القديمة ومنها أن مرور الناس ودوابهم على هذه المدن منذ أن هجرها انسان عصر ما قبل الأسرات قد خربها ودك آثارها حتى

سواها بالارض ثم غطاها الطمي أو غطتها الحقول الزراعية والمساكن الحديثة .
على أن ما ظهر حتى الآن من آثار هذا الاقليم في ذلك العصر يكفي للحكم على
درجة حضارته وعلى طابعه الخاص الذي كان وليد بيئته . وسنكلم في هذا الفصل
على حضارة حلوان الثانية ثم على حضارة المعادي .

أشرف في تلك البلاد في ذلك الوقت . وتأتي الأرية له بعد ذلك .
عراضي الراس في حين أن معظم الخايم التي تقع في العصر السابق لم تكن من النوع
الطويل . لذلك نشأ من تلك الأرية نوعان مختلفان . أحدهما قصير والآخر طويل .
كذلك على الناحية الشمالية من مصر . لذلك نشأ من تلك الأرية نوعان مختلفان . أحدهما قصير والآخر طويل .
الذهب . ١٧٧٠ . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
المطلة على نهر النيل . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
كل هذه الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
الفرق بين تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
وتأتي الأرية له بعد ذلك . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
من منطقة . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
في منطقة . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
وحضارة . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
مصر . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
على أن . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
تأتي الأرية له بعد ذلك . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .

سبب أقنعت الأرية له بعد ذلك . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
أرية له بعد ذلك . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
تأتي الأرية له بعد ذلك . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
منطقة . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .
رغم أن . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية . في تلك الأرية .

أولا : حضارة حلوان الثانية

أو

حلوان ب

أخرجت مادة هذه الحضارة من نفس المكان الذى أخرجت منه مادة حضارة العمرى على بعد ٣ كم شمال شرق مدينة حلوان وعند الحافة الجنوبية لقلم وادى حوف ، وقد قلنا عند الكلام على حضارة العمرى أن المنطقة تضم مجموعتين من المقابر ومنطقة للسكن . وقد ركز مسيو دى بونو جهوده فى حفر منطقة السكن لسبيين . أولا : أن هذه المنطقة لم يسبق حفرها حينما قام بوقيه لا پير بحفائره فى هذه المنطقة . ثانيا : أن المنطقة مهددة بالتخريب التام الذى يقوم به السباخون وغيرهم من رواد هذه الجهات الصحراوية .

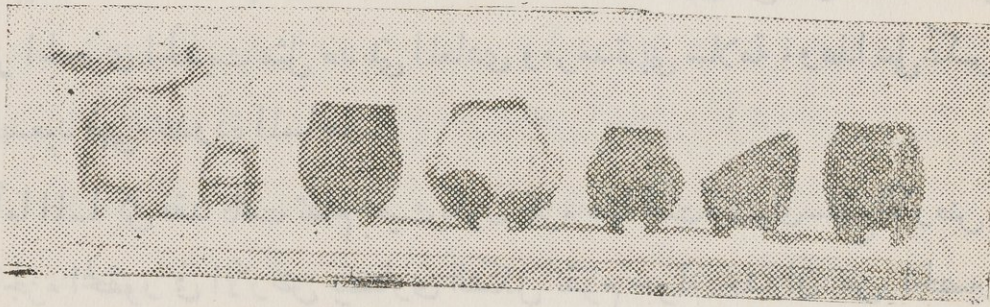
وقد أظهرت الحفائر الطابع الخاص الذى كان لسكان الدلتا فى عصر ما قبل الأسرات وأبرزت الفرق بينهم وبين أهل الصعيد .

ففيما يختص بمساحة القرية وشكل المساكن دلت هذه الحفائر على أن القرية كانت كبيرة المساحة شأنها فى ذلك شأن مدن الدلتا الأخرى التى من هذا العصر والعصر الحجرى الحديث مثل مدينتى المعادى ومرمطة بنى سلامة ، وهذا على عكس مدن الصعيد فهى محدودة المساحة .

وأما المساكن فقد كانت تقام بحيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الأرض . وهذا الجزء المحفور فى الأرض يضاوى الشكل تقويم حوله جدران من الحصير المغطى بالطين . كما وجدت بقايا أعمدة من الخشب مغروسة فوق سطح الأرض كانت تؤلف فيما بينها جدران نوع آخر من المساكن تقوم بأكملها فوق سطح الأرض . ومن الجائز أن المساكن المحفورة جزء منها فى الأرض كانت عبارة عن مخازن للهوونة . وأما تلك التى تقوم بأكملها فوق سطح الأرض فهى التى كانت بقصد السكنى . على أن بعض المساكن المحفورة فى هذه القرية ليست محفورة فى التربة الرملية الهشة وإنما محفورة فى الأرض الصخرية .

وقد أراد دى بونو أن يستنتج من هذا احتمال قيام المهاجر منذ هذا الوقت المبكر ، غير أن هذا احتمال بعيد لأن البناء بالحجر لم يكن قد عرف بعد ، كما أن الآلات المعدنية اللازمة لتقطيعه لم تكن قد وجدت بعد ، فلا بد أن هذه المساكن المحفورة في الحجر الجيري عملت بقصد تخزين المؤونة أو السكنى وكانت الوسيلة في حفرها آلات حجرية أشد صلابة من الحجر الجيري يمكن بواسطتها الحفر ولكنها لا تمكن من تقطيعه وتفصيله إلى كتل تنفع في البناء .

وفيما يختص بصناعة الفخار وجدت بالمقابر والمساكن صناعة فخارية رقيقة تظهر فيها الأواني المصقولة الحمراء والسوداء والسمراء كما تظهر فيها الأواني الخشنة . وأما أشكال الأواني فتعددها ففيها أواني ذات رقبة وأخرى من غير رقبة ، وفيها أواني كروية الشكل وأخرى بيضاوية وفيها أقذاح صغيرة ثم أواني ذات مقابض ، هذا بالإضافة إلى الأواني الخشنة السميك الجدران . ومن بين هذه الأواني ما يشبه أواني مرمدة بنى سلامة والمعادى ، ومن بينها كذلك أشكال جديدة تختص بها هذه الحضارة (انظر شكل ٨٣)

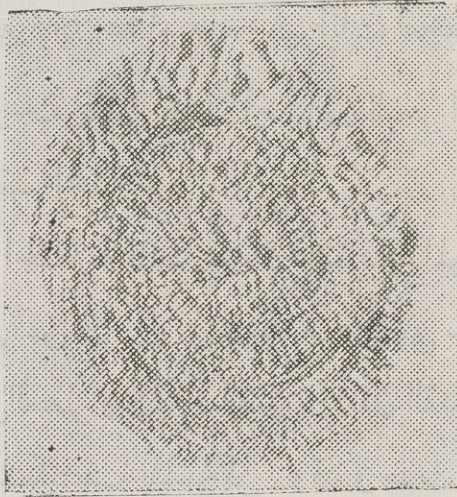


شكل (٨٣) يبين بعض الأواني الفخارية من حضارة حلوان الثانية
وأما الأسلحة الصوانية فنوعان نوع مصقول من الوجهين Bifaciale ونوع غير مصقول عبارة عن شظايا مشنبة الحافات .

فأما النوع الأول فيشمل الأسهم ذات القاعدة المقعرة الشبيهة بأسهم الفيوم ثم الأسهم التي على شكل مثلث متساوي الضلعين ثم الآلات المسننة كالمناجل والمناشير وأما النوع الثاني فيشمل سكاكين من نوع جديد تختص به هذه الحضارة ، ثم النصال

المختلفة ثم بعض الآلات المسننة . وقد جمع كذلك كثير من كتل الصوان التي كانت تفصل إلى شظايا ثم كثير من المطارق التي كانت تستخدم - في فصل هذه الشظايا وتشذيبها وكذلك وجدت أحجار الرحي بنوعها المجوف والمستدير .

وقد وجدت أدوات من العظم كالمثاقب والنصال كما وجد شص (سنارة) من قرن حيوان . ووجد صولجان من الخشب يدل - مع الأدوات الخشبية الأخرى - على رقي هذه الصناعة في حضارة حلوان الثانية . وقد استخدم قشر بيض النعام كأوعية وكحلي .



شكل (٨٤) يبين صناعة السلال بحضارة حلوان الثانية

وقد وجدت صناعة أسبنة راقية لا تضارعها إلا الأسبنة الفرعونية فيما بعد ، كما عرفت صناعة الحبال والنساجة وصناعة الحصر . وكانت الحصر تستخدم غطاء لجدران المساكن والمقابر وربما كان يكفن بها الميت . وكذلك الجلود ربما كان يلبسها الأحياء ويكفن بها الأموات . (انظر شكل ٨٤)

وأدوات الحلي عند أهل هذه الحضارة عديدة فعرفوا صناعة العقود والدلايات من أصداف البحر الأحمر ومن قشر بيض النعام ومن عظام السمك ومن أنواع مختلفة من الحجارة البراقة كما كانوا يلبسون دلايات من الحفريات المختلفة بعد ثقبها

ولا سيما الحفريات المعروفة « باسم « قروش الملايكة » وكذلك عرفوا اللون الأحمر
أما لكي يزين النساء به وجوههن وأما لطلاء الأواني الفخارية وربما كان يستعمل
للغرضين معا .

وقد عرفوا زراعة الحبوب كالقمح والشعير وقد وجدت بعض هذه الحبوب
متفحمة وغير متفحمة كما وجدت سنا بلها . وقد سبق أن ذكرنا أنه وجدت بالمنطقة
المناجل وأحجار الرحي اللازمة لحصد الغلال وطحنها . أما غذاؤهم الحيواني فكان
يشمل من الحيوانات المستأنسة الماشية والماعز والأغنام ومن الحيوانات غير
المستأنسة الخنازير البرية والحيتان والقواقع وفرس الماء والسلاحف والنعام وقد
جمعت من المنطقة كميات كبيرة من عظام هذه الحيوانات لفحصها .

أما علاقة القوم الخارجية فتدل عليها أصداف البحر الأحمر وبعض المواد
الأخرى التي لا توجد في بيئتهم المحلية ،

وفيما يختص بطقوسهم الجنائزية كانت عندهم عادة دفن الموتى في أماكن السكنى
وهي عادة لم تعرف في مصر من قبل إلا في قرية مرمدة بنى سلامة . وليس هناك
شك في تبعية الهياكل لنفس العصر ونفس الحضارة إذ أن القدور الفخارية المدفونة
مع الميت من نفس النوع المكتشف بالمساكن . وقد وجدت هذه الهياكل راقدة
على جنبها في وضع مقرفص ومعظم رؤوسها متجهة نحو الجنوب والوجوه متجهة
نحو الغرب . وفي أغلب الأحوال كانت توجد آنية فخارية بجانب الهيكل . كما كانت
الهياكل تكفن بجلود الحيوانات أو الحصير أو القماش . وقد وجد أن بعض هذه
الهياكل مازال محتفظا بآثار الشعر على الرأس والذقن . ومن بين هذه المقابر مقبرة
لا شك في أنها مقبرة أمير أو حاكم أو رئيس قبيلة فقد وجد مع الهيكل عصاة من
الخشب طولها ٣٥ سم مدببة من أحد طرفيها ومسطحة من الطرف الآخر . ويدل
شكل العصاه على أنها لم تكن أداة للضرب أو سلاحا من الأسلحة وإنما كانتشارة
للرئيس وصولجانا له يميزه عن سائر الرعية . وقد وجد في العصر التاريخي وفي
مصر السفلى بصفة خاصة مثل هذا الصولجان . (انظر شكل ٨٥)

أما عن تاريخ هذه الحضارة فتدل آثارها على أنها تشغل مركزاً وسطاً بين حضارة مرمدة بنى سلامة وبين حضارة المعادى فهى تشبه حضارة مرمدة فى الطقوس الجنائزية وفى مخازن الغلال وفى الصناعة الحجرية ذات الوجهين وفى بعض



شكل (٨٥) يبين هيكل أمير أو رئيس قبيلة ويده الصولجان من حضارة حلوان الثانية

الأواني الفخارية كما تشبه حضارة المعادى فى بعض الأواني الفخارية وفى صناعة النصال المصرية . ولهذا توضع حضارة حلوان الثانية فى فترة أحدث من مرمدة ومن حلوان الأولى وأقدم من المعادى .

ثانياً : حضارة المعادى

تنسب هذه الحضارة إلى مدينة أثرية من عصر ما قبل الأسرات كانت تقوم على التل الأثرى الواقع على تخوم الصحراء شرق مدينة المعادى الحالية . ولهذه المدينة الأثرية أهميتها من حيث موقعها فى مكان متوسط يصل الدلتا بالصعيد من ناحية ويربط كلاهما بشبه جزيرة سيناء وبلاد غرب آسيا من ناحية أخرى . وسنرى فيما بعد أن حضارة المعادى تأثرت بهذا الموقع فكانت ذات سمات خاصة تفصلها عن حضارات مصر السابقة لها وتجعلها بحق باكورة للحضارات التالية لها وعلى الأخص حضارة نقادة الثانية .

وقد حفر من المنطقة حتى الآن حوالى عشرة أفدنة أخرجت مادة أثرية شديدة الغزارة حتى لتعد قطعها الصوانية وأوانىها الفخارية بالآلاف . وقد بلغ سمك الطبقات الأثرية فى قلب المدينة أكثر من مترين بينما لا يزيد هذا السمك عند أطرافها عن عشرين سنتيمتراً .

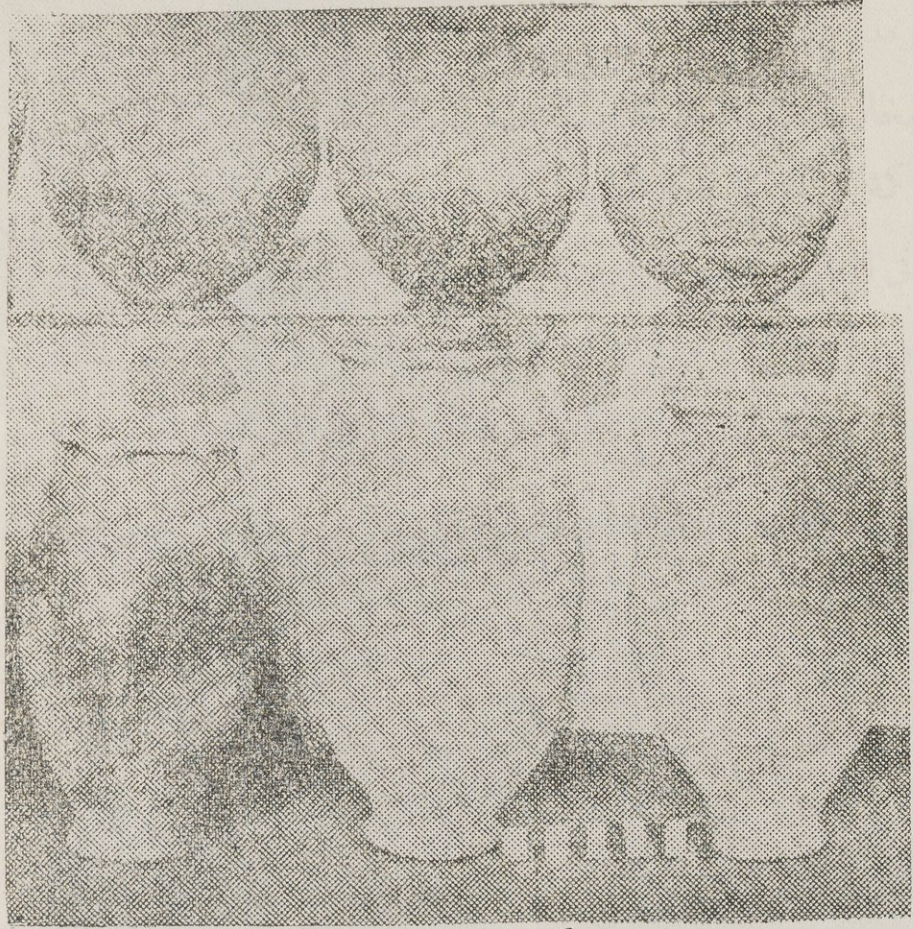
ولدراسة آثار المعادى تقسم إلى قسمين الآثار القابلة للنقل والآثار الثابتة . فأما الآثار القابلة للنقل فتشمل الأوانى الفخارية والحجرية والخشبية والعظمية ثم معدات الزينة والآثار الفنية . وأما الآثار الثابتة فتشمل المساكن وما يتبعها من موقد ومخازن .

الآثار القابلة للنقل

الأوانى الفخارية : هى فى المعادى متعددة الأشكال والألوان والأحجام ولكن أهمها نوعان : النوع الأول أحمر اللون ذو قاعدة حلقية وجسم بيضاوى مستطيل وهو غير مصقول ولكنه ناعم الملمس . والنوع الثانى أسود مصقول السطح ذو جسم كروى (انظر شكل ٨٦) .

وقد وجدت آنية فخارية كبيرة ذات شكل اسطوانى تزdan حافتها العليا بمقابض

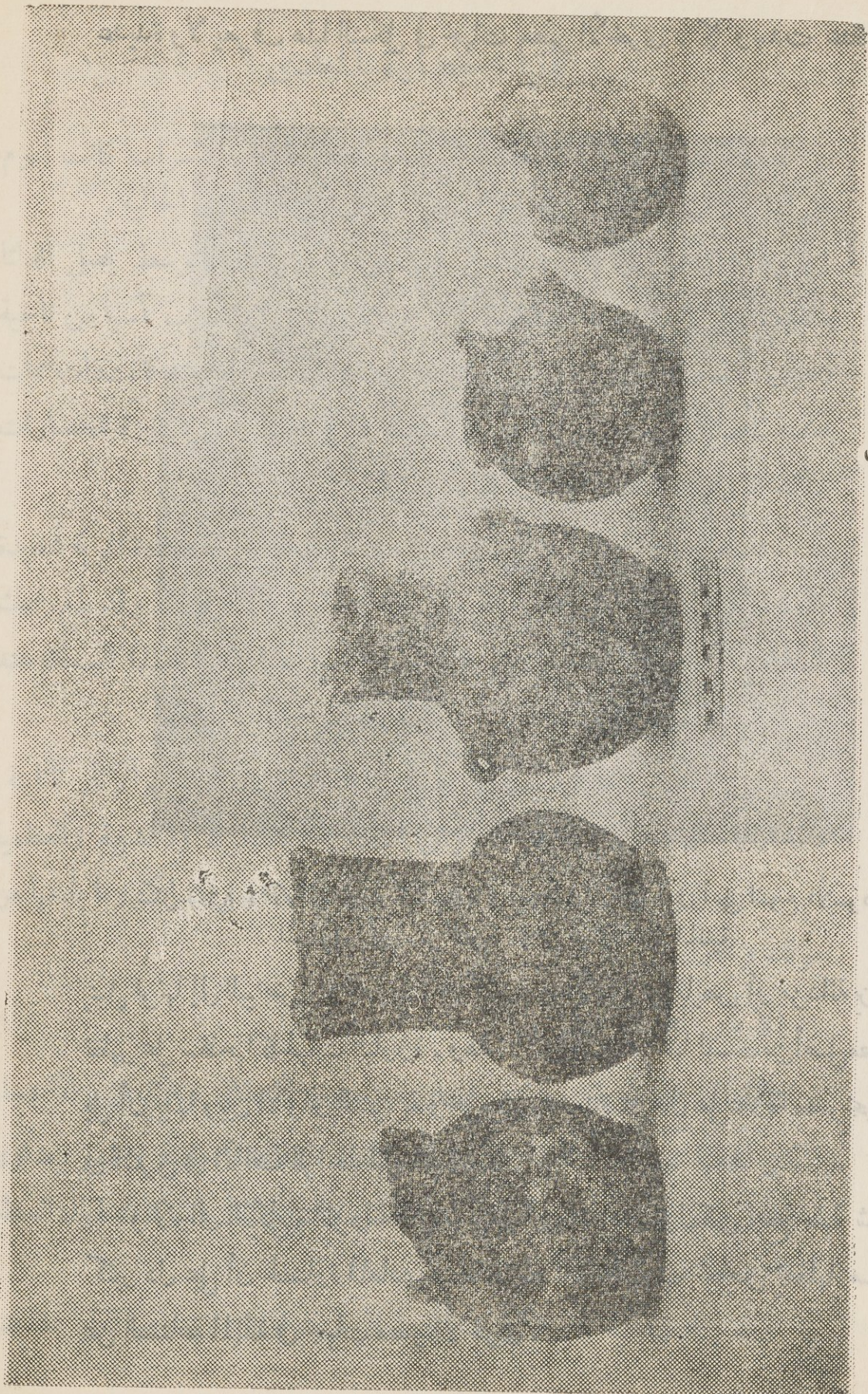
عديدة ولا يعرف هذا الشكل في جهات مصر الأخرى . كما وجدت عدة أواني



شكل (٨٦) الأواني الفخارية السائدة في حضارة المعادى . في أعلى النوع الاسود المصقول وفي أسفل النوع الاحمر ذو القاعدة الحلقية

يميل لونها إلى البياض وهي مزودة في كثير من الأحيان بمقابض أو مزدانة بزوائد تظهر على سطحها كالحبات البارزة . وهذه الأواني في مجموعها ليست من أصل مصري بل أن بينها وبين الأواني السورية وجوه شبه عديدة مما يدل على علاقة مصر بجيرانها في الشرق في الألف الرابعة قبل الميلاد .

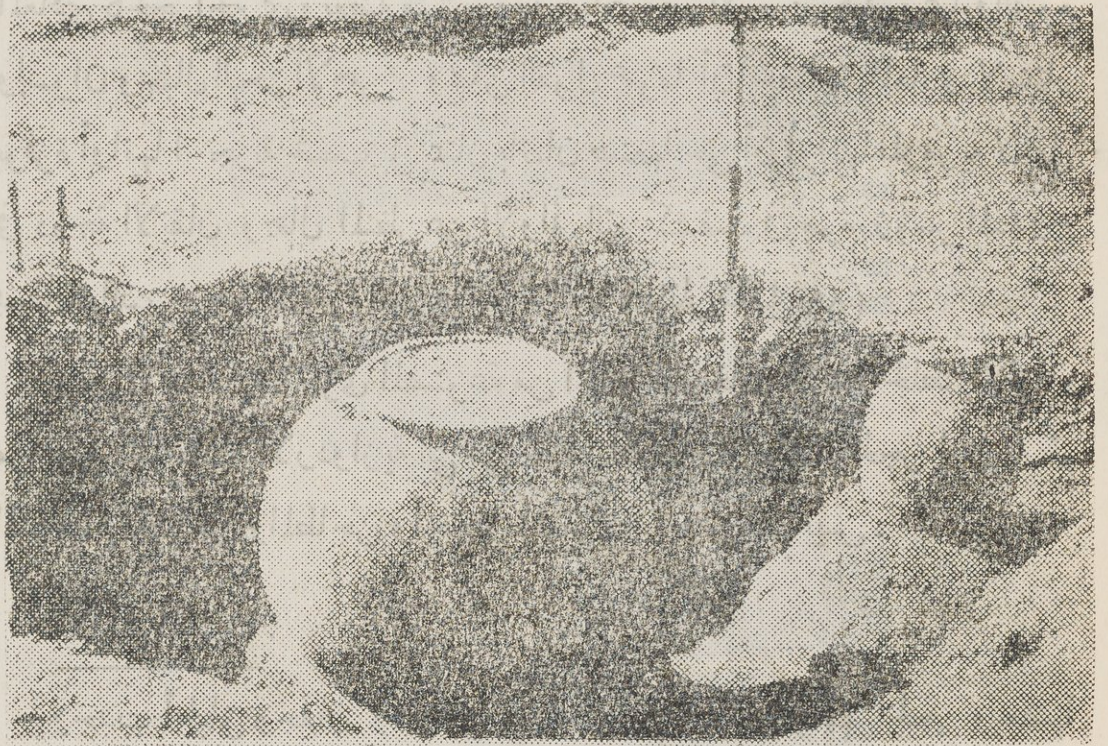
والأواني الكاملة المزدانة بالرسوم قليلة في المعادى ولكن جمع منها شقف كثير دل على أن حضارة المعادى في هذه الصناعة أسلوب خاص يجعلها مستقلة عن الصناعة المماثلة في جهات مصر الأخرى .



شكل (٨٧) زين بعض الأواني الخزفية بحضارة الممادي

وقد وجد عدد من الأواني ذات القمة السوداء التي تشبه في شكلها أواني حضارة العمرة إلا أنها تختلف عنها في طريقة صنعها وكذلك وجد بعض الأواني التوأمية الشبيهة بأواني مرمدة بني سلامة .

والأواني الفخارية الكبيرة التي كانت تستخدم في خزن المؤونة كثيرة العدد ويبلغ قطر الكثير منها أكثر من متر كما يبلغ ارتفاعه أكثر من متر كذلك . (انظر شكل ٨٨) وللبعض أواني المعادى أهمية تاريخية فالأواني ذات المقابض المتموجة تربط هذه الحضارة بسوريا وأما الأواني ذات الحافة السوداء فتربطها بالصعيد ، وكذلك الأواني ذات الرسوم يقال أنها نشأت بالالتائم نقلت صناعتها إلى الصعيد .



شكل (٨٨) آنيتان من أواني الخزن بحضارة المعادى

الأواني الحجرية :

كشفت مخبأ عميق محفور في الأرض ومغطى بالحجر الجيري بداخله سبع أواني من حجر البازلت الأسود في حالة جيدة ، وهذه الأواني في مجموعها تمثل عدة أنواع

متباينة ، غير أن وجودها جنبا إلى جنب في هذا المكان يجعلنا على يقين من أنها تلتقى لعصر واحد . ولم يسبق أن وجد في مصر مجموعة نفيسة من الأواني الحجرية مثل هذه المجموعة التي تعتبر أكبر مجموعة متناسقة من نوعها تلتقى لفجر التاريخ المصري . وقد وجد مع هذه المجموعة وعاء من المرمر ثم ثلثان وعشرون خرزة كلها من العقيق الأحمر سوى واحدة صنعت من حجر أبيض اللون . وقد وجد أيضا وعاء عجيب الشكل من الحجر الجيري مكسى من الداخل والخارج بمادة حمراء تجعل الناظر إليه نظرة عابرة يعتقد أنه مصنوع من الخزف ، وفيما عدا المجموعة الحجرية السابقة وجد بالمعادي عدد كبير من الأواني الحجرية المصنوعة من المرمر والجرانيت والبازلت والحجر الجيري وبعض هذه الحجارة موجودة بمنطقة المعادي كالحجر الجيري وبعضه مستورد من جهات مصر الأخرى كأبي زعبل والفيوم وإسوان وجبال البحر الأحمر . ويمكن القول عموما أن حضارة المعادي لا تمتاز بوفرة أوانيها الحجرية فحسب بل تمتاز باتقان صنعها حتى أن أوانيها المرمرية لا تقل في درجة الاتقان وجمال المنظر عن الأواني التي كشفت في هرم زوسر المدرج بسقارة الذي يرجع للأسرة الفرعونية الثالثة . (انظر شكل ٨٩)

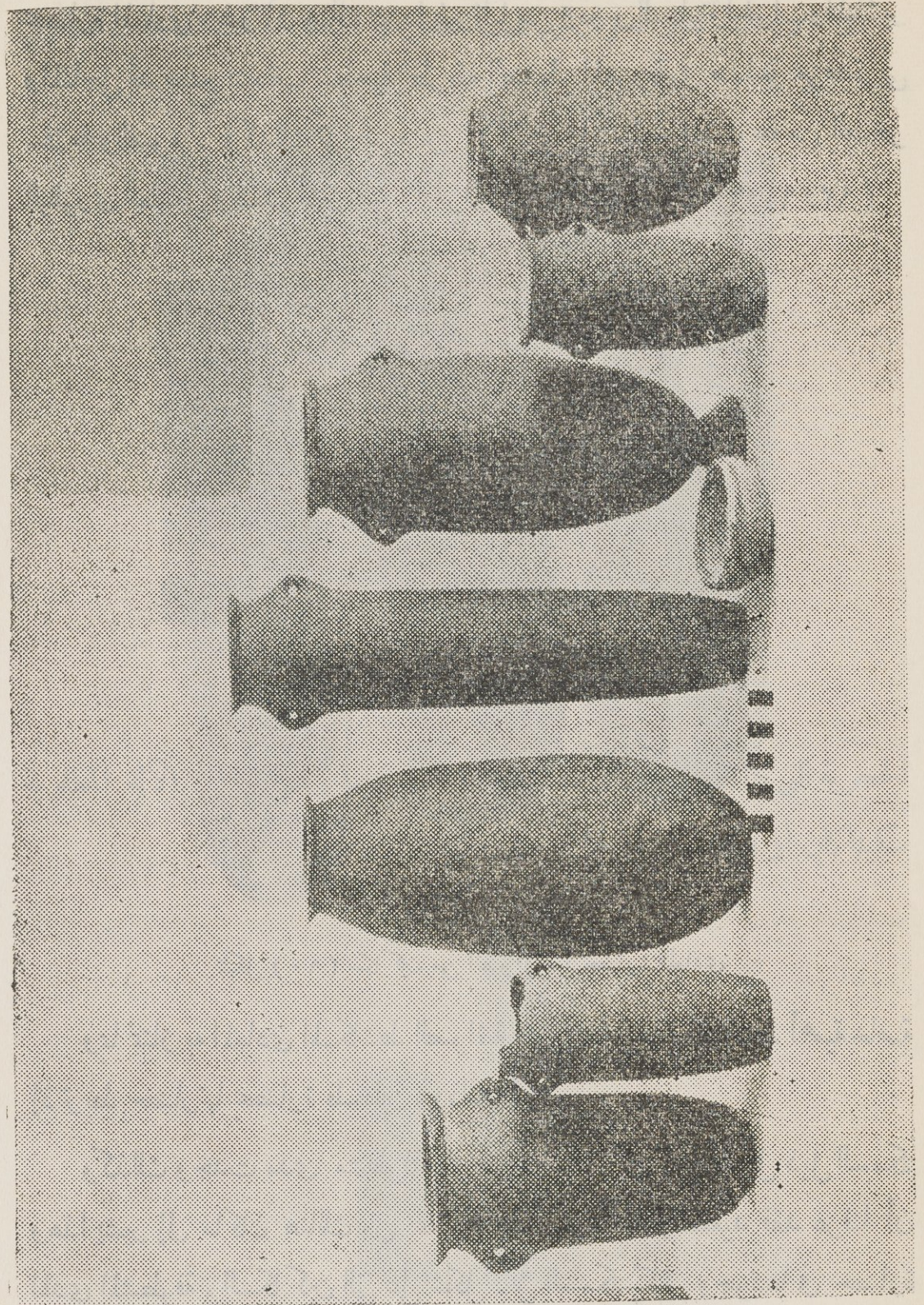
ومن الأدوات الأخرى المصنوعة من الحجر اللوحات المعدة لخلط الألوان من بينها اللوحات الأردوازية التي على شكل المعين ولوحات الحجر الجيري ثم المدقات والمصاحن والمطاحن وأحجار المغازل ورءوس الدبابيس .

الأواني الخشبية :

وجدت أطباق وجفان وملاعق من الخشب بعضها متوسط الحجم وبعضها صغير ، ويندر وجود مثل هذه الأواني الخشبية في الحضارات المصرية المعاصرة .

الأدوات الحجرية :

وجد من آلات الصوان آلاف القطع معظمها جميل وبخاصة المكاشط الكبيرة ذات السطح الرقيق والشكل البيضاوي . وصناعة الشظايا هي الغالبة



شكل (٨٩) أواني من البازلت و المرمر من حضارة المعادي

تاريخ الفن في مصر القديمة
من كتاب تاريخ الفن في مصر القديمة

بحضارة المعادى ، غير أن هناك عددا غير قليل من رموس السهام والحراب والمنشير
والمناجل قد صنع بشطف سطحية بطريقة الضغط المعروفة في صناعة مرمدة بنى
سلامة والفيوم . وكذلك توجد بعض الآلات والأسلحة المصنوعة من الصخر
البلورى الطبيعى والسكوارتز النقى والجرانيت . (انظر أشكال ٩٠ و ٩١ و ٩٢)



شكل (٩٠) سكاكين من الصوان من حضارة المعادى

ومما تمتاز به المعادى المكاشط الصوانية المروحية ولهذه المكاشط أهمية خاصة
إذ تربط حضارتها بحضارة فلسطين في ذلك العهد .

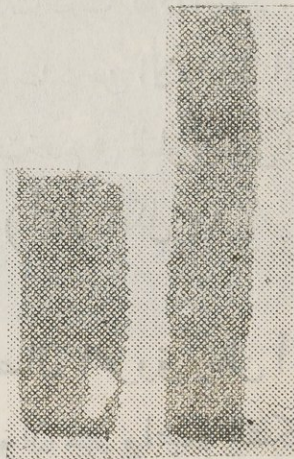
وكذلك وجدت مدى مشطوفة الوجهين وسكاكين على شكل ذيل السمكة
وهذا يشير إلى ما كان هنالك من علاقة بين شرق الدلتا والصعيد فقد عرفنا أن
المدى المشطوفة والسكاكين التى على شكل ذيل السمكة يكثر وجودها في حضارة
نقادة . وقد وجدت رموس فؤوس من حجر أسود وهى نوع نادر في الحضارات
المصرية المعاصرة .

وقد وجدت كتل الصوان التي كانت تفصل منها الشظايا وكذلك وجدت المطارق



شكل (٩١) مكشطان من حضارة المعادى

الحجرية التي كانت تستخدم في فصل الشظايا وتهذيبها وتشكيلها إلى الآلة المطلوبة
سكيناً كان أو مكشطاً أو مثقاباً أو غير ذلك .



شكل (٩٢) منشاران من المعادى

الأدوات العظمية :

وجدت آلات كثيرة مصنوعة من العظام ولا سيما المثاقب . (أنظر شكل ٩٣)



شكل (٩٣) مثقاب من العظم من حضارة المعادى

أدوات الزينة :

سبق أن ذكرنا أنه وجد في مخزن الأواني الحجرية إحدى وعشرون خرزة من العقيق الأحمر ثم خرزة واحدة من الحجر الأبيض . وقد وجد عدد آخر من حبات الخرز من حجر السكوارتز والحجر الجيري والبللور الصخري واللازوردى . وقد وجد داخل إحدى القدور عمدة كامل يتألف من أربع وخمسين حبة من الخرز كلها بيضاء ما عدا ثمانية حبات ذات لون أسود . هذا بخلاف أنواع مختلفة من الأصداف المثقوبة . كما وجد عدد من الأمشاط المصنوعة من عظام الحيوانات ثم مقادير من المواد التي كانت تستخدم في التلوين مثل المغرة الحمراء وكربونات النحاس الخضراء والمنجنيز الأسود . (أنظر شكل ٩٤)

الآثار الفنية :

وجدت قطعة من الصلصال المحروق يظن أنها تمثل رأس جمل ، كما وجدت قطعة أخرى تمثل رأس حيوان غير واضح الشكل . وكذلك وجدت بيضة نعام ازدان سطحها بأشكال هندسية محفورة حفراً متقناً وملونة باللون الأسود . كما كشف رأس تمثال صغير من الفخار الأحمر ربما يمثل شخصاً من سكان غرب آسيا

كما يتضح من شكل رأسه وذقنه . ووجد كذلك هيكل من الفخار لقارب يعطينا



شكل (٩٤) مشط مصنوع من قرن حيوان بحضارة المعادى
فكرة عن شكل القوارب التي كانت تسير في قنوات الدلتا في ذلك الوقت .



شكل (٩٥) رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى

الأدوات المعدنية :

كان أهل المعادى يصنعون من النحاس الصنابير والمشاقب والأزاميل وقد وجدت

بالمنطقة كتل من النحاس هي دون شك عبارة عن سبائك جلبها القوم من مناطق
تعددين النحاس في شبه جزيرة سيناء لصنع الآلات النحاسية المختلفة . وكذلك
وجدت مقادير من معدن المنجانيز وهو محبوب من شبه جزيرة سيناء كذلك . كما وجد
مقدار من القار (الأسفلت) الذي دل فحصه على أنه وارد من منطقة البحر الميت
بفلسطين . وقد وجد رأساً فأس من النحاس يدلان على تمكن أهل المعادي من
صناعة الآلات النحاسية .

الأدوات الخشبية :

كشفت بالمعادي مجموعة من الأدوات الخشبية من بينها قطع من هراوات
مقوسة Boomerang كانت تستخدم للرماية ، ثم قطعتان دقيقتان من الخشب من
شجر الأرز بدت علامات الاحتراق في أحد طرفيها ، ثم عصا قصيرة حفرتها يد
الصانع حفراً متقناً . كما وجد بعض المشاقب المصنوعة من الخشب .

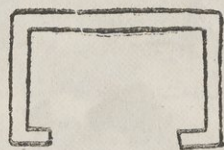
الآثار الثابتة

المساكن :

يظهر أن المساكن كانت مركزة في القسم الأوسط من القرية المستطيلة الشكل
بينما كانت المخازن تمتد على جانبي القرية من الشمال والجنوب . وقد كشف عدد كبير
منها دل على تعدد أشكالها . وكانت المساكن في معظمها تبنى من قوائم من جذوع
الأشجار تلف حولها الأغصان الرفيعة ثم تغطي بالطين . وكان باب المنزل يتجه
عادة نحو الجنوب لوقاية السكان من الرياح الشمالية وهي الرياح السائدة في مصر
معظم العام .

وقد وجدت مساكن على شكل الكلمة الهيروغليفية « پر » ومعناها « مسكن »
كما يدل على أن رسم هذه الكلمة منقول عن الشكل الغالب على المساكن المصرية
في عصر ما قبل الأسرات . (انظر شكل ٩٦) وقد قطعت معظم أخشاب المساكن
من أسفلها بآلة حادة هي دون شك من معدن النحاس .

وقد وجد بالمعادى عدة كهوف مختلفة الأشكال والمساحة ولكن بها علامات تدل على أنها كانت تستخدم للسكنى . من هذه الكهوف كهف مستدير الشكل حفر فى الأرض إلى عمق كبير يزيد على مترين ونصف متر وله درج يؤدى إلى داخله . وقد وجد فى الكهف قدر كبير مثبت فى حفرة خاصة أعدت له فى أرض الكهف كما وجدت بقايا كثيرة لأواني فخارية مختلفة الأنواع . بعض أدوات من الحجر ثم عظام حيوانية وأصداف بحرية وقطع من قشر بيض النعام . وقد وجدت على امتداد جدران الكهف من الداخل حفر صغيرة على أبعاد متساوية بها بقايا خشبية بالية هى دون شك بقايا الأعمدة التى كان يقوم عليها سقف الكهف أو التى كان يشد



شكل (٩٦) كلمة بيت فى اللغة المصرية (بر)

حولها الحصير الذى يكسو جدرانها لى يمنع انهيار الرمال إلى داخله . ومن هذه الكهوف كهف محفور فى الأرض على امتداد أفق لمسافة بعيدة بحيث لا يستطيع أن يدخله الإنسان إلا زاحفا وقد وجد بداخله كذلك أواني وأدوات منزلية . ومن بين هذه الكهوف أيضا كهف له أهمية خاصة يشبه سائر كهوف المنطقة فى مدخله الذى يتجه نحو الجنوب وفى الدرج المكسو بالأحجار المؤدى إلى داخله ولكنه يختلف عن سائر الكهوف فى شكله وفى طريقة صنعه فهو مستطيل الشكل ذو جدران رأسية كسيت من الداخل بقطع من الحجر الجيري فى بعض أجزائها وبالطوب الأخضر الكبير الحجم فى البعض الآخر . وتأتى أهمية هذا الكهف من أنه يمثل فن البناء بالحجر والطوب الأخضر فى ذلك الوقت المبكر من فجر التاريخ المصرى . وقد وجد بداخل هذا الكهف قدر كبير من القدور المعدة للخبز ثم عدد من الحفريات التى كانت تقوم فيها أعمدة خشبية تحمل سقف الكهف

المواقد :

وجد عدد من المواقد المتقنة البنيان وبعض هذه المواقد صغيرة كان للأغراض المنزلية العادية وبعضها كبير كان لصنع الآنية الفخارية . والموقد في المعادى كان عبارة عن عدد من الحجارة متراسة بجوار بعضها بحيث تحصر بينها الوقود . وما زال



شكل (٩٧) يبين أحد المواقد بالمعادى

عدد كبير من هذه المواقد قائما كما تركه أهلها . ومن المواقد ما يوجد أمام المنزل وهو الموقد الرئيسى لهذا المنزل ، كما أن من المواقد ما يوجد داخل المنزل نفسه وهى مواقد صغيرة للأغراض الثانوية .

المخازن :

كان سكان المعادى الأقدمون يخزنون مؤوتهم فى حفرات يزيد عمقها على متر فى كثير من الأحيان ويتراوح قطرها بين متر ومترين . كما كانوا يستخدمون القدور

الفخارية الكبيرة والسلال لهذا الغرض . وربما كان لبعض المخازن المحفورة في الأرض سقف يقوم على قوائم من الخشب وسيج يحيط بالحفرة كما دلت على ذلك بقايا الأخشاب البالية في حفرات الخزن وحولها .
الحياة الاقتصادية :

فيما يختص بالصناعة عرف أهل المعادى الغزل والنساجة فقاموا بتحويل الألياف المختلفة إلى خيوط . وقد وجد عدد كبير من أحجار المغازل التي مازال بعضها محتفظا بالعصى في داخل ثقبها . كما حذق القوم النساجة إذ وجدت بقايا منسوجاتهم كما وجدت قطع من اللبن وعدد من الحفرات مستطيلة الشكل يغلب على الظن أنها كانت تستخدم في وضع الأنوال الرأسية المستعملة في النساجة .

وتدل كثرة الآنية الفخارية وتعدد أحجامها وأشكالها ثم اتقان صنعها على أنها لم تكن صناعة منزلية بل كانت صناعة عامة يقوم بها عمال اختصاصيون ، وقد ترتب على ذلك وجود فئة من القوم تعيش في مستوى اقتصادي أعلا من مستوى الزراعة والرعاة .

وفيما يختص بالتجارة وجدت بالمنطقة مواد غريبة عنها مستوردة من جهات بعيدة مصرية وغير مصرية مما يرجح أن العلاقات التجارية كانت منتظمة بين مدينة المعادى القديمة وبين الجهات المحيطة به . فقد جلبوا الصمغ من الجنوب والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سيناء كما جلبوا البازلت والصوان من أبي زعبل والفيوم وأبي رواش واستوردوا الجرانيت وسائر الأحجار النارية من أسوان وجبال البحر الأحمر . واستوردوا الأسفلت من منطقة البحر الميت بفلسطين لاستخدامه في طلاء السفن وغير ذلك من الأغراض واستوردوا صمغ الصنوبر من سوريا لاستخراج زيت التربينينا .

وتؤكد بعض آثار المعادى هذه العلاقات الخارجية فبعض اللوحات الصوانية التي تمتاز بها المعادى توجد في تل الغسول بالقرب من البحر الميت ، كما أن بعض الأواني الفخارية التي كشفت بالمعادى من أصل سوري وربما أستوردت مملوءة

بالزيوت أو غير ذلك من المواد بدليل الغطاء الطيني الذى مازال يحيط بقمة بعض هذه الأواني .

المقابر :

كانوا يدفنون الأجنة داخل المساكن أما فى قدور أو فى حفر غير عميقة . ومازال دفن الأجنة فى المساكن متبعاً فى القرى المصرية حتى الوقت الحاضر . وأما مقابر القوم فكانت فى جبانة خاصة بعيدة عن مساكن الأحياء وتقع على ابتداء القرية من الجنوب فى أرض منخفضة تقع عند سفح التل الذى كانت تقوم عليه هذه القرية .

ويستنتج الأستاذ مصطفى عامر من وجود الجبانة فى تلك البقعة المنخفضة أن تغيراً جغرافياً كبيراً طرأ على المنطقة منذ عصر ما قبل الأسرات وأن مستوى وادى دجلة فى ذلك العصر كان أكثر انخفاضاً مما هو الآن بحيث لم تكن مياه السيول — التى كثيراً ما تتدفق فى الوادى فى فصلى الشتاء والربيع — تصل إلى المستوى الذى تقوم عليه الجبانة فى الوقت الحالى .

وتدل كثرة ما فى مدينة الموتى (الجبانة) من مقابر على كثرة عدد السكان فى هذه المنطقة فى عصر ما قبل الأسرات ، وهذا يتفق مع مساحة مدينة الأحياء ووفرة آثارها التى ذكرناها فيما سبق والتى تشمل المساكن والمخازن والمراقد والأدوات والأواني المختلفة .

والمعلومات التى لدينا فى الوقت الحاضر تدل على أن سكان المعادى فى ذلك العصر لم يعنوا بمقابرهم . فجميع المقابر بلا استثناء عبارة عن حفرة بسيطة يتراوح عمقها بين ٢٠ سم و ٩٠ سم حسب سن الشخص ودرجة نموه . وكان يدفن الميت فى هذه الحفرة البسيطة ثم يمال عليه التراب . وقد وجدت الهياكل فى المقابر التى كشفت فى وضع منثنى وهو الوضع المألوف فى مقابر ذلك العصر فى جميع جهات مصر . ويستثنى من ذلك حالات قليلة وجدت فيه الهياكل ممدودة .

وليس هناك اتجاه ثابت للرأس وإن كان رأس الأثرية يتجه نحو الجنوب كما أنه ليس هناك اتجاه ثابت للوجه فهو يتجه أحيانا نحو الشرق وأحيانا نحو الغرب وفي بعض الحالات يتجه نحو الجنوب أو نحو الشمال ولم توجد في أكثر المقابر شيء غير الهيكل العظمي اللهم ألا بقايا من الحصير وجلود الحيوانات والنساجة كانت تغطي بها الجثث ، وقد وجد في حوالي ثلث عددا للمقابر التي كشفت إناء واحد من الفخار مع كل هيكل ، وهذا الإناء من النوع الموجود بمنطقة السكنى مما لا يدع مجالا للشك في أن هذه الجبانة تضم رفات أصحاب حضارة المعادى في عصر ما قبل الأسرات

وقد لوحظ أن نسبة الوفيات في الأطفال كبيرة فقد بلغ عدد مقابرهم ثلث المقابر التي كشفت . ويظهر أن كل عائلة كانت تدفن موتاهما في مكان خاص بدليل وجود مقابر الصغار بالقرب من هيكل الكبار .

ومما هو جدير بالذكر أنه وجد في هذه الجبانة مقبرة الحيوان يشبه الكلب أو ابن آوى دفن بعناية تامة في وضع منثنى كذلك وجبانة المعادى في هذا التقليد شبيهة بجبانة نقادة إذا كانت الكلاب تدفن بعناية في جبانة البشر . وهذا من الطقوس الدينية التي تحتل عدة تفسيرات ، وربما كان المقصود بدفن الكلب في الجبانة حراسة صاحبه في الحياة الأخرى . وربما كان هذا بدأ عبادة أله المقابر الذي صور في العصر التاريخي في شكل ابن آوى . فقد عرف هذا الحيوان بنشش المقابر ولذلك عبده المصريون اتقاء لشربه حتى لا ينشش قبورهم بعد موتهم .

ولمقابر المعادى دلالة دينية واجتماعية ، فأما الدينية فهي تدل على اعتقاد أهل هذه الحضارة في الحياة الآخرة بدليل وضع قدر من الفخار مع الميت لكي يتزود بما فيه من طعام وشراب في حياته الأخرى ، وأما الاجتماعية فأن المقابر التي كشفت حتى الآن تدل على أن الناس كانوا سواسية لا فرق بين عظيم وحقير إذ لم تكشف مقبرة تتميز بالغنى المادى عن سائر المقابر . وتدل هذه الجبانة على رقى أهل هذه الجبانة على رقى أهل هذه الحضارة في أفكارهم بالنسبة لأهل حضارتهم مرمدة بنى سلامة وحلوان الثانية الذين كانوا يدفنون الموتى بداخل المساكن . وأما أهل المعادى فقد فضلوا مدينة الأحياء عن مدينة الموتى .

الحياة الروحية :

وجدت قطع من عظم حيوان ضخيم — ربما كان فرس الماء — موضوعة في شكل رأسى ومثبتة في الأرض بقطع من الحجارة ، ويغلب على الظن أنها وضعت بهذا الشكل لغرض ديني أو سحري أذ تسكر وجود مثل هذه القطع في أكثر من موضع كما وجد ما يشبهها في مرمدة بني سلامة بغرب الدلتا .

وكذلك وجد قدر من الفخار أسود اللون عظيم الحجم يزدان سطحه برسم تمساح محفور على أحد جوانبه ، ولعل هذا يدل على أن عبادة التمساح التي ظهرت بشكل واضح في العصر الفرعوني قد ظهرت في هذا الوقت المبكر في المعادى ، ومن الجائز أن هذا التمساح عبارة عن شارة طوطمية تدل على القبيلة التي كانت تسكن المنطقة .

وقد وجد أحد الأجنة مدفونا في آنية فخارية ذات ثقبين كالعينين لكي تبقى روح الميت متصلة بالعالم المادى في الخارج وهذا أول مثل نعرفه من فجر التاريخ للعقيدة التي شاعت في العصر التاريخي .

الحياة الاجتماعية :

تدل مدينة الأحياء بالمعادى على أنه كانت توجد بين الجماعات التي سكنت هذه المنطقة في عصر ما قبل الأسرات نوع من الإشتراكية تتمثل في تشييد المواقد الكبيرة وحفر المخازن الواسعة العميقة قرب الأطراف الشمالية للبلدة . فقد كانت المؤونة إذا ملأها مشاعا لأفراد الأسرة جميعا وكان طهي الطعام يتم في مواقد كبيرة تكفي أعدادا كبيرة من الناس . وقد وجدت أدلة على مثل هذه الحياة المشتركة في الفيوم . وكذلك لوحظ بالمعادى أن هناك نوعا من الأسوار المصنوعة من النباتات المختلفة تحيط بمجموعات خاصة من المساكن ربما كانت تسكنها جماعات يتصل بعضها ببعض بصلات القرابة أو النسب . وما زالت هذه الحياة المشتركة موجودة عند الأسر الكبيرة بالقرى المصرية حتى الوقت الحاضر .

وهكذا نرى أنفسنا أمام حضارة مصرية جديدة نشأت نشأة مستقلة عن الحضارات الأخرى التي عرفناها فيما سلف من فصول . ولما اتصلت بالحضارات المعاصرة في الشرق والجنوب فأثرت فيها وتأثرت بها . فأما صلتها بالجنوب فتتضح من بعض صناعاتها الصوانية كالسكاكين التي على شكل ذيل السمكة وكالأسلحة المختلفة المصنوعة بطريقة الضغط كما تتضح من بعض أوانها البازلتية والفخارية ومن بعض مظاهرها الروحية كدفن الكلب داخل جبانة البشر . وعلى العموم يمكن أن نجتمع من المعادى أدلة عديدة على أنها كانت باكورة حضارة نقادة الثانية . وأما صلتها بالشرق فتتضح من معادنها كالنجاس والمنجنيز والأسفلت ومن أوانها الفخارية ذات الأشكال الغريبة ومن بعض آلاتها الصوانية ، فهذه المظاهر كلها تربط المعادى بشبه جزيرة سيناء وسوريا وفلسطين وتمكن من القول بأن المعادى كانت القنطرة التي عبرت عليها بعض مظاهر الحضارة الآسيوية إلى الصعيد كما سبق أن ذكرنا عند الكلام على حضارة نقادة الثانية .

ويدل اتساع المدينة وسمك الطبقات ووفرة الآثار على أن المعادى في عصر ما قبل الأسرات لم تكن قرية صغيرة بل كانت مدينة كبيرة يرى بعض الأثريين أنها كانت عاصمة مصر كلها حينما تم اتحادها لأول مرة في عصر ما قبل الأسرات . ولا شك أن موقعها الجغرافي ساعدها على أن تتبوأ هذه المكانة كما ساعد منف فيما بعد . والشبه كبير بين موقع المعادى ومنف ، فكلاهما يقع عند نهاية الوادى وبدأ الدلتا . ولكن موقع المعادى أفضل لأنه يمكن عن طريقها الاتصال بكثير من المراكز الحضارية في الشرق .

ولقد أحسن أهل المعادى القدماء اختيار موقع مدينتهم فقد أقاموها على ربوة عالية مستطيلة الشكل تمتد من الأرض الزراعية وشاطئ النيل في الغرب إلى داخل الصحراء في الشرق وتحدها الوديان الصحراوية من الشمال والجنوب . وبذلك يسهل اتصالها بموارد الماء كما تسهل حمايتها من المغير حيوانا كان أو انسانا .

ولم تكن حضارة المعادى محلية بل كانت واسعة الانتشار فقد أمكن تتبع

آثارها شمالا لمسافة طويلة كما أمكن تتبع آثارها جنوبا لمسافة طويلة كذلك . ولقد عثرت مصلحة الآثار المصرية في سنة ١٩٣٥ في منطقة الصف الواقعة جنوب المعادى بحوالى ٣٠ كيلو مترا على مقابر ترجع لفجر التاريخ تضم أوانى فخارية تشبه تمام الشبه بعض الأنواع المعروفة في المعادى . ومن الهائز أن زيادة البحث في الطريق بين المعادى ونقادة تؤدي الى كشف عدة مراكر أثرية تربط بين هذين المركزين الحضاريين ربطا جغرافيا .

وتدل وفرة آثار هذه الحضارة وتنوعها على أن المدينة كانت عامرة بالسكان وعلى أن التخصص المهني كان موجودا فهناك طائفة الزراع التي تقوم بزراعة الحبوب المختلفة والنباتات ذات الألياف ثم بتربية الحيوان كالماشية والأغنام والماعز والخنازير والكلاب والحمير كما كانوا يعتمدون في جزء من غذائهم على صيد البر والهر وهناك طائفة الصناع التي توفرت على إنتاج آلاف الأوانى الفخارية والقطع الصوانية . ثم هناك طائفة التجار التي كان أفرادها ينتقلون بين المعادى ومراكز الحضارة في الجنوب والشرق مبادلين بضاعة المعادى بغيرها ، فكانوا رسل الثقافة التي وجدت بين آراء الناس وأفكارهم مما ساعد في مبدأ الأمر على توحيد البلاد تحت حكم ملك واحد ثم على تكوين الامبراطورية المصرية في الشرق فيما بعد .

ويلاحظ على حضارة المعادى قلة الآثار الفنية فالفخار الملون قليل والتماثيل نادرة ، على أنه يلاحظ في الحضارات الأخرى أن أهم الآثار الفنية وجدت في المقار ، وعلى هذا من الجائز أن تجود المعادى بثروة فنية كبيرة متى تم كشف جميع مقابرها . وأما جنس أصحاب هذه الحضارة فيظهر أنه لا يختلف عن الجنس السائد في مصر في ذلك الوقت . فالهياكل البشرية المكتشفة بالمعادى شبيهة بما كشف في مرمدية بنى سلامة وحلوان ونقادة وهذا دليل على أن الحضارات المصرية — على تعدد مراكزها واختلاف ظروفها المكانية والزمنية — نتاج هذا الجنس المتحد شكلا وثقافة . وأما ما يظهر من أنه اختلاف بين المراكز الحضارية المصرية المختلفة فما هو ألا نتيجة التطور الذي تمليه ظروف الزمان والمكان .

الفصل التاسع

اتحاد شطرى البلاد وقيام الحكيم الملكى

قسمت الطبيعة القطر المصرى إلى وادى ودلتا ، فأما الوادى فهو شريط طويل وسط هضبتين صخريتين تحفانه من الشرق والغرب ، طوله حوالى ٩٠٠ كم وعرضه يتراوح بين عشرة كيلو مترات وعشرين كيلو مترا ، ولكنه فى بعض الأحيان يضيق حتى يصبح فى عرض المجرى المائى فقط . هذه هى الأرض الجنوبية أو « تا شمع » كما سماها قدماء المصريين . ثم شمال منفيس يتغير منظر الأقليم إذ يتحول مجرى النهر إلى دلتا كبيرة طولها أكثر من مائة كيلومتر وعرضها حوالى ٧٠٠ كيلومتر وكان النهر يتفرع خلال هذه الدلتا إلى فروع عديدة . وتأخذ التلال القائمة على جوانب الوادى فى الصحراء الشرقية والصحراء الليبية فى الانخفاض شيئا فشيئا حتى تتلاشى ولا يصبح لها وجود على جوانب الدلتا ، وأصبحنا لا نرى هنا واديا ضيقا تحفه التلال كما هو الحال فى مصر العليا وإنما نرى بساطا من الخضرة لا تدرك العين أطرافه تخترقه القنوات وتتخاله البحيرات والمستنقعات . هذه هى الأرض الشمالية « تايح » كما سماها قدماء المصريين . والفرق واضح بين الأرضين ، فالأرض الشمالية بعيدة عن حرارة الصحراوات الأفريقية وعزلتها وقربية من البحر الأبيض المتوسط تهب عليها الرياح الشمالية من البحر فتجعلها ألطف مناخا من الأرض الجنوبية . ثم من الناحية البشرية نجد الأرض الشمالية قريبة الاتصال بآسيا عن طريق برزخ السويس وبأوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط .

فالتبيعة إذا قد أوجدت « مصرين » مصر الأفريقية فى الجنوب ومصر البحر الأبيض فى الشمال . وقد أدرك قدماء المصريين هذا الفرق منذ القدم فأطلقوا على البلاد إسم « تاوى » أى الأرضين . ولكنهم أدركوا فى الوقت نفسه استحالة

استقلال أحدهما عن الآخر ، فالوادي الضيق الطويل يرتبط بالدلتا الواسعة العريضة بواسطة الشريان الذي نسميه نهر النيل ولذلك تشابهت الحياة البشرية والاقتصادية في كل من الأرضين منذ أقدم العصور .
ولتتبع الخطوات التي تمت لتوحيد البلاد لا بد من معرفة النواحي الطبيعية والجنسية والدينية التي كانت فيها البلاد قبيل قيام الأسرات .

الناحية الطبيعية : تحمي الطبيعة مصر من كل الجوانب فمن الشمال يحدها ويحميها البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء ، ومن الشرق والغرب الصحراوات ، فهي بلاد مقفولة من كل الجوانب ماعدا بعض فتحات . وهذا يساعدها على مقاومة الغزوات الخارجية وعلى إيجاد نوع من الهدوء والطمأنينة في نفوس السكان والحكام . فإذا ما استطاعت غزوة أن تدخل مصر فإنها لا تلبث أن تندمج في أهلها داخل هذا الأقليم المقفول .

ولقد شق النيل طريقه خلال هذه الصحراء التي تشغل كل شمال أفريقيا ماعدا الشريط الساحلي وكون له فيها سهلا رسوبيا غنيا يضيق تارة ويتسع تارة أخرى . وهذا السهل الرسوبي الذي كونه النيل هو حياة مصر ، وقد عبر المؤرخ هيرودوت عن هذه الحقيقة أصدق تعبير بقوله « إن مصر هبة النيل » فوجودها مستمد من النيل لأن التربة المصرية الخصبة مكونة من الطمي الذي جلبه النيل من الحبشة بواسطة رافديه العظيمة والنيل والأزرق وأرسبه فوق الصخور الأصلية . كما أن ماءها الذي يحيي الأرض وينبت النبات مستمد من النيل وحده لأن مصر بلد عديم الأمطار . ثم أنها تعتمد في جميع مواردها الاقتصادية على التفاعل الذي يحدث بين ماء النيل وطميه . ولقد أدرك المصريون منذ القدم أهمية هذا النهر وعظمته فألهوه وعبدوه في شكل إنسان وأطلقوا عليه اسم « حابي » كما سموه « أترعا » أي المجري العظيم ^(١) . وكذلك كان للطمى الأسود أبلغ الأثر في نفوس المصريين

(١) أما كلمة نيل فمشتقة من الكلمة اليونانية نيلوس .

فسموا بلادهم « تاركمت » أى الأرض السوداء (١) .
ولم يقتصر فضل النيل على مصر على رى شريط الأرض المحيط بمجراه وإنما أحيى بعض الأراضى النائية مثل تلك المنخفضات المنتشرة فى الصحراء الغربية حيث تسرب جزء من ماء النيل إلى الباطن فوصل إلى عمق حوالى مائتى متر ثم ظهر فى الوديان المنخفضة مثل بحر يوسف الذى كان يجرى من إقليم طيبة إلى الفيوم كما ظهر فى سائر المنخفضات الأخرى التى نسميها الواحات مثل الخارجة والداخلة وسيوة والفرافرة والبحرية وكها تقع فى صف واحد تقريباً على بعد يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ كم من وادى النيل . ولقد ظهر الماء فى هذه المنخفضات على شكل ينابيع وآبار فمنكن من زراعة آلاف الأفدنة وساعد على سكنى هذه الجهات بعدد كبير من السكان (٢) .

ومن فضائل هذا النهر أيضاً أنه واسطة اتصال بين اجزاء القطر المصرى ، فالملاحه فيه داخل الحدود المصرية سهلة مريحة سواء أكان السفر نحو الشمال أو نحو الجنوب . فالمصريون حينما يسافرون نحو الشمال يساعدهم تيار النهر ثم هم حين يسافرون نحو الجنوب — أى ضد التيار — تساعدهم الرياح الشمالية السائدة فى القطر معظم العام .

وفى أوائل يونية من كل عام يبدأ نهر النيل فى الارتفاع حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض على جوانبه . فالنيل الأبيض يرسل كمية كبيرة من الماء تسير بهدوء فى هذا المجرى العظيم البالغ طوله سبعة آلاف كيلو متر وتمر بالخرطوم حوالى أوائل أبريل وتصل الحدود المصرية عند الشلال الأول فى أوائل يونية ، وهذا

(١) أما كلمة أيجبت فقد وردت لأول مرة فى كتابات الشاعر اليونانى هومر وربما كانت مشتقة من الكلمة المصرية جبط وهو اسم مدينة قفط التى تقع على النيل عند رأس طريق القوافل الموصل بين النيل والبحر الأحمر وسماها اليونان كوتبوس

(٢) هناك رأى بأن مياه هذه الواحات منشأها الأمطار التى تسقط فى أواسط السودان وتتسرب إلى باطن التربة خلال الحجر الرملى ثم تنحدر نحو الشمال خلال باطن التربة المسامية حيث تظهر فى هذه المنخفضات المسماة بالواحات على شكل آبار وينابيع ،

ما يسمى بالموجة الخضراء لأنها تأتي من منطقة المستنقعات الاستوائية . ثم في أوائل يولية أى بعد وصول الموجة الخضراء بشهر واحد تصل الموجة الحمراء لأنها تحمل الطمي المفتت من تربة الحبشة البركانية ، حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض النهر على جوانبه وغطى الأرض المشققة — التي جففتها شمس الصيف الحامية — بالماء الذى سماه قدماء المصريين ماء الحياة . ويستمر هذا الفيضان حوالى مائة يوم يغطى فيها كل الأقليم حتى يصبح كالبحيرة وتصبح المدن فى وسطه كأنها جزر . ثم فى أواخر شهر أكتوبر يأخذ النهر فى الانخفاض حتى يصل فى أواخر شهر نوفمبر إلى مجراه الطبيعى . ومعنى هذا أن النيل يغطى الأرض أربعة شهور فى العام ثم يتركها غنية خصبة ثمانية شهور أخرى ويبدأ الفلاحون فى بذر البذور فيجئون أول محصول حوالى منتصف فبراير ثم يبذر المحصول الثانى ويحشى قبل مجئ الفيضان مباشرة . وفى بعض أجزاء الدلتا التى لا يغمرها الفيضان كان يزرع محصول ثالث . فنحن إذاً أمام بلاد غنية لا تعرف الجوع تزرع محصولين فى الصعيد وثلاثة محاصيل فى الوجه البحرى .

ولقد كان لهذا الفيضان أبلغ الأثر فى تاريخ قدماء المصريين وديانهم كما تشهد بذلك النصوص المدونة على معابدهم وأهراماتهم .

فعلى إحدى أهرامات الأسرة السادسة نجد النص الآتى « يرتعد أولئك الذين يرون حانى يضرب الأرض بأمواله ولسكن المراعى تبتسم والشواطىء تزدهر » ونص آخر يقول « مرحى يا حانى . أنت يامن ظهرت على الأرض لى تعطى الحياة إلى مصر . أنت يامن تأتى مستخفياً فى الظلام لى تعطى الحياة لكل ظمآن ... إذا ما أتيت يكون جب (إله الأرض) فى شوق إلى الخبز فيقدم نيرى (إله القمح) عطاياه . ويأمر بتأاح (إله منف) المصانع بالنشاط » ثم يضيف هذا النص « أن النيل لو قبض يده لأصبحت الملايين فى بؤس وشقاء ولمات الناس والآلهة ولجنت الحيوانات ولأصبح كل من على الأرض فى حزن شديد ولكنه إذا أتى لهم فى صورة خنم (إله الخلق) لصاحت الأرض فرحاً ولامتلأت البطون سروراً ولا هزت الظهور ضحكاً ولنشطت الأسنان حركة ... »

غير أن فيضان النيل لم يكن مريحا في كل الأحيان ، فحينما يكون شديد الارتفاع وحينما آخر يكون شديد الانخفاض . فإذا جاء مرتفعاً جرف كل ما يلقيه في سبيله من حيوانات ومساكن وفي ذلك يقول أحد الفراعنة (أصبح الوادى كله كأنه بحر وغطت الأمواج المعابد وأصبح الناس كأنهم الدجاج المائي) وأما إذا جاء الفيضان منخفضاً فإنه يكون مصيبة على البلاد وفي ذلك يقول الملك جوسر صاحب الهرم المدرج في صقارة « أنى حزين جداً لأن النهر لم يفيض على جوانبه في عهدى مدة سبع سنين فنذر القمح وجفت الحقول وانعدمت موارد الغذاء » .

هذه الظروف كلها — رخاء كانت أو شدة — كان لها أثر عظيم في التاريخ المصرى يتلخص فى النقاط الآتية :

أولاً : لا حظ المصرى أن النيل يبدأ فى الارتفاع فى تاريخ ثابت فكان هذا من العوامل التى ساعدته على اختراع التقويم ومعرفة بدأ السنة ونهايتها وتقسيمها إلى فصول ثلاثة هى الفيضان والانبات والحصاد .

ثانياً : هذا الفيضان السنوى هو عبارة عن رى طبيعى نظمته الطبيعة لرى الأرض ، وبعد انحسار الماء تنمو النباتات البرية من تلقاء نفسها وبالطبع لفتت هذه العملية نظر إنسان العصر الحجري فى مصر . فهذا الإنسان رأى الأرض قبل الفيضان مينة لا نبات فيها فإذا مارواها الفيضان انتعشت وأخرجت النبات ، فربما هداه التفكير فى هذه الحالة إلى اختراع الزراعة .

ثالثاً : هذا الفيضان السنوى كان يتطلب جهوداً مشتركة لضبطه ودفع غوائله وقد حتم هذا على السكان الموجودين على جوانبه التشاور والتعاون لدفع أخطار الفيضانات المرتفعة والمنخفضة على حد سواء ، وبالطبع أدى هذا إلى تنظيم الجماعة المصرية . وقد هداهم التفكير فى شئون الفيضان إلى إقامة مقاييس للنيل فى جهات معينة مثل الفنتين ومفيس ، وكلف بمراقبتها أشخاص يقرءون المقاييس ويرسلون الرسل إلى المدن المختلفة ليبلغوها مقدار ارتفاع النيل أو مقدار انخفاضه مقدراً بالأذرع والقراريط . وتعددت المقاييس فى جهات القطر المختلفة لأن كل جهة تتطلب

ارتفاعا معيناً من الماء . ففي الفنتين يكون الفيضان مناسباً إذا بلغ ارتفاع الماء ٢٨ ذراعاً (الذراع حوالى نصف متر) وفي أدفو يكون الفيضان المناسب ٢٤ ذراعاً وفي ممفيس ١٦ ذراعاً وفي مندىس وخويس ٦ أذرع فقط أى أن مقدار الزيادة المطلوبة يكون أقل كلما انحدرنا شمالاً نحو البحر .



شكل (٩٨) شارة القسم الخامس عشر فوق العلامة الدالة على القسم الإدارى

رابعاً : كان على المصريين أن يحتسبوا من الفيضان ببناء مدنهم وقراهم فى الأماكن المرتفعة وبإقامة السدود حول المدن والحقول لئلى تحميها من التيارات السريعة ولئلى تستعمل فى نفس الوقت كممرات بين المدن المختلفة . أى أن البلاد انقسمت مضطرة إلى أحواض تفصلها سدود وتوصل بينها قنوات تسير موازية للنهر من الجنوب للشمال لئلى تحمل المياه من حوض آخر . وهذا التقسيم إلى أحواض هو أساس التقسيم إلى أقسام إدارية بدليل أن كلمة قسم إدارى عند المصريين رسمت كما فى شكل ٩٨ وأما كلمة مدينة فكانت تكتب كما فى شكل ٩٩ وهى عبارة عن مكان يحيط به أسوار .



شكل (٩٩) كلمة مدينة فى اللغة المصرية (نيثوت)

خامساً : كان الفيضان يغمر الوادى كله تقريباً من الهضبة الشرقية إلى الهضبة الغربية مدة أربعة شهور أى حوالى ١٢ السنة يصبح الناس فى هذا الوقت لا عمل لهم

بالمرة وهذا يفسر تسخير الملوك لهم في بناء الاهرامات والمعابد المختلفة في هذه الفترة بدون الاضرار بالصالح الاقتصادي للبلاد .

ومن هذا نرى أن نهر النيل علم المصريين دروسا كثيرة فعلمهم اختراع التقويم والزراعة ، وإذا كان قد أرغمهم على تقسيم الوادى إلى أحواض تفصلها سدود فقد أرغمهم على تعاون سكان كل حوض مع الحوض الواقع في جنوبه والواقع في شماله لأن مياه النيل تتصرف من الجنوب للشمال من حوض إلى آخر بواسطة قنوات تخترق السدود . وأخيرا أدرك المصريون أنه يستحيل عليهم تنظيم النيل الذى هو أساس حياتهم ألا إذا أعطوا قيادتهم إلى ملك يشرف على هذه الأقسام المختلفة ويكون واسطة الاتصال بينها ويمنع اعتداء الأقسام على بعضها وبذلك وجد النظام الملكى .

الناحية الجنسية : وفيما يختص بالناحية الجنسية في فترة تكون الأسرات الملكية الفرعونية نجد أن سكان مصر في هذه الفترة كانت قامتهم متوسطة (طول القامة هـ قدم ، هـ بوصة) وشعرهم مستقيم أو مجعد ولونه أسمر أو بني غامق ، وشكل الرأس مستطيل ضيق بارز القذال ، والوجه مستطيل متناسب مع الرأس والجهة ضيقة والأنف عريضة ولكنها أقل عرضا من أنف الزنجرى والذقن مدببة ، وعظام الحاجبين ليست بارزة والفك غير بارز وحجم الأسنان متوسط . ويظهر أن هذا هو عنصر الحاميين الذى يدخل فى التركيب الجنسى للمصريين ويسميه اليت سميث بالجنس الأسمر .

ولقد وجد مع مجموعات الجماجم التى ترجع إلى هذه الفترة جماجم ليست صغيرة الأنف ولا عريضته وإنما هى ذات أنف طويل ضيق بارز مما يدل على وجود عنصر الساميين أيضا فى هذه الفترة .

ثم فى بدأ الأسرات الملكية الفرعونية أى بعد الأسرة الثانية ظهر عنصر غريب يختلف فى مميزاته الجنسية عن الجنس الأسمر الذى وصفناه . فهذا العنصر الجديد عريض الرأس ليس عنده بروز فى القذال . عريض الوجه والجهة ، أنفه

أطول من أنف الجنس الأسمر وأضيق منها والفك الأسفل أضخم . والذقن عريضة وحجم الجسم أكبر والعضلات قوية ، ولكن قامته لا تختلف عن قامة الجنس الأسمر . يسمى اليث سميث هذا الجنس بجنس الجيزة إشارة إلى الجهة التي وجد فيها وهي منطقة الجيزة ومفيس ويسميه البعض الأرمني إشارة إلى الجهة المفروض أنه أتى منها وهي غرب آسيا بالقرب من بحر قزوين .

وظهر في غرب الدلتا عنصر ليبي أشقر أزرق العين ظهرت آثاره في بعض مقابر العصر الفرعوني .

وإذاً سكان مصر القدماء لا يرجعون إلى جنس واحد، فمنذ أقدم العصور يمكن التمييز بين ثلاثة عناصر على الأقل، ولكن هذه العناصر اتحدت منذ أقدم العصور أيضاً وكونت أمة واحدة قبل بدأ الاسرات الملكية الفرعونية . ولقد عرفنا أنه في العصر الحجري القديم كان سكان مصر يعيشون بعيداً عن وادي النيل على حافة الصحراء، وتدل مخلفاتهم على أنهم كانوا صيادين، ثم في العصر الحجري الحديث نراهم يقتربون من الوادي شيئاً فشيئاً حيث يصبحون زراعا مستقرين يستأنسون الحيوان ويرتبطون بالتربة المصرية في غذائهم ولباسهم ومصنوعاتهم .

وليس لدينا آثار مكتوبة عن هذا العصر ولكن آثارهم الأخرى ناطقة بانهم كانوا في هذه الفترة قوماً منظمين عرفوا سكنى المدن وكان لكل مدينة شعارها الخاص كالصقر والتمساح والفيل وقرص الشمس . . الخ ولقد بقيت هذه الاسماء في عهد الاسرات . وربما منشأ هذه الاسماء انقسام الجماعة المصرية إلى عشائر لكل عشيرة طوطمها الخاص ثم أصبحت هذه الطواطم آلهة . ثم استقرت كل عشيرة في بقعة معينة من الارض وارتبطت بها ومن هنا نشأت المدن المختلفة . التي أصبحت حواضر الأقسام الادارية فيما بعد وأصبح معبود العاصمة شعاراً للمديرية كلها (أنظر الأشكال ١٠٠، ١٠١، ١٠٢) .

وأما الناحية الدينية فيام الاسرات الفرعونية فقد فكر قدماء المصريين في الكون وما يحيط بهم من ظواهر طبيعية فخرجوا من هذا التفكير بنوع من

العبادات تطورت على مر العصور حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكي في مصر المتحدة . وقد ظهر الاختلاف هنا أيضا بين الدلتا والصعيد .

أما في الدلتا فقد نظر سكانها إلى السماء فرءوا طائرا شجاعا يطوف المملكة



شكل (١٠٠) يبين الغزال معبود القسم السادس عشر

السمائية ويتصل بالأرض في بعض الأحيان فأعجبوا به وعبدوه . هذا الطائر هو



شكل (١٠١) يبين الثور الأسود (القسم العاشر)

الصقر . وعبادة الصقر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات حيث وجدناه مقدسا عند



شكل (١٠٢) يبين الطائر أيبس معبود القسم الخامس عشر

كثير من العشائر ولما اخترعت الكتابة أصبح رسم الصقر مخصصا لكلمة ألد فتسكتب كما في شكل ١٠٣ وسموا الصقر المعبود بعدة أسماء تدل عليه في حالاته المختلفة فقل « حورس الصباح » - « حورس الافق » واشتقوا من اسمه عدة كلمات منها « حرى » بمعنى فوق وحررت بمعنى سماء وحر بمعنى وجه إنسان . وهكذا . ثم

قالوا أن الشمس والقمر ما هما إلا عيني حورس ينظر بهما إلى هذه الأرض
ويضيئها للناس . ففي ليتو پوليس عاصمة القسم الثاني من أقسام الوجه البحري كان
يحكمها آله يسمى « حرختي أيرتي » أي حورس المسيطر على العيينين ويكتبونها

بالهيروغليفية  ثم سموه حورس الأكبر وميدان قوته

النهار والنور . وهذا غير حورس الاصغر أو حورس الطفل بن أزيس الذي
سنذكره فيما بعد .

٦٤

شكل (١٠٣) يبين كلمة آله في اللغة المصرية وقد رسم الصقر مخصصا لها

أما في الصعيد حيث تحيط بهم التلال والصحراوات من الجانبين فقد عبدوا
ألهما يتناسب مع بيئتهم . عبدوا حيوانا شديدا بكلاب الصيد وسموه ست ورسومه
كما في (الشكل ١٠٤) وقد رأينا فيما سبق من فصول أن عبادة ست ترجع أيضا



شكل (١٠٤) يبين الآلهة ست

إلى عصر ما قبل الأسرات حيث اتخذته بعض أقسام مصر حاميا لها مثل القسم رقم

١١ (شاشتب) والقسمه (نوبت) على أن أهم مرا كز عبادة هذا الآله كانت نوبت وهى امبوس بالقرب من نقادة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه مدينة قفط وأطلق عليه أهل نوبت اسم « ست نوبتى » أى ست الذهبى . ويظهر أنهم استطاعوا أن يفرضوا ألهمهم على جميع الأقسام الجنوبية وأن يجعلو ست ملكا على مصر العليا كلها وميدان قوته الليل الخيف والظلمة المرعبة ولذلك عمت هيئته كل سكان الوادى فعبدوا فيه البطش والقوه لعلمهم يتقون شره .

إذا عندنا ألهان، حورس آله النهار والنور فى الدلتا ثم ست آله الليل والظلمة فى مصر العليا . ولقد استمد المصريون هذه العبادة من طبيعة بلادهم وصاروا التقلبات الطبيعية على أنها نزاع بين هذين الآلهين ، فالخماسين الرياح القوية العنيفة التى تهب من الصحراء فتملأ البلاد رمالا وتؤذى العيون وتضايق الناس هى من عمل الآله ست ثم ينتصر الآله حورس أخيرا فتزول الخماسين وتهب الرياح . وكذلك الليل الذى تغيب فيه الشمس انتصار للآله ست ثم يعود حورس فينتصر ويظهر النهار . والخسوف والكسوف أعمال شر من الآله ست ضد عين حورس اليمنى وهى الشمس وعينه اليسرى وهى القمر . كل هذه الاعمال سماها المصريون « معارك فى السماء » « خنمون پت » وهى المعارك الدائرة بين الآلهين باستمرار أى بين السماء والارض وبين الدلتا والصعيد وقد انتهى هذا النزاع بتقسيم مصر بين الآلهين فأصبح الوجه البحرى مجال نفوذ الآله حورس وأصبح الوجه القبلى مجال نفوذ الآله ست . ونلاحظ أن هذا التقسيم الدينى مطابق للتقسيم الجغرافى بالضبط مما يدل على أن أثر البيئة الطبيعية كان مطبوعا فى أذهان المصريين فقالوا أن حورس يحكم مصر السفلى وأن ست يحكم مصر العليا .

ولقد كانت الدلتا تسبق الصعيد فى الرقى والحضارة فكل خطوة جديدة فى سلم الحضارة نراها تبدأ فى الدلتا أولا ثم تنتقل إلى الصعيد بعد ذلك . هذا رغم أن الدلتا لا تعطينا فى الوقت الحاضر معلومات قيمة كالتى نجدها فى الصعيد وذلك لأن الدلتا منخفضة رطبة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى فهى

بيئة غير صالحة لحفظ الآثار أما الصعيد فهو مرتفع جاف ، أضف إلى هذا أننا في الصعيد نجد المدن القديمة والمعابد والمقابر بعيدة عن الجزء المنزرع فهي واقعة في الصحراء عند سفوح التلال . أما المدن الحديثة فتوجد في الجزء المنزرع بجوار وادي النهر وهذا أدى إلى بقاء آثار الصعيد محفوظة طول هذه المدة بعكس الدلتا التي بنيت مدنها الحديثة فوق خرائب المدن القديمة واتسعت الحقول والمزارع فوق هذه الخرائب مما أخفى الكثير من معالم تاريخ الدلتا القديم وهذه خسارة كبيرة دون شك ، ولكن عوض لنا هذا النقص بعض النصوص التي تركها لنا قسيس مدينة هليوبوليس والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٢٥٤٠ ق. م أي في أواخر الأسرة الخامسة الفرعونية . ومن هذه النصوص عرفنا أن أهل الدلتا هم أول من فكروا في جمع السلطة الدينية والسلطة الزمنية في يد واحدة ، وهذه هي الدرجة الثانية في التطور نحو تأسيس الملكية المصرية الفرعونية ، أما الدرجة الأولى فهي التي رأينا فيها أجزاء مصر محكومة بآلهة .



شكل (١٠٥) علامة أمنت (الغرب)

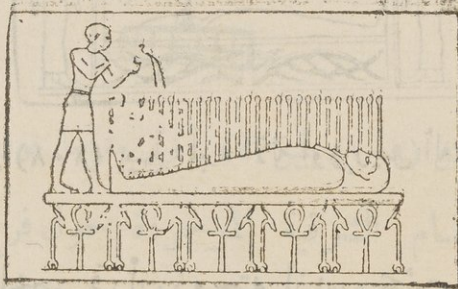
نرى في هذه الخطوة الثانية الدلتا منقسمة إلى قسمين شرق وغرب . أما في الغرب فقد جاءتها موجة من صحراء ليبيا — من التحنو — الذين كانوا يعيشون عيشة نصفها استقرار ونصفها تجوال في غرب الدلتا الذي كان كثير المراعي والأشجار في ذلك العهد حيث كانوا يرعون قطعان الثيران والأغنام المستأنسة وبصطادون الحيوانات البرية ويقودون القوافل التجارية وهم مسلحون بالأسهم والحراب وعصى الرماية . هذا التوغل من جانب الليبيين في غرب الدلتا ظهر أثره في الناحية الدينية وفي الأشكال التي كانت ترسم بها آلهة أقسام غرب الدلتا . بل أن كلمة غرب باللغة المصرية القديمة وهي كلمة (أمنت) هي عبارة عن ريشة نعامة كان يتحلى بها الليبيون في شعرهم فاتخذها المصريون علامة تدل على الغرب (انظر شكل ١٠٥) .

ثم نرى اتحاد أمكو نأمن الأقسام رقم ٧٠٥٠٣ الموجودة في غرب الدلتا تحت حكم ألهة نستطيع أن نسميها ألهة الغرب لأنها ترسم في شكل امرأة تحمل الريشة فوق رأسها . وعلى أحد اللوحات التي ترجع إلى أحد ملوك طيبة نجد رسما يمثل جماعة من المحاربين تقودهم أمنت . وأمامهم جماعة أخرى من المحاربين تقودهم علامة أخرى رسمت كما في شكل ١٠٦ هذه العلامة أصبحت فيما بعد تدل على كلمة شرق في اللغة المصرية القديمة وتنطق يابت . أي أن الأقسام الشرقية اتحدت أيضاً .



شكل (١٠٦) علامة يابت (الشرق)

بعد هذا نظهر في الدلتا قوة جديدة هي قوة أوزيريس وعائلته . وتتلشى أمام هذه القوة قوة أخرى سواء في شرق الدلتا أو في غربها . وقصة أوزيريس تتلخص في أربعة أدوار هي أنه كان حيا ثم مات ثم بعث ثم أورث سلطته الملكية إلى ابنه « حورس الصغير » (انظر شكل ١٠٧)

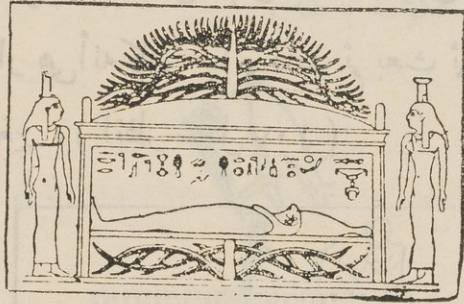


شكل (١٠٧) يبين الآله أوزيريس آله الزراعة

أما قصه حياته فتتلخص في أن أوزيريس كان ملكا عظيما تولى بعد أبيه جب (آله الأرض) فعلم الناس الزراعة وعرفهم ماهو القمح والشعير والسكر وغير ذلك من النباتات النافعة ففرض بذلك على الوحشية وعادة أكل لحوم البشر ثم غزا مصر العليا حيث وجد مناجم الذهب والنحاس فعلم المصريين صناعة المعادن . وكانت تساعد في نشر تعاليمه هذه زوجته اريس الملكة الماهرة التي سفت القوانين وحكمت مصر بالعدل حينما كان زوجها متغيبا في قهر العالم . وقد اتخذ الملكان لها

وزير آهر تحوت الكاتب المقدس الذى اخترع الكتابة والفنون . وعاونها كذلك
الاله انوبيس والاله أوب وات فكان كل من هذين الالهين يحكم قسما من أقسام
مصر ولكنه محالف لأزوريس ويخضع لنفوذه .

أما قصة مماته فتتلخص فى أنه فى اليوم السابع عشر من شهر هاتور من السنة
الثامنة والعشرين من حكم الملك أوزيريس تمكن الاله ست حاكم مصر العليا من
تدبير مؤامرة لقتل أزوريس فعمل وليمة ودعى إليها أوزيريس وأقنعه بأن ينام فى
تابوت من توابيت المرقى بصفة تجربة لكي يرى هل هو ملائم له أو غير ملائم
فخدع أوزيريس ونام فى التابوت فقفله عليه الاله ست وألقاه فى النيل فغرق وحمله
اليم فى الفرع الثانى إلى البحر الأبيض المتوسط ثم حملته أمواج البحر الأبيض
المتوسط إلى يديكوس عند الشاطئ السورى .



شكل (١٠٨) يبين مقبرة الاله أوزيريس أله الزراعة

أما قصة بعثه فتتلخص فى أن زوجته اريس بحثت عن التابوت حتى وجدته
واحضرته من يديكوس إلى بوتو ولكن ست رأى التابوت فتضايق وأراد أن يتخلص
نهائيا من سلطان أزوريس فقطع جثمانه أربعة عشر قطعة ووزعها على شركائه فى
الجريمة حتى يتحملوا معه تبعه عمله . ولكن اريس لا تياس فتبحث عن أجزاء
جسم زوجها وكلها وجدت جزءا أقامت له قبر أو وارتته التراب . ولذلك نرى قبور الاله
أوزيريس منتشرة فى معظم أجزاء مصر . وأصبحت كل عاصمة من عواصم مصر تفخر
بأنها تحتفظ بجزء من جسم أوزيريس (أنظر شكل ١٠٨) . ثم تفكر اريس بمساعدة

الآله توت وانوبيس والآلهة نفتيس في بعث أوزيريس إلى الحياة ولكن ليس في شكل ملك من البشر كما كان وإنما في شكل آله .

أما قصة انتقال الملك إلى ابنه حورس الصغير (وهذا غير حورس الكبير آله ليتوبيس) فتتلخص في أن أوزيريس أنجبت ابناً يسمى حورس وولد تو حورس هذا في بلدة خميس بالقرب من بحيره البرلس بجوار بوتو ولما شب هذا الطفل أصبح ألهامحلياً في بلده عمل على الثأر لأبيه من هؤلاء الذين اعتدوا عليه ولذلك سمي بالآخذ بثأر أبيه (نجأت ف) وقد انضم إليه كثير من المصريين من المديريات التي واتخذت شعارها علامة الغرب ثم من المديريات التي جاءت من الشرق اتحدت حول الفرع الذي نسميه الآن فرع دمياط واتخذت شعارها علامة الشرق . وتخبنا نصوص الأهرام أن اتحاد مدن شرق الدلتا اتخذ لحماية معبوداً يسمى أنزى يرسم كما في الشكل ١٠٩ فقد ورد في هذا النص بأن أنزى هذا مشرف على الأقسام الشرقية .



شكل (١٠٩) يبين الآله أنزى متربعا فوق مديريته

وهذه الأقسام الشرقية الموجودة حول فرع دمياط هي قسم رقم ١٠ (الثور الأسود) وقسم رقم ١١ (ثور حسب) وقسم رقم ١٢ (العجل) ثم قسم رقم ١٦ (السمكة) وهذا القسم في منطقة المستنقعات ثم قسم رقم ٨ في منطقة برزخ السويس بالقرب من البحيرات المرة وهو قسم الحربة الشرقية الذي يقابل قسم ٧ في الغرب وهو قسم الحربة الغربية . ثم قسم رقم ١٤ وهو قسم خنت يابت ومعناه « أقصى نقطة في الشرق » إشارة إلى موقعه الجغرافي في شرق الدلتا وكما رأينا سايس عاصمة اتحاد غرب الدلتا تقوم على فرع رشيد فكذلك بوصير عاصمة اتحاد شرق الدلتا تقوم على فرع دمياط . ويهنا في شكل أنزى

أننا فيه نجد تطورا هاما في فكرة الملكية المصرية فكنا قبل ذلك نرى آلهة الأقسام حيوانات يعبدونها المصريون ويعتقدون أنها تحميهم . ولكننا في هذه الخطوة رأينا آله شرق الدلتا من البشر، في إحدى يديه عصا الراعي التي يمسك بها غنمه وفي اليد الأخرى السوط (الفرقة) الذي يضرب به قطعانه من ثيران وأغنام . وكذلك رأينا اتحاد غرب الدلتا اتخذ آلهة من البشر هي امرأة في رأسها علامة الغرب .

وقد تزعم حورس أنصاره الذين يسمعون في النصوص المصرية أتباع حورس (شمسو حور) وتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالآله ست بعد عدة معارك . وبانتصار حورس أصبح هو الملك وسمى حورس الطفل (حريبا خرد) تميزا له عن آله السماء حورس سيد ليتو پوليس وقله حكم في مبدأ الأمر الأقسام الشرقية في الدلتا . ثم اعترفت مدينته بوتو (بي) بحورس الطفل كسيد لها خلفا لآبيه فأصبح حورس سيد الدلتا كلها وأصبح ذا التاج الأحمر ثم تحول إلى حورس الكبير سيد ليتو پوليس ذي والعينين وقامت الحروب بينه وبين ست آله امبوس . واعتبرت آله الصحراء تفسيراً للعداوة القائمة بين الآلهين (انظر شكل ١١٠) .



شكل (١١٠) يبين الصقر المنتصر على ست في شكل غزال

المهم هنا أن المنافسة الدينية بين الدلتا والصعيد تحولت إلى عداوة سياسية لها صبغة تاريخية فاتحد أهل الدلتا الشرقيون منهم والغربيون لمعاونة حورس ويقود الجميع آله الحرب (الآله أوبوات) ويكتب النصر الأخير لاتباع حورس وتنتصر

الدلتا على الصعيد ويقوم ملوك من أتباع حورس يحكمون مصر المتحدة . ويوضح شكل (١١٠) تعبير المصريين عن انتصار أتباع الصقر حورس على أتباع الحيوان مست

ننتقل بعد ذلك إلى الخطوة الثالثة وهي الخطوة التاريخية التي تبدأ حوالى ٥٥٠٠ ق . م ونرى القطر المصرى فى هذا التاريخ مقسماً إلى ثلاثة أقسام :
القسم الأول مصر السفلى ويحكمه ملوك يمتد سلطانهم من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى رأس الدلتا . وقد بلغ عدد ملوك هذه المملكة الستين لم يعرف منهم غير السبعة الأواخر لأن الكتابة لم تختراع إلا فى آخر حكم هذه المملكة . كان هؤلاء الملوك الستين حكماً فى مملكة منظمة ذات مدن عظيمة وقرى كثيرة وكانوا زراعا وتجارا يستخدمون فروع النيل السبعة وسواحل البحر الأبيض ، وكانوا ذوى علاقات مع آسيا ، ثم فى أواخر عصر ما قبل الأسرات يعرف هؤلاء القوم الكتابة . ويظهر أنهم لم يكونوا شعباً متحداً لأننا نرى الدلتا فى هذه الفترة ذات عاصمتين هما بوتو وسائس . ويظن أن بوتو أقدم ثم انشئت بعدها سائس التى أصبحت عاصمة مملكة الدلتا المتحدة التى يحكمها ملوك اتخذوا النحلة شعاراً لهم والتاج الأحمر لباساً لرأسهم واطلقوا على بلادهم اسم الأرض الشمالية أو أرض البردى لأنه كان ينمو بريا بكثرة فى مستنقعات الدلتا . وقد ذكرنا أن رعية هؤلاء الملوك وفدوا من جهات مختلفة منهم من قدم من الشرق وهم سكان شرق الدلتا ويمتدون بصلة قرابة الدم لشعب فلسطين وسوريا وقرابة الثقافة لسكان الدجلة والفرات ، ومنهم من قدم من الغرب وهم سكان غرب الدلتا الذين وفدوا من ليبيا حتى يقال أن مدينة سائس نفسها كانت فى الأصل مدينة ليبية يسكنها عنصر لىبي ويحكمها ملك لىبي ، ومنهم الزراع المصريون فى وسط الدلتا وهم سكانها الأصليون قبل أن تأتيا موجتا الهجرة الشرقية والغربية .

القسم الثانى يمتد من رأس الدلتا جنوباً حتى نفطة غير محدودة بالضبط بين أسىوط ودندرة . وقد تأسست هذه المملكة بعد مملكة الدلتا بحوالى ثلاثة قرون أى أن تأسيسها تم حوالى سنة ٥٢٠٠ ق . م ولقد قدم سكان هذا الجزء من الشمال فهم لا يختلفون جنسياً عن سكان الدلتا . وقد أقاموا بجوار النهر واشتغلوا بالزراعة

وابشأوا عدة مدن وقرى واتخذوا من مدينة اهناسية مقراً لحكمهم كما اتخذوا نبات الغاب شعاراً لهم والتاج الأبيض لباساً لرأسهم ، وهو التاج الذي أصبح شعار مصر العليا كلها فيما بعد ، فلما اتحدت الدلتا والصعيد أصبح ملك مصر يلبس تاجاً مزدوجاً يمثل التاجين الأحمر والأبيض كما أصبح يلقب بملك النحلة والغاب ويكتب اسمه داخل إطار مسبوق بعلامتي الغاب والنحلة . ولكن هذا الاتحاد جاء بعد نزاع طويل حتى أن ملوك الغاب اضطروا إلى إنشاء مدينة حصينة في شمال مملكتهم تقيم شرعزوات الملوك الأحمر ملوك النحلة في الشمال ، وقد اطلق على هذه المدينة اسم الخائط الأبيض وهي المدينة التي سميت بعد اتحاد الدلتا والصعيد « من نفر » وسماها اليونان ممفيس وأصبحت مقر حكم المملكة المتحدة .

القسم الثالث يحد شمالاً بمملكة الغاب وجنوباً بجبل السلسلة . وقد اتخذت هذه المملكة الصقر شعاراً لها . واتخذ ملوكها مدينة نخن عاصمة لهم وكانت تقع على الجانب الغربي للنيل شمال مدينة ادفو بقليل . واستمرت هذه المملكة قائمة مدة ١٢٥٥ سنة قبل توحيد القطرين . ولقد أصبح للملك في مصر المتحدة خمسة ألقاب من ضمنها اللقب الذي ذكرناه قبل ذلك وهو لقب الغاب والنحلة ومن ضمنها أيضاً لقب الصقر . أما شعب هذه المملكة فيقال أن الجنوبيين منهم اقرباء للنوبيين وأما الشماليون فاقرباء لسكان مملكة الغاب الواقعة في شمالهم . ويرجح أن الطبقات الحاكمة في هذا القسم قد أتت بطريق البحر الأحمر من منطقة الصومال ويوجد طريق هام للقوافل يسير من الشاطئ الشرقي للنيل تجاه مدينة نخن إلى ساحل البحر الأحمر فيحتمل أن تكون الطبقات الحاكمة في مملكة الصقور قد سلكت هذا الطريق من بنت (الصومال) ثم جاءت إلى هذا المكان فحكمت أهله الذين لا يختلفون عن سكان مملكة النحلة .

ثم ظهرت اسرة ملكية قوية في مدينة طينة بجوار أبيدوس ويقول المؤرخ المصري ما نيتو أن عشرة من الملوك حكموا ٣٥٠ عاماً في مدينة طينة . ويعتبر هؤلاء آخر مملكة جزئية في القطر المصري أسست قبل الملك مينا . ويظهر أن ملوك طينة استطاعوا أن يخضعوا مملكة الصقور في نخن ويلحقونها بمملكتهم .

ويوجد طريق قوافل يسير بين النيل والواحة الخارجة وتقع على رأسه مدينة طينة
ولذلك قال البعض بأن الطبقة الحاكمة في طينة جاءت مصر من هذا الطريق وهناك
رأى آخر يقول أن ملوك طينة جاءوا من الجنوب . وسيصبح لهذه المملكة شأن
عظيم أذ يتم على يديها توحيد القطر المصري كله .
عدا هذه الممالك الأربعة توجد جماعتان لم يصل إلى الحكم قبل الأسرة الأولى
رغم قوتها ونفوذها وإنما وصلا إلى الحكم بعد تأسيس المملكة نهائيا . أما الجماعة
الأولى فقد عرفناها قبل ذلك وهي الجماعة التي كانت تعبد الألهست، وقد شمل نفوذها
في بعض الأحيان كل مصر العليا ولكن أهم مراكزها كان في قسم هيسيلس وعاصمتها
شاشتنب جنوب أسيوط عند ابوتيج وفي مدينة نوبت (امبوس) شمال نقادة بقليل
التي تقع على رأس طرق قوافل هامة تصل بين النيل والواحات حيث يسكن الليبيون
ولذلك قيل باحتمال وجود قرابة جنسية بين اتباع ست وبين الليبيين كما يقال أن
شعرهم كان أحمرأ مما يرجح هذه الحقيقة . وأما الجماعة الثانية فهي الشعب الذي اتخذ
مركزه مدينة أون مدينة الشمس التي أطلق عليها اليونان اسم هليوبوليس . وهذه
المدينة تقع على بعد بضعة كيلومترات شمال شرق مدينة القاهرة الحالية وعلى رأس
الطريق الموصل إلى السويس . وهذا الطريق الموصل للسويس كان في الماضي طريقا
هاما للتوافل يسير من رأس الدلتا إلى السويس ثم إلى شبه جزيرة سيناء وشبه جزيرة
العرب ولذلك قيل بأن شعب أون وديانتها التي تتمثل في عبادة الشمس (رع)
مستمدان من أصل اسيوى . ولما اتحدت مصر أصبح من ضمن ألقاب الملك لقب
ابن الشمس . وسكان هذه الجزء كانوا من البدو الذين قدموا من الشرق وكانوا
مكروهين من المصريين حتى أن المثل العامي الحالي « غار الجمل بما حمل » مثل مصري
قديم ولكن هؤلاء البدو استطاعوا أن يتألفوا المصريين ويصبحوا جزءا من اتحاد
الشعوب المصرية وينسوا أصلهم الشرقي ولم تصبح لهم علاقة بالقبائل الرحل التي انحدرت
منها وبذلك استطاعوا أن يصبحوا ذا نفوذ سياسي كبير ابتداء من الأسرة الثانية .
انتهينا بذلك من تتبع الخطوة الثالثة من خطوات تأسيس المملكة المصرية وفيها رأينا
مملكة النحلة في الدلتا ومملكة الغاب في مصر الوسطى ومملكة الصقر في مصر العليا .

ثم تتحد البلاد كلها ويقوم على رأس مصر ملك واحد هو فرعون . وتبدأ حركة الاتحاد من المملكة الجنوبية - من طينة - التي يتسع نفوذها شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى البحر الأبيض شمالاً . أما كيف تم هذا الاتحاد أخيراً فتدلنا عليه المقابر الملكية التي اكتشفت في أواخر القرن ١٩ في الصحراء غرب مدينتي طينة وأبيدوس . ففي هذه المقابر وجد بترى جزءاً من آنية فخارية رسم عليها حرف الراء المصري وفوقه رسم الصقر ووجد ختماً من الطين عليه نفس الرسم وهذا هو اسم أول ملك عرف عن طريق الكتابة وهو الملك رو وكان قصره الملكي في مدينة طينة وأن كان قد احتفظ بمدينة نخن كعاصمة ثانية له وهي العاصمة القديمة للسلالة التي انحدر منها وهي سلالة ملوك الصقور .

ويقال أن الحد الجنوبي لهذه المملكة في عهد حكم الملك رو امتد حتى اسوان والشلال الأول وهناك رأى آخر أن هذا الحد الجنوبي لم يتعد جبل سلسلة . أما الحد الشمالي لنفوذ الملك رو فقد ظل هو الحد القديم لمملكة الصقور أي الحد الفاصل بينها وبين ملك اهناسية في مصر الوسطى .

وقد وجدت بحوار مقبرة رو مقبرة أخرى لملك اسمه « كت » ووجد اسمه مكتوباً على آثار كثيرة في مقبرته . كما وجد اسمه أيضاً في نخن (هيراكونبوليس) وليس في هذا غرابة وإنما الغريب أن اسمه وجد في طارخان شمال ميدوم وهي بلدة في وسط إقليم ملوك مصر الوسطى مما يدل على أن الملك كت استطاع أن يضم إليه مملكة مصر الوسطى وأن يهزم ملك الغاب في عهده ويضعه تحت سلطانه وهذه هي أول خطوة في توحيد المملكة المصرية وربما كان هذا سنة ٣٤٥٠ قبل الميلاد .

تولى الملك بعد الملك كت ملك يسمى العقرب حكم من سنة ٣٤٥٠ إلى سنة ٣٤٢٥ ق . م ووجد اسمه على شكل عقرب ولذلك أطلق عليه هذا الاسم . وورث عن كت مملكة الصقور ومملكة الغاب وامتد سلطانه على اهناسية وممفيس وطينة ونخن فعمل على زيادة توحيد هذه البلاد حتى استتب له الأمر فيها ووجد اسمه في طرة في أقصى الحدود الشمالية لمملكة الغاب كما وجد لابسا التاج الأبيض تاج ملوك الغاب مما يدل على أنه أصبح نهائياً ملك مصر العليا كلها من أقصى الجنوب إلى رأس

الدلتا . ولما وصل إلى رأس الدلتا أحتك في مناوشات مع ملك الدلتا
ذى التاج الأحمر واسكنه مات وترك للملك الذى سيخلفه مهمة هذه المناوشات .
يأتى بعد العقرب الملك نارمار الذى حكم من سنة ٣٤٢٥ إلى سنة ٣٤٠٧ ووجدت
مقبرته فى طينة بالقرب من مقبرى رو وكت وفى عهد هذا الملك تم توحيد الوجهين
البحرى والقبلى نهائياً . كما تدل على ذلك اللوحة المشهورة المسماة بلوحة نارمار التى
وجدت فى نخ (هيرا كونيوليس بالقرب من جرجا) وهى محفوظة بالمتحف
المصرى . نجد على أحد وجهيها اسم نارمار بين رأس بقرة تمثل الآلهة حاحور .
وتحت هذا نرى الملك لابسا التاج الأبيض وهو تاج الوجه القبلى وهذا يدل على
أنه حاكم الوجه القبلى وخلفه حامل نعليه ويمسك بيده صولجانا على شكل الكهثرى
ويضرب عدوه الراكع أمامه والمقبوض عليه من شعره . هذا العدو هو ملك الوجه
البحرى بدليل أن فوق رأس هذا الملك كتب اسم الوجه البحرى . (تاج) وعلى
الجانب الآخر من اللوحة نجد الملك نارمار منتصراً يلبس التاج الأحمر تاج ملوك
النحلة الذين كانوا يحكمون فى سايس فى الدلتا مما يدل على أن الملك نارمار انتصر
نهائياً على الوجه البحرى وأصبح ملك القطرين من البحر الأبيض شمالاً إلى أسوان
والشلال الأول جنوباً . وتدل بعض الآثار التى وجدت فى مقبرة نارمار ، على أنه
اشتبك فى حرب مع بلاد النوبة وانتصر عليها كما اشتبك فى حرب مع الليبيين
وانتصر عليهم . وأذا قبل أن يموت نارمار كانت مصر كلها موحدة وكان الملك
يجمع فى يديه ملك طينة ونخن من جهة وملك اهناسية من جهة ثانية ثم ملك الدلتا
من جهة ثالثة وقد لم هذه الأجزاء موحدة إلى ابنه الملك الصغير مينا وبذلك تبدأ
الأسره الأولى على رأى المؤرخ مانيتو . وأن كان المؤرخون فى الوقت الحالى توحيد
يجعلون العقرب ونارمار من ملوك الأسرة الأولى قبل الملك مينا ويتفقون على أن
المملكة تم فى عهد نارمار قبل مينا وعلى أن عمل مينا اقتصر على تنظيم هذه المملكة
المتحدة بحيث أصبحت ذات مدنية واحدة تسود القطر كله لا فرق بين جزء وآخر .

تم بحمد الله

المصادر

أولاً : المصادر العربية

- ١ — مصطفى عامر . حفائر الجامعة المصرية في المعادى . بعض نتائج الحفر في المواسم الخمسة الأولى من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ . القاهرة ١٩٣٦ .
- ٢ — مصطفى عامر ومنجيين . التقارير السنوية لحفائر المعادى من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٣ . في محفوظات كلية الآداب بجامعة فؤاد
- ٣ — مصطفى عامر . التقارير السنوية لحفائر المعادى من سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٤٧ في محفوظات كلية الآداب بجامعة فؤاد

ثانياً : المصادر الأجنبية

- 4 — Ayrton (Edward R .)
Pre - dynastic Cemetry of El Mahasna ' . London 1911
- 5 — Ball (John) : Contributions to the gecgraphy of Egypt . Cairo 1939 .
- 6 — Baumgartel (Elise J .) : The Cultures of Prehistoric Egypt . 1947
- 7 — Blanckenhorn , Die Steinzeit Palastina - Syriens und Nordafri -
- kas . Leipsig 1921
- 8 — „ : Geschichte des Nil - Storms . Zeitschrift des
gesellschaft fiir Erdkiinde , Berlin 1902 .
- 9 — Bovier - Lapierre (Paul) ,
Une Nouvelle Station Neolithique
(El O mari) au nord d ' Helwan . Compte
Rendu du Congrès intern . Le Caire 1925

- 10 — Bovier - Lapierre (Paul) ,
Stations Prehistoriques des Environs du
Caire , Compte Rendu du Congrès Intern .
de Geog . Le Caire , 1925 .
- 11 — » » Le paléolithique stratifié des environs du
Caire . Paris 1925 (L ' Anthropologie)
Tome 35 .
- 12 — » » , Les gisements paleolithiques de la plaine
de L'Abbassieh, Bull . de L'Institut d'Egypte
Tome 8 1925.
- 13 — " " L ' Egypte Prehistorique Dans Prec's
de L ' Histoire d ' Egypte t . 1 . Le Caire 1932
- 14 — Brooks (C . E . P .) Evolution of Climate
- 15 — Brunton (G) :
The Badarian Civilization & Predynastic
Remains near Badari , London , 1918 .
- 16 — " , Mostagedda and the Tasian Culture ' London
1937
- 17 — " Deir Tasa , in Antiquity t . 3 , 1929 .
- 18 — Burkitt, Our early Ancestors
- 19 — , The Old Stone Age
- 20 — Caton - Thompson (G) . & Gardner . (E . w .)
The Prehistoric geography of kharga Oasis , Reprinted
from The Geographical Journal , Vol . 80 no . 5 , November
1932 .
- 21 — Caton - Thompson (G .) & Gardner . (E . w .)
The Desert Fayum , Gloucester , Britain , 1934 .
- 22 — Childe (. V . G .) , New Light on the most Ancient East .
London 1935 .
- 23 — " " , L ' Orient Prehistorique , Paris 1935 .
- 24 — " " , The Dawn of European Civilization
London 1927

- 25 — Coleman . Ice Ages Recent and Ancient . London 1924 .
- 26 — Debono (Fernand)
Fouilles du Service des Antiquités . Hel-
ouan , El Omari . Dans Chronique
d' Egypte , Janvier 1946 .
- 27 — De FilipPl. Review of Himalayan Glaciation . in Geog . Jour .
vol . 63 , 1924 .
- 28 — Firth (C . m .)
The Archæological Survey of Nubia :
Report for 1908 - 1909 . Cairo 1912 Volume 1,2,
- 29 — " "
The Archæological Survey of Nubia Report
for 1909 - 1910 Cairo 1915
- 30 — Frankfort (Henri)
Archeology & The Sumerian Problem .
Chicago 1932
- 31 — " "
Iraq Excavations of the Oriental Instit-
ute 1932 - 1933
- 32 — " "
Tell Asmar . khafaje and khorsabad .
Chicgo 1933
- 33 — " "
Oriental institute Discoveries in Jraq .
1933 - 34
- 34 — Gabra (S):
Fouilles du Services des antiquités a Deir Tasa ,
in Ann . Serv . t 30 .
- 35 — Garstang (John)
Mahasna and Bêt khallaf .
London 1903
- 36 — Huntington (Ellsworth) ,
The Pulse of Asia New York 1907

- 37 — Huzayyin (S . A) .
Some New light on the Beginnings of
Egyptian Civilization Cairo 1939
- 38 — „ „
The Place of Égypt in Prehistory Cairo
1941
- 39 — „ „
The Flint Industry of the pre - Dynastic
Settlement of Arment , in Cemeteries of
Arment 1 by Sir Robet Mond &
Myers (O . H) London 1937
- 40 — Junker (Hermann) & Delaporte (L.) Die Volker des Antiken
Orientes Freiburg 1933
- 41 — Junker (Hermann) :
Vorläufiger Bericht über die Grabung...
auf der neolitischen Siedlung von
Merimde - Benisalama in Arz . phil . -
hist . kl . Akad . Wiss . Wien , Jahr .
1929 , 1930 , 1932 , 1933 , 1934 .
- 42 — Kœppel ;
Maadi und Ghassul , dans Biblica t.8 , 1927
- 43 — Le Chanoine (J.B.)
Un Gisement aurignacienne , Les Vachons
(Charente) dans L . AnthroPologie 1948 .
- 44 — Macalister (R.A.S)
Text — book of European Archaeology
Cambridge 1921
- 45 — Mac Curdy (George Grant) .
Human Origins , London, 1924
2 Volumes .
- 46 — Maciver (Randall,) & Mace (A.C.)
El Amrah & Abydos . London 1902

- 47 — Menghin (Oswald) & Mustafa Amër .
The excavations of the Egyptian University in the Neolithic site at Maadi .
First Preliminary Report , Cairo 1932.
- 48 — » » Sscond Preliminary . Report , Cairis 1936
- 49 — Miller (A . A) , Climatology . London 1944
- 50 — Moret (A) :
The Nile and Egyptian Civilization , London 1927
- 51 — Morgan(Jacques Jann mari de):
Recherches sur Les Origines de L ' Egypte , L , age de la
pierre et les metaux Paris 1896 .
- 52 — " " ,Ethnographie prehistorique et tombeau royales
de Negadah , Paris 1897 .
- 53 — " " , L ' Humanité Prehistorique . Paris 1924
- 54 — Nasrallah (J) :
Une Station ghassoulienne du Hauran ; dans Revue
Biblique,Janvier 1948 .
- 55 — Obermaier (H .) : Fossil men in Spain , Oxford 1925
- 56 — Passemard (E) :
Le Chalossien en France , en Egypte et en
Syrie , dans Syria . t , 8 , 1927 .
- 57 — " " : La Station Chelléenne de khillalé près de
Lattakia , dans Syria t . 8 , 1927
- 58 — Peake (H) & Fleure (H . J .)
Apes & Men London 1927
- 59 — " " Hunters & Artists " "
- 60 — " " Peasants & Potters " "
- 61 — Pendlebury (J.Q.S.)
Aegyptiaca , a Catalogue of Egyptian
Objects in The Aegean Area ,
Camdridge , 1929 .

- 62 — Petrie (w,m.F.) :
Nagada - Ballas London 1895 .
- 63 — „ „ The Royal Tombs of the First Qynasty
- 64 — „ „ Diospolis Parva ,
The Cemtries of Abadiyeh & Hu . London
1901
- 65 — „ „ : Amulets, London 1914
- 66 — „ „ : Tools & weapons. London 1917
- 67 — „ ,l : Prehistoric Egypt, London 1920
- 68 — „ „ ; Corpus of Prehistoric Pottery and Palettes
London 1921
- 69 — Quibell (J.E). Ballas . London 1896
- 70 — Reisner (george A.)
The Arcaeological Survey of Nubia .Reports
for 1907 - 1908 Cairo 1910
- 71 — Sandford (K.S.) and Arkell (w.J):
: First Report of the Prehistoric Survey
Expedition . Chicago 1928
- 72 — „ „
Palaeolithic man & the Nile Valley in Nubia
asd Upper Egypt. 1933
- 73 — .. Palaeolithic man in Upper & Middle Egypt 1934
- 74 — „ Palaeolithic man and the Nile Valley in Lower
Egypt . 1939
- 75 — Smith (Y, Elliot) and Jones (F.wood) The Archœological Suvey
of Nubia . Report for 1907 1908 Cairo 1908
- 76 — Sollas (w.J) . Arcient Hunters , London 1924
- 77 — Union géographique Internationale : Reqort of the Commission
of Pliocene & Pleistocene Terraces , 1928
- 78 — Vignard (Ed.) Une nouvelle industrie lithique :
le Sebilien, dans Bulletin de L' Institut Francais
d'Archeologie Otientale t. 22 Le Caire 1923

- 8 MAR 2007





